منهج البحث

في تحليل ظواهر اللغة وقواعد النحو

د/ ممدوح عبد الرحمن الرمّالي

أستاذ العلوم اللغوية

ورئيس قسم النحو والصرف والعروض

كلية دار العلوم - جامعة المنيا

رقم الإيداع

٢٠٠٣/١٥٧٥٠م

إهـــداء

إلى معلمتى الأصيلة السيدة / **جليلة حسنين منصور** التى علمتنى أبجديـات الحـياة والمعرفة ، وشمعتى التى تضيء لى السبيل بعد أن أظلمت عيناى ، وشراعى الذى يشق لى الأجواء بعد أن ضاق الزحام بمنكـبىّ ، وكهفى الذى أخفى فيه ضعفى عن أعين الناس ، وساعدى وعونـى يـوم لـم ينفعنى جهدى واجتهادى ، وصديقتى بعد أن دفنت أصـحابى فـى الـتراب ، ومركبى الذى يقلّنى بعد أن ضاق الطريق بقدمىّ

فَعُدْتُ كذى رِجْلين رِجلٍ صحيحة
ورِجلٍ رَمَى فيها الزَّمانُ فَشُلَّت

وكنت كذات الظلع لمّا تحاملت
على ظَلْعها بعد العِثار استَقَلَّت

مقدمة :

ليس هناك شيء على سطح هذه البسيطة يتسم بالثبات ، فهناك دائماً تباين وسمة حياتنا هذه الرئيسة التباين، فهناك تباين بين العلوم والتخصصات المختلفة، فلكل علمٍ وجهة، ولكل بحث وجهة، ولكل عالم وجهة، ولكل باحث وجهة ، لكنّ الأمر الذي حاول العلماء أن يجتمعوا عليه هو ثبات المنهج، وليس هناك منهج واحد يستطيع أن يضبط جميع الأمور أو الظواهر أو العلوم أو البحوث، فالمناهج نفسها أيضاً تتباين ، لكنّ هناك أطراً عامة استعانت بها العلوم والبحوث المختلفة ، وكذلك أراد بها العلماء والباحثون أن يجتمعوا على أقل قدر من الثوابت بحيث تخضع لهذه الثوابت العلوم والتخصصات المختلفة .

ومن هذه الثوابت المنهج، ولكن حتى داخل المنهج الواحد تتباين الوسائل والطرق والأدوات، وكما قالوا لكل شيخ طريقة ، أي تناول خاص يميز الباحث من ناحية ، ويميز البحث من ناحية أخرى، بالرغم من وجود منهج واحد . ونظراً لتطور العلوم والأدوات والوسائل، وتباين المناهج أصبح لدى كل باحث مجموعة من الاختيارات بحيث يختار الباحث الواحد للظاهرة الواحدة ما يناسبها من مناهج، كما أصبح لكل بحث ما يناسبه من وسائل وأدوات.

وهكذا أمكن للباحث الواحد أن يستعمل أو يتبع أكثر من منهج وفقاً للظواهر التي يدرسها والبحوث التي يريد أن ينجزها، وعلى هذا فليس هناك منهج واحد يضبط جميع الظواهر، أو تدرس من خلاله جميع الظواهر، كما لا يمكن أن يختص باحث واحد بمنهج معين، وإن شهر به أو اتبعه في أغلب بحوثه أو تناول ظواهره، أو أنجز به بحوثه ، لكنّ الذي أستطيع أن أقوله هو أن هناك دستوراً يمكن أن تتحد فيه العلوم والبحوث المختلفة وهو المنهج العلمي أو الطريقة العلمية وهي أمرٌ عام يمكن أن تنضوي تحته أو تبحث به الظواهر المختلفة في العلوم المختلفة ، ومن ثم يمكن للبحث

اللغـوي الـذي نعني بدراسة ظواهره وتحليلها أن يستعين بثوابت المنهج العلمي، وأن يستعمل أدواته ووسائله ، كما أنه يمكنه أن يستثمر المنجزات الحديثة للمنهج العلمي.

ولفـظ " المـنهج " ترجمة للكلمة **Method** في اللغة الإنجليزية ونظائرها في اللغـات الأوربـية الأخرى، وهي تعود إلى كلمة يونانية كان أفلاطون يستعملها بمعنى البحـث أو النظر أو المعرفة، كما نجدها كذلك عند أرسطو أحياناً كثيرة بمعنى "بحث" والمعـنى الاشـتقاقي الأصـلي لها يدل على الطريق أو المنهج المؤدي إلى الغرض المطلوب خلال المصاعب والعقبات .

ويضـع المنهج القواعد العامة للتفكير الصحيح ، ويميز بين الأحكام والعمليات الذهنـية الصـحيحة وبيـن الأحكام والعمليات الذهنية الفاسدة، ويحدد للباحثين المناهج السليمة التي تسدد خطاهم وتصونهم من الوقوع في الأخطاء والزلل .

من الممكن أن نعرف الوحدات التي تتكون منها لغة ما عن طريق وظائفها أي عـن طـريق الغرض الذي تؤديه أو الهدف الذي تحققه . وبديهيّ أنّ العلم إذا اتّضح نضـجه واطّـراد اسـتيعابه للمضامين المتنوعة وصهر ما تناقض من مكتسباته وقف مـراجعاً نفسـه فـي ضـرب مـن الاستبطان الذاتي فاحصاً أسسه المبدئية ومعاوداً متصـوراته الفعالة، ولنا في الرياضيات وما حقّقته من منجزات أسوةٌ حسنة، وهي في هـذا المضـمار العلـم الـذي تقتفي اللسانيات خطاه على أصعدة التنظير ومستويات التطبـيق، فلقد استشعر العلماء بأنّ الرياضيات لا يتسنّى لها التّقدم الثابت ما لم تتأسس علـى مـنطق متناسـق، وفعلاً فإن المكاسب الباهرة التي أدركتها الرياضيات الحديثة ولاسـيما في الحسابات الألكترونية ما كان أن تتحقق لو لم تراجع المعارف الرياضية أسسها المنطقية في القرن الماضي .

إنّ علم اللسان يمرّ اليوم بمرحلة مماثلة ذلك أن المنجزات الباهرة التي أثمرتها الدراسـة التاريخية المقارنة قد عاقت اللغويين في القرن الماضي عن الانتباه إلى أهمية بعض المفاهيم الدقيقة مثل الصوت والصيغة واللفظة والتركيب .

إنّ العلـــم – أيـــاً كان صنفه – يستند إلى مبدأ التجريد، والسبل إلى ذلك عديدة مـــنها الانطـــلاق من المحسوسات الطبيعية ثم تعميم الاستقراءات ، فيكون المسار من الخـــاص إلـــى العـــام ، وهـــذا ما يحصل في الجيولوجيا وعلم النبات ، وفي الكيمياء والفيزياء، ومن العلوم ما ينطلق من تصوّر تجريدي عام يتبنّى حقيقة ما قبليّة ينشد بها الوصـــول إلـــى الوقائع المخصوصة، ومن ذلك النمط علم المنطق والرياضيات، وليس من علم إلا وهو سائر بين استنباط واستقراء، فلا يكون كله من الاستنتاج المحض ولا مـــن الاســـتقراء المطلـــق، وكما تستند كلّ من الكيمياء والفيزياء إلى جانب وفير من الاستنباط تحتكم الرياضيات إلى جانب من الاستقراء يحدد وجهتها، إلا أنه من المتعين أن نمـــيز مـــا بيـــن العلوم الاستنباطية والعلوم الاستقرائية ومعيار الفصل كثافة الوجه الغالب على منهج العلم .

والظاهـــرة اللغوية تستوجب بطبيعتها التوسل بالمنهج الاستقرائي أولاً وبالذات فيأتي علم اللسان واصفاً للحدث الكلامي المحسوس الذي هو ظاهرة طبيعية ، وفي هذا الصنيع تكمن أهمية المعرفة اللسانية ، ولكن هل إنّ هذه الأحداث الكلامية التي يدرسها اللســـاني تســـمح فـــي طابعها اللانهائي بصوغ متصورات مبدئية عن الظاهرة اللغوية يجوز معها التعميم الاستقرائي .

إن اللساني إذ ينشد إدراك المفاهيم العامة التي تبيح تأويل الأحداث المستقاة من تحلـــيل اللغات الطبيعية يجد نفسه محمولاً على تجاوز المنهج الاستقرائي بعد استخدامه ليـــتّكل على منهج الاستنباط، أضف إلى ذلك أن التطبيقات التقنية التي دخلت اللسانيات مجالاتهـــا قـــد حتّمت ضبط أنساق استنباطية على غاية من الإحكام مما تمتثل به إلى مقتضـــيات المعرفة الحديثة . والمنهج العلمي يجب أن يطبق على دراسة اللغة، ويجب أن يعدل بالشكل الذي يتلاءم مع هذه الطبيعة الخاصة .

إن اللغـــة نظـــام، أي أنهـــا تتألف من وحدات ومن قواعد وعلاقات تحكم هذه الوحـــدات . لقـــد تبيـــن للغويين أن معظم لغات العالم لها نظام صوتي ونظام صرفي،

ونظـــام نحـــوي، ولكـــل نظـــام من هذه الأنظمة وحدات وقواعد وعلاقات تحكم هذه الوحدات ولهذا قيل إن اللغة نظام الأنظمة .

وقـــد كـــان [دي سوســـير] يـــنظر إلى اللغة باعتبارات ثلاثة: اعتبار نفسي واعتـــبار اجتماعـــي واعتـــبار شكلي، ويتمثل الاعتبار الأخير فيما قرره من أن اللغة مجموعـــة من النظم المتداخلة التي تكون فيما بينها نظاماً تركيبياً عاماً هو قواعد اللغة، وهـــو لا يعنـــي بالنظام مدلول التركيب أو الصيغة، بل يعني التركيب نفسه أو الصيغة نفسها، وهذا هو الجانب الشكلي .

الدراســـة الشـــكلية إذاً هـــي التـــي تدرس النظام أي وحدات اللغة وقواعدها وعلاقاتهـــا، ونظراً لاعتماد الدراسة اللغوية الحديثة على الجانب الشكلي للغة فقد وثق بعـــض اللغويين علاقتها بالعلوم الرياضية على اعتبار أن علم اللغة والعلوم الرياضية معنـــيان بالأنظمة الشكلية أي بالعلاقات التي تربط بين العناصر التي تؤلف النظام، وقد كـــان الهـــدف من ذلك هو الوصول إلى دقة في الدراسة اللغوية تعدل الدقة في العلوم الرياضية .

والمصطلح [شكلي] **Formal** يراد به : معايير أو خصائص لغة ما يمكن أن تســـتعمل في التحليل اللغوي أساساً لتصنيف وحداتها وأنماطها أو نماذجها ، مثل: صيغ الكلمات أو نماذج الجمل أو ترتيب عناصرها .. إلخ .

واللغويون قد يقابلون الخصائص الشكلية بالخصائص الدلالية، وفي هذه الحالة تكـــون كلمـــة [شـــكل] مقابلة لكلمة [معنى] ، وقد يقابلون الخصائص المادية للغة المنطوقة أو المكتوبة ، وفي هذه الحالة تكون الكلمة [شكل] مقابلة لكلمة [مادة] .

ووظـــيفة المـــنهج تنظـــيم هـــذه العمليات جميعاً بدءاً بتحليل الظواهر اللغوية ورصـــدها وتصـــنيفها واختيار المنهج المناسب لتناول هذه الظاهرة وأعني منهجاً من مـــناهج التحلـــيل اللغوي المتعددة . وقد أتاح لنا العصر الذي نعيش فيه اليوم من علوم اللغـــة وطرق دراستها وتدريسها ما لم يتح مثله لعلماء العربية القدماء، فهل نقف وقفة

المتفرّج على هذه العلوم قانعين بما في التراث اللغوي من معارف وعلوم نحفظها ونجترُّها ونرددها، أم نشارك ونتفاعل حتى نبث الحياة في هذا التراث بمعارف وعلوم تعيد له سيرته الأولى؟ إن قراءة التراث اللغوي العربي قراءة فهم وتمثل لا قراءة حفظ وترديد تضع بين أيدينا إجابة واضحة مستقيمة عن هذا السؤال .

ويتحقق اهتمامنا بالتراث في مثل هذا الوقت أن نصبغ ما ورثناه من نصوص من ناحية وقوانين وضوابط من ناحية أخرى بالصبغة المنهجية بأن نستسلخ بثوابت المنهج وعناصره، وأن نتسم نحن الباحثين بسمات المنهج العلمي من دقة ووضوح وموضوعية وقدرة على التجريد مما سنعرض له عرضاً مفصلاً في هذا البحث، لذلك جاءت فصول هذا البحث مسايرةً لهذا المسلك، فجاء الفصل الأول عن المنهج وتعريفه مع صبغ مفرداته المطلقة بالصبغة اللغوية، وجاء الفصل الثاني عن البحث العلمي بصفة عامة مع إضفاء الصفة اللغوية والنحوية عليها، وجاء الفصل الثالث عن ثوابت المنهج العلمي وعناصره بحيث قسم إلى قسمين : القسم الأول في سمات لابد أن يتحلى بها الباحث، والقسم الثاني عن إجراءات وخطوات لابد أن يقوم بها، وجاء الفصل الرابع عن البحث اللغوي بصفة خاصة بحيث تطبق فيه عناصر الفصول السابقة دون أن تتناول تناولاً مباشراً .

والله أسأل أن ينفع به طلاب العلم وباحثيه، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وبعد فلله الحمد ومنه المنة، وهو سبحانه وتعالى ولي التوفيق .

الإسكندرية

نوفمبر ٢٠٠٣

د/ ممدوح عبد الرحمن الرمالي

أستاذ العلوم اللغوية

ورئيس قسم النحو والصرف والعروض

الفصل الأول

المنهج

المنهج العلمي:

هـــو الطريقة التي يعالج بها الباحث مادته العلمية، كيف ينتخبها؟ وما الظروف التـــي يحيطها بها ؟ وما الاعتبارات التي يصنفها على أساسها. إلى غير ذلك ، وقد بلغ ذلك المنهج العلمي من الأهمية بالنسبة للدراسات الحديثة إلى حد أن أفرد له علم مناهج البحـــث الذي يقوم بالدور نفسه الذي كان يقوم به علم المنطق بالنسبة للدراسات القديمة ، وليس هذا العلم سوى خلاصة ما يقرره علماء كل علم من العلوم من طرق معالجتهم لبحوثهم ، فهو يبحث مثلاً في طرق البحث في الطبيعة والكيمياء والرياضة والجغرافيا والتاريخ واللغة ... إلخ .

لعـــل الدراســـات اللغوية من أقدم وأهم الدراسات التي عالجها العقل البشري . وقـــد انتقلـــت هذه الدراسات كما انتقل سواها من مرحلة التأمل العابر إلى مرحلة العلم المنظم المنهجي .

وهناك عدة تعريفات للمنهج، تدور في إطار التنظيم الدقيق لمجموعة من الأفكار مـــن أجل الوصول إلى حقيقة لم تكن معروفة من قبل، ويطبع هذا التنظيم وجود طائفة من القواعد العامة تسيطر على سير العقل، وهذه المجموعة من التعريفات للمنهج .

المنهج :

طائفـــة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم . وهو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة ؛ إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين، حين نكون بها عارفين .

وهو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة ، تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.

وهــو البرنامج الذي يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة، أو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم النظرية[١] .

والمــراد بالمــنهج العلمي بأوسع معانيه الطريقة التي يسلكها العقل في دراسة موضوع أي علم من العلوم للوصول إلى قضاياه الكلية التي يطلق عليها اسم القوانين ، أو هو الطريقة التي يبني بها العلم قواعده ويصل إلى حقائقه .

ولا نقصــد بــالعلوم هــنا العلوم الطبيعية وحدها ، بل نقصد بالعلم أية طائفة منظمة من المعارف الإنسانية حول موضوع خاص طبيعي أو غير طبيعي .

وتنقسم مناهج العلوم إلى قسمين :

الأولى : المــناهج الفنــية التــي يعالج بها الباحث موضوع بحثه على نحو معين وفقاً لطبــيعة الموضــوع المبحوث فيه، وهذه كثيرة متنوعة بتنوع العلوم . فطريقة البحــث في علم الكيمياء غيرها في علم الطبيعة، وهذه غيرها في علم الفلك أو علم طبقات الأرض، أو علم الاجتماع، أو التاريخ ؛ إذ لكل علم ، بل لكل فرع مــن علــم طريقة فنية خاصة به في جمع مادته وإعدادها أو تصنيفها وإجراء الــتجارب عليها ، وملاحظتها ، واستعمال الآلات العلمية في فحصها إن كانت ممــا تعمــل عليه التجارب أو تختبر بالآلات . وقلما يحذف العالم الواحد أكثر من طريقة فنية واحدة، وأمر هذه الطرق موكول للعلماء أنفسهم يتصرفون فيها وفقاً لمواهبهم وظروفهم الخاصة وطبيعة موضوعات بحثهم .

أمــا قيمــتها فثانوية إذا قيست بالطرق العلمية الأخرى؛ لأنّ المراد بها مجرد إعداد موضوع البحث وتبسيطه وجعله أقرب منالاً للملاحظة والاستنتاج .

---

(١) عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي ، ص ٤ وما بعدها ، دار النهضة ، القاهرة ١٩٦٣م .

والنوع الثاني : هــو المناهج المنطقية، أي الطرق العقلية التي يستعملها الباحث في كسب المطالب العلمية، وهي موضوع البحث المنطقي لسببين :

الأول : أنهــا عمليات للفكر، والمنطق يبحث في العمليات العقلية الموصلة إلى العلم .

الثاني: أنها عامة غير مقصورة على علم دون علم .

والمنهج هو الطريق الذي إذا جدده الباحث لابد وأن يكون من ورائه فلسفة ، وتتضح فلسفة المنهج بالإجابة على السؤال لماذا يختلف الباحثون أو يتفقون في التعرف على الموضوع الواحد ؟ يختلف الباحثون ويتفقون حسب الموضوعات، والفلسفات التي من ورائها، والإطار المرجعي لكل منهم ، والسبل التي يتبعونها في تحقيق الأهداف .

ولهــذا تسـتمد فلسـفة المــنهج مــن فلسفة الموضوع، فيصبغ المنهج بفلسفة الموضــوع، كما تصبغ الأشياء بالألوان مما يجعل بينهما وحدة؛ لأنّ المنهج هو الطابع الممــيز للموضــوع أو وسيلة إبرازه علمياً. من خلال السبل الفنية التي يتبعها الباحث أثــناء جمع المعلومات والبيانات ، وأثناء تصنيفها وتحليلها، وتفسيرها، وعرض نتائجها فــي شكلها النهائي، ولهذا إذا كان المنهج بلا فلسفة فهو عبارة عن مشروع ارتجالي لم يبن على أسس ثابتة .

ويعــد المنهج هو الوعي بالموضوع من خلال الوعي بفلسفته وبالخطوات التي تتبع من اجل اكتماله وتبيانه .

وتنــتج اللســانيات للدارســين إمكانات منهجية متعدّدة لتناول الظواهر اللغوية وتصــنيفها واســتخلاص ســماتها . ويرتبط مفهوم النسق المعرفي في الفكر الحديث بالــبحوث التي قدمتها دراسة الأطر الاجتماعية للمعرفة، وما انتهت إليه من تطورات تكشــف عــن تغــير أشكال المعرفة وعلاقاتها عبر العصور المختلفة . وتأسيس هذا المفهــوم فــي بحــث الظواهــر اللغوية ضروري لمتابعة التحولات التي تفرض على

الباحث المعاصر اتخاذ موقف منهجي صحيح في التعامل مع المادة التي يتقدم لدرسها، ومعرفة علاقاتها ببقية وحدات المنظومة التي تستمد منها مقولاتها .

لقــد عملت المناهج الصارمة، نتاج تربية عصر الصناعة، على تنميط العقول، وإنتاج البشر بأسلوب التوحيد القياسي، تماماً كما يحدث في إنتاج المصانع .

إن الأمــل معقــود علــى تربية عصر المعلومات كي تخلص التعليم من تلك الصــرامة وقياســية الإنتاج بالجملة . لقد أصبح العالم أعقد من أن يشمله منهج ثابت ومحدود، وإزاء تضخم المعلومات أصبحت مسألة انتقاء مادة المنهج ذات بعد أخلاقي، وذلــك لأنهــا تــنطوي على حرمان الدارس من معارف ، ربما تكون حيوية بالنسبة لتنميــته الذهنــية [1] على صعيد آخر ما زلنا متشبثين بأن كل التنوع يمكن أن نواجهه بمنهج واحد[2].

لقــد أفــرزت تكنولوجــيا الصــناعة منهجاً ثابتاً منغلقاً، فهل يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تجعل المناهج منفتحة ومتغيرة بصورة دينامية .

لقــد ولى إلى الأبد ذلك الزمن الذي كانت فيه مجالات المعرفة المختلفة بمنزلة جــزر مــنعزلة ، منغلقة على نفسها في نطاق تخصصها الضيق، وقد كانت تكنولوجيا المعلومات معول هدم للحواجز الفاصلة بين مجالات المعرفة المختلفة .

وهــنا يــتم التميــيز الحاسم بين العلم وتاريخه، فتاريخ علوم الطب والطبيعة، واللغة والنفس مثلاً يختلف بالضرورة عن الصورة الأخيرة التي انتهت إليها هذه العلوم فــي أوضــاعها المعاصــرة ، بعد أن أحرزت منجزاتها الملموسة في تاريخ البشرية

---

(1) دين كيث سايمنتن: العبقرية والإبداع والقيادة ص ٢٩٩، ترجمة د/ شاكر عبد الحميد، مراجعة د/ محمد عصفور، عالم المعرفة، أغسطس ١٩٩٣م .

(2) تراث الإسلام : ٢/٢٧٢، ترجمة د/ حسين مؤنس، د/ إحسان العمد، عالم المعرفة، نوفمبر ١٩٧٨م .

والإلمــام بهذا التاريخ له أهمية معرفية خاصة لإدراك تطور العلوم، لكنه لا يمكن أن يغني شيئاً لمن يريد أن يقف على جملة حقائقها الراهنة .

ومن اللافت للنظر أن مرتكزنا في دراسة علوم اللغة يكاد يقتصر على الجانب التاريخــي البحــت، بل يتجاوز ذلك إلى تصور غريب لتاريخ متجمد، ينكر على اللغة تطورهــا وحيويتها وحقها في التجدد المبدع . وإذا كانت اللغة – بحكم بنيتها التقنية – أقــرب منظومة العلوم الإنسانية القديمة لتحقيق قدر من التماسك المنهجين، فإن بحوثنا عنها لا تكاد تتجاوز تاريخها ومنطق عصرها ، بل كثيراً ما تقع أسيرة لوهم كبير، يعد جــزءاً مــن الوهــم الأعظــم في علاقتنا بالتراث العامة ؛ إذ نرى في بعض تجلياتها الصــورة الكاملة لأقصى ما يمكن أن تصل إليه المعرفة العلمية بظواهر اللغة . وذلك نــاجم عن ضعف وعينا بحركية الأنساق المعرفية ، وتراتب العلوم الإنسانية، وعوامل التوليد الاجتماعي الفاعلة في مسيرتها . بالإضافة إلى التراكم الخصب للمادة الإبداعية ذاتهــا فــي العصر الحديث، مما يؤدي بالضرورة إلى تغير نظمها وقوانينها . من هنا فإن باب تحول الأنساق المعرفية يعد تمهيداً لازماً للإطار العلمي .

يــرتاد هذا البحث أفقاً أخذت تستشرفه في الآونة الأخيرة مجموعة من العلماء العــرب الطليعيين في المشرق والمغرب، ومهدت له الأسلوبية بصفة خاصة وهو ينجو إلــى تقديــم عناصــر الخطــاب في إطارها المعرفي الجديد، فيلقاها وهي تتشكل عبر عملــيات تحــول كبرى، تنتقل فيها بالتدريج، أعداد متزايدة من العلوم الإنسانية ، عن طــريق الضبط المنهجي ، والتراكم العلمي، والتوالد عبر التخصص إلى منطقة البحث "الإمبيريقي" التجريبي.. بحيث لم يعد كثير منها ينتمي إلى ما يسمى بـــ " علوم الروح" التــي لا تقبل الاختبار والتحليل والتقادم ، بل أخذ يدخل في مجال " النظرية " بالمفهوم العلمي، ذات الفروض والعناصر المحددة. ويتميز بقابليته للتطبيق، وصموده للتجريب، وخضوعه للتعديل المستمر في ضوء الإنجازات المنهجية الأصيلة .

وربمـــا كـــان انتشار الدعوة لتشكيل جمعيات في كثير من البلدان الأوربية في التســعينيات مؤشــراً ذا دلالة واضحة على بداية هذه الموجة الجديدة من غزو العلوم البحتة لمجال بحث الظواهر اللغوية .

ومن المقرر في كل علم من العلوم أن يرسم الباحث منهجه العلمي الخاص به ، ثــم يأتــي دور علــم مــناهج البحث ، فيأخذ كل هذه المناهج الخاصة ، ويحاول أن يخلص بما يشبه المنهج العام لكل مجموعة من العلوم المتشابهة .

ولاشــك أن العلماء الأقدمين – وعلى رأسهم فلاسفة الإغريق وعلماؤهم – قد تــأملوا فــي واقع ما يحيط بهم من أشياء، وانتهوا من هذا التأمل الواقعي إلى أحكامهم العامــة، فهم حين قالوا بأن " الإنسان حيوان ناطق " ، قد رأوا أفراداً كثيرة من الناس، ولاحظوا لأول وهلة اشتراكهم في صفة التفكير أو النطق على حد تعبيرهم . ولكن هذه الملاحظــة السريعة ليست بكافية؛ لأن العلم الحديث لا يكتفي بالملاحظة السريعة التي ينــتقل بعدها الباحث إلى أحكام عامة، بل يحرص على ألا ينتقل إلى الأحكام العامة إلا بعــد أن يبحــث الأمور الخاصة بحثاً مستفيضاً . وقد وجد العلماء المحدثون أنهم في بحــثهم للأمــور الخاصــة قد واجهوا حقائق لا تحصى تتطلب الاستقصاء، وأيقنوا أن الأحكام العامة لابد من أن تنتظر حتى يفرغوا من التعرف على هذه الحقائق العديدة.

فممــا اســتوعبه علم المنطق من حدود تعريف البحثُ في مراتب التجريد من المحسوس إلى المجرّد الكلّي وعليه تدور المعقولات التي هي العناصر المعرفية في أيّ علــم مــن العلوم، فيكون المنطق متماثلاً مع ارتقاء العملية الإدراكية التي للعقل وعلى هذا عُدّ قانوناً .

وممــا دارت علــيه عملية تعريف المنطق مبدأ ضبط المعايير التي يختبر بها العقل مدى سلامة الإجراءات البرهانية الحاصلة لديه فيكون في غايته تلك أداة التحري بغــية القــبول أو الــنّقض، وفي هذا الصدد يؤكد الفارابي أن " صناعة المنطق تعطي بالجملــة القوانين التي شأنها أن تقوم العقل وتوجه الإنسان نحو طريق الصواب، ونحو

الحـــق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات والقوانين التي تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل والغلط في المعقولات ، والقوانين التي يُمتَحن بها في المعقولات ما ليس يؤمن أن يكون قد أخطأ فيه مخطيء ، وذلك أن في المعقولات أشياء لا يمكن أن يكون قد غُلِط فيها أصلاً وهي التي يجد الإنسان نفسه كأنّها فُطرت على معرفتها واليقين بها مــثل أن الكــلّ أعظمُ من جزئه [...] ، وأشياءَ أُخَر يمكن أن يُغلط فيها ويعدل عن الحق إلى ما ليس بحقّ ، وهي التي شأنها أن تُدرَك بفكر وتأمّل وعن قياس واستدلال : ففــي هذه دون تلك يضطر الإنسان الذي يلتمس الوقوف على الحقّ اليقين في مطلوباته كلّها إلى قوانين المنطق "[1] .

ولكــنّ أحــد مفاهيم المنطق قد ضبط – لا على العملية الإدراكية مجرّدة، ولا علــى أســاس الــتحري فــي مــا هو حاصل فعلاً – ولكن على أساس إنجاز العملية الاستدلالية التي بها ينتقل الفكر من المعلوم إلى المجهول في أصناف الدلالات .

وقــد ضــبط ابــن سينا بهذه الغاية غرض علم المنطق ، فقال : " المراد من المــنطق أن تكــون عند الإنسان آلة قانونية تعصمه مراعاتها عن أن يضل في فكره . وأعني بالفكر هاهنا ما يكون عند إجماع الإنسان عن أمور حاضرة في ذهنه متصوّرة أو مصدّق بها تصديقاً علمياً أو ظنّياً أو وضعاً وتسليماً إلى أمور غير حاضرة فيه[...] فالمنطق علم يتعلّم منه ضروب الانتقالات من أمور حاصلة في ذهن الإنسان إلى أمور متحصّلة "[2].

وعلى هذا الأساس ألحّ الغزالي عندما خصّ علم المنطق بتصنيفه "معيار العلم" إذ جعل مداره البحث في مسالك العبور من المعلوم إلى المجهول عبوراً تحكمه مقاييس مرتّــبة لا تكذب إن احترِمت ولا تَرحم إذا انتُهِكَت، فنبّه متحدثاً عن فحوى تأليفه " أن مضــمونه تعليم كيفية الانتقال من الصور الحاصلة في ذهنك إلى الأمور الغائبة عنك،

([1]) الفارابي : إحصاء العلوم، ص ٥٣- ٥٤ ، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م .

([2]) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٢٣-٢٤ ، القاهرة ١٩٤٧م .



فإنّ هذا الانتقال له هيئة وترتيب إذا روعيت أفضت إلى المطلوب وإن أهملت قصرت عن المطلوب "[1].

ولمّا كانت اللّسانيات مدينة بعلّة وجودها للمنهج أكثر ممّا هي مدنيةً للموضوع فإنّــه صار متعيناً أن يحظى البحث في أسس المنهج اللساني بمنزلة الدعامة الأساسية: تلــك التي تمسّ فلسفة العلم ونقد ثماره ، وصار التدوين التاريخي لحركة العلم اللساني قائمــاً على تعقّب الصيرورة المنهجية التي تخلّلت لحمته ، وهذا أحد الأبواب التي ينفذ مــنها الاستكشاف المعرفي الهادف إلى تقييم موضوع العلم ومادته من خلال مناهجه. غير أنّ المسار المنهجي الذي توخّته اللسانيات منذ اكتسابها الشرعية المعرفية لا يمكن أن تتضح أعماقه إلاّ إذا تمّ ربطه بنشأته التاريخية ، وتمت مقارنته بالمنهج الذي سلكته المعــارف اللغويــة قبل بروز اللّسانيات الحديثة . ولئن اتّضحت لنا عناصر المفارقة ، فــإنّ ذلك قد انصبّ على موضوع العلم، ومبحثنا في منهج العلم هو الذي يكمّل الوجه الثاني من هذه الإشكالية المعرفية .

غــير أنّ استكشاف خصائص العلوم من خلال مناهجها ولاسيما على المنحى التاريخــي لا يســتقيم إلاّ بإدراج العلم المخصوص من ضمن حركة المعارف السائدة أيامه، ولهذا السبب تعيّن أن يكون المنهج الأساسي مقارناً في هذا السياق .

كمــا يعنــي ديكارت بالمنهج قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخــذ الــباطل علــى أنه حق، وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي تســتطيع إدراكها، دون أن تضيع في جهود غير نافعة، بل إنها تزيد ما في النفس من علم بالتدريج .

وهــو يــرى أنه كلما اتجهنا نحو البساطة ، وكلما اقتصرنا في نشاطنا العلمي علــى النور الفطري كان وصولنا للحقيقة آمناً وأيسر، وذلك لأنه يقول إن النفس تشتمل

([1]) أبو حامد الغزالي:معيار العلم في فن المنطق،المطبعة العربية بمصر، ط٢، ١٩٢٧، ص٣٥-٣٦.

علـــى شـــيء إلهـــي أودعت فيه البذور الأولى للأفكار النافعة، وإذا أثقلت هذه البذور بالدروس المعقدة، لم يجن منها إلا ثمرات غثّة لا يرجى منها نفع دائم أو خير مقيم.

وهـــذا هـــو المنهج الذي بدأت تتبناه العلوم التجريبية في مطلع عصر النهضة والتـــي ثبـــت أنها حققت به أروع النتائج . والمنهج الحديث يعتمد أساساً على التجربة، حـــتى لقد قيل إن الفارق بينه وبين المنطق أو المنهج القديم هو نفسه الفارق بين منهج يســـتعمل الـــتجربة، وآخـــر لا يستعملها ، وإذا كان القياس العقلي بأشكاله التي حددها أرســـطو، هو معيار الصواب والخطأ في المنطق القديم فإن المنهج الحديث لا يرضى بغير التجربة معياراً لأحكامه .

صحيح أن عملية التجريب قد وجدت منذ أقدم العصور، وأن جميع الحضارات الســـابقة قد استعملتها كثيراً أو قليلاً ، لكنها لم تصبح أساساً لمنهج علمي ذي خطوات محـــددة إلا ابـــتداء من عصر النهضة، ولم تحتل مكانتها اللائقة في مجال الأبحاث إلا على يد فرانسيس بيكون .

فقـــد كـــان أهـــم ما دعا إليه هو ضرورة التأليف بين الملكة التجريبية والملكة العقلية، كما كان لأعمال جاليليو أثر بالغ في بيان أهمية المنهج الحديث، ودور التجربة فـــيه ، فقـــد صـــرح بأن التجربة هي أفضل شيء يعرفنا حقائق الأشياء، وأحد أسباب تقدمها هو استعمال الرياضيات .

كما رفض ديكارت المنهج الأرسطي وقال : إنه لا يزيد معرفتنا بشيء ، وأكد علـــى أهمية الرياضة في سائر العلوم، وقال بأن العلوم وحدها يمكن أن يحكمها منهج واحـــد، وكان أهم ما دعا إليه هو عدم التسليم بشيء إلا إذا ظهر بديهياً في نظر العقل، وهذا معناه ببساطة أن نعيد اختبار معلوماتنا التي تلقيناها من مختلف الطرق وبمختلف وســـائل التأثـــير النفسي والعاطفي، والتي يدخل في رسوخها في أذهاننا كل من العادة والتقاليد .

إن معرفة المنهج لا تصنع الباحث العلمي، وإنما تنحصر أهميتها في أنها تنمي مـــا لديه من استعدادات موجودة بالفعل، وهي بهذا تؤهله إلى اكتشاف بعض الحقائق، كمـــا تجنبه التردي في بعض الأخطاء التي قد يلقاها أثناء بحثه. وهذا ما يقدمه المنهج الحديث .

المنهج والنظرية والتجريب :

السؤال الذي نثيره أولاً هو : ما الطريقة العلمية ؟ وكيف يتوصل إليها ؟

للإجابـــة علـــى السؤال ينبغي أولاً تعريف العلم بالمفهوم المعاصر. إذا عرفنا العلـــم بوظيفته ، فإنه يقوم على النظر الدقيق والمشاهدة المضبوطة والتجربة المنظمة مثل علوم الطبيعة والكيمياء ، والنبات، والحيوان، والفلك، وما إليها[1] .

أمـــا غايـــته فـــتقوم على كشف العلاقات العلمية الثابتة التي تقوم بين الظواهر بعضـــها والبعض الآخر وصياغة هذه العلاقات في قوانين أو نظريات ، ثم نحولها إلى مخترعات تيسر الكثير من أسباب الحياة عند الناس[2].

ويقتصـــر دور العلمـــاء علـــى الكشف والبحث ثم التطبيق في مجالات الحياة الإنســـانية ، وهـــنا يظهر لنا أن العلم سلاح ذو حدين ، فهو إما نعمة، وإما نقمة ، فإن الإنســـان بمحـــض إرادته يستطيع أن يحوّل مكتشفاته في حقول العلوم إلى نِعَم كبرى تيســـر ســـبل الحياة وتتيح له تسخير ما في الكون لمصلحته ورفاهيته ، أو يحوله إلى نقمة عندما يستعمله في الإضرار بنفسه أو بغيره .

---

(١) د/ محمد أحمد الغمراوي : الإسلام في عصر العلم ص ١٩، إعداد د/ أحمد عبد السلام الكرداني ، دار الإنسان ، ١٣٩٣هـــ - ١٩٧٣م .

(٢) د/ توفيق الطويل : موقف العرب من العلم، سلسلة الثقافة الإسلامية .

ولنـــنظر إلـــى مدارس اللغات الشرقية التي أنشأتها بريطانيا العظمى وأوقفت علـــيها علمـــاء اللغة ليهتموا بدراسة لغات الشعوب الأخرى بهدف السيطرة واستعمار بلاد المشرق والاستيلاء على خيراتها والتحكم في شعوبها .

لـــيس للعلماء أي دور إذن في إضافة شيء جديد إلى مخلوقات الله عزّ وجلّ ، وكل ما هنالك أنهم يسيرون سيراً حثيثاً في طريق اكتشاف قوانين الفطرة [أو سنن الله في الكون كما ينبغي لنا أن نسميها] [1].

ويتخذ البحث العلمي أدواراً أو مراحل هي[2]:

الـدور الأول : هـــو دور رصـــد الظواهـــر وتســـجيلها، فهو دور التجربة والمشاهدة، ويســـتلزم تكـــرار المشاهدة في الظروف نفسها، فكل واقعة من الوقائع العلمية لابد أن تثبت من تجارب متعددة في ظروف محددة واضحة .

الـدور الثاني : تجميع الوقائع ، فإذا كانت من باب واحد لابد أن تكون ناشئة عن قانون طبيعي واحد – أو بمعنى أدق – عن سنة من سنن الله واحدة .

الـدور الثالـث : اســـتنباط القوانين الفطرية أو الحقائق الكلية المستخلصة من الحقائق، الجزئـــية ، أو تفسير الظواهر والربط بينها في شكل نظريات ، ومن هنا تنشأ النظرية العلمية .

ولفهـــم قـــيمة النظرية العلمية ينبغي التمييز بين الحقائق والظواهر ، فإن العلم يعنـــي بالظواهـــر أي كل ما يشاهد حدوثه في الطبيعة مثل ظاهرة انعكاس الضوء من المـــرايا، وظاهرة تساقط الأجسام إلى الأرض ، وظاهرة تمدد الأجسام بالحرارة ، أما الحقـــيقة فهي الوصف الصادق الأمين لأية ظاهرة أو جزء من ظاهرة ، ويقتصر أمر

---

(1) د/ محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم والمدنية ص ٤٤ ، ط دار الإنسان ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م .

(2) السابق نفسه : ص ٤٢ ، ٤٣ .

تسـمية [الحقـائق العلمـية] بهذا الاسم على مدى الصواب الذي نصف أو نقيس ما يحدث بالفعل، وكذلك على مدى ما يتضمنه وصفنا أو قياسنا من دقة [1].

مـثال ذلك أن قانون الجاذبية الذي اكتشفه نيوتن ، إنما يصف لنا فقط نوعاً من [النظام] الموجود في الطبيعة ، ولكنه لا يصل إلى الحقيقة ، أو إلى جوهر ما يحدث.

الحقـائق إذن ليسـت هي الظواهر ، ولكن هي أوصافها وتتوقف الحقائق إذن على الأفكار والتصورات التي تعالج بها الظاهرة .

وعلـى ذلـك يمكـن القول بصفة عامة إن تقدم العلوم في هذا العصر هو في الحقـيقة ، والواقع مجرد تقدم لأفكارنا وتصوراتنا فقط، أما الحقيقة أو الغاية فالعلم أبعد مـا يكـون عـنهما . وآية ذلك أن النظرية العلمية مهما طال عمرها وكثرت الوقائع المؤيـدة لها، يكفي لقتلها والقضاء عليها واقعة واحدة تناقضها ، بحيث لا يمكن التوفيق بيـنهما بحال ، [وفي تاريخ العلم نظريات خرّت صريعة بعد أن عاشت قرناً أو أكثر مـن قرن، صرعتها حقيقة علمية ناقضتها ولم ينقذها من الموت كثرة الحقائق الأخرى المتفقة معها ؛ إذ الغرض من كل هذا الجهاد والعراك في العلم هو الوصول في النهاية إلـى السنن والقوانين التي تجري عليها فطرة الكون . والسنة أو القانون العام يجب ألا يؤدي فقط إلى باطل وألا يشذ عنه قط فرد أو جزئية في المجال الذي هو علم فيه[2] .

ولا وجـه شـبه بين النظرية التي تؤدي إلى التصور، والمنهج الذي يعيد بناء مسـيرة الصـورة أو الفكـرة، ويتفحصها، ويقطع معها المراحل التي تدخلها في حيّز التطبيق. وتقوم النظرية برسم صورة الفكرة الجديدة، بينما يهتم المنهج بتطبيق الكشف، وبتزويد الباحث بمجموعة من الوسائل الإجرائية التي تنتقل بها الفكرة إلى تطبيق فعلي وواقعي وموضوعي وعملي . تثبت النظريات والفرضيات والمناهج الحديثة أن الكشف

---

(1) د/ محمد جمال الدين الفندي : كتاب الله والكون ص ٥٥-٥٨ ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(2) د/ محمد أحمد الغمراوي: بين الدين والعلم ص ٢١ .

هو في آن واحد ، مجموعة من العمليات الحدسية التخمينية ، تعقبها عمليات إجرائية ، وأن الأولى تقدم للكشف الأدوات الفكرية المجردة،وأن الثانية تقوم بالتجريب والتطبيق.

يعد **هليمسليف** أن كل الأعمال اللغوية التي سبقته لم تصل بعد إلى بناء نظريّة علمـية للغــة بــأتمّ معــنى الكلمة . وهو لا يقتصر في نقده هذا على التراث الفلسفي واللّغــوي الأوروبــي القديم ، بل يشمل بذلك " النحو المقارن " وأعمال بلومفيلد ودي سوسير وحلقة براغ رغم إقراره بقيمة العملين الأخيرين .

ولما كان الأمر على ما ذكرنا فقد خصّص القسم الأول من مصنفه[1] لتوضيح شروط صياغة النظرية العلمية عموماً. وكان يهدف بذلك إلى فضح الخلفيات المعرفيّة لــلآراء الفاشــية فــي الدراســة اللغويــة وبيان تهافتها ، كما كان يهدف إلى التشريع لفرضــياته وإقــناع القارئ بها ، وقد اكتسى هذا القسم طابعاً من السجال جعل دحض النظريات والآراء الشائعة يقترن بالتنظير الأبيستمولوجي .

ولعــلّ أهــمّ ما يميّز **هيلمسليف** على المستوى المعرفي الخالص هو مناهضته للتجريبــيّة بمخــتلف أشــكالها ، ســواء بمعناها البدائي أو كتيار فلسفي شهر بتبجيله للمعطــيات علــى الفرضيات في النظريّة العلمية . وهو موقف له ما يبرّره تاريخياً إذا عددنــاه ردّ فعل على التأمّل الفلسفي العقيم الذي ساد عند المدرسيين [**Scolastique**] قبل ظهور العلوم التجريبيّة في العصر الحديث [2].

ولئــن كان **هيلمسليف** يلحّ على أنّ نظريته التي يعتزم بناءها ويدعو إلى تبنّيها تخــتلف اختلافاً جوهرياً عن التأمل الفلسفي العقيم ، فإنه يلحّ تقريباً الإلحاح نفسه على أن المعطــيات وحدها والاستقراء الذي يلهج بذكره كثيرون لا يمكّنان من معرفة علميّة

---

(1) Hielmslev (Louis) : Prole gomenes a une the orie du Language, Traduit du danois par un acanger avec La collaboration d'Annick. Wewer, les editions de Minuit . 1971

(2) R.H.Robins : Breve histoire de la linguistique de platon a chomsy, traduit de l'arglais par Maurice Borel, Editions du Seuil-Paris 1975.P.118.

حقيقــية . مصــادرته الأولــى تقول بأولويّة الفكر على معطيات التجربة في المباشرة العلمــيّة وتجعلــه من أتباع العقلانيين بداية من ديكارت[1]، وهو موقف تبنّاه قبله دي سوسير وأكّده بعده شومسكي[2] .

ولمــزيد دحــض هــذه التجريبية التي تجعل المعرفة العلميّة ظلاً أميناً للواقع وتــتوهم أن المعطــيات الاختباريّة التي ينطلق منها الباحث تعلو على الفرضيات التي تحــدّد شروط النظرية العلمية العدول ببعض المصطلحات الشائعة في فلسفة العلوم عن معــناها المــألوف المستقر الذي رسّخه التجريبيون فيعيد تعريفها تعريفاً يناقض معناها الشائع عند العموم ويحدث بعض المفارقات المقصودة .

وأساليب التقعيد [أي مناهجه] كثيرة متنوعة، تتوع الاتجاه والهدف والحاجة، وكلهــا صــالح للعمــل ، ولا يضير بحال أن نأخذ بهذا الأسلوب أو ذاك، فمادة النظام المــرغوب فــي بــنائه موجودة هناك في اللغة . وليس يفسدها أو يضيرها أو يضيّعها اخــتلاف المــناهج والأساليب ، شريطة عدم الخلط بينها في العمل الواحد. فاللغة هي اللغــة وقواعدهــا مبثوثة فيها ؛ إذ هناك فرق بين التقعيد والقواعد، فالتقعيد هو عملية وضــع القواعــد ، أي باستخراجها واستخلاصها من الظواهر اللغوية، وجعلها أحكاماً كلية تنطبق على أفراد مجموعة الظواهر المتحدة أو المتماثلة .

والتقعــيد بهذا المعنى من صنع الدارس أو الباحث، وكما يختلف الدارسون في اتجاهــاتهم وأهدافهــم، تخــتلف أساليب التقعيد عندهم ، ولكل أن يختار منهجه بشرط الوضوح والعمومية والموضوعية والصلاحية للتطبيق .

---

(٢) R.H.Robins : Breve histoire de la linguistique de platon a chomsy, traduit de l'arglais par Maurice Borel, Editions du Seuil-Paris 1975.P.118.

(٢) Ruwet Nicol'as : Introduction a La grammaire generative plon paris . الفقرة الأولى من الفصل الأول .

أمـــا القواعد فهي هناك في اللغة، شئنا أم لم نشأ، أدركها الناس أم لم يدركوها. وتـــتحقق القـــاعدة المعيـــنة في الظواهر اللغوية التي تسلك مسلكاً عاماً واحداً مطرداً، والتـــي تـــتماثل فـــي السلوك في سياقها المعين، وتقوم بوظائف واحدة . إنها من صنع اللغة، قل – إن شئت – هي من صنعها ، في حين أن التقعيد من صنع الباحث .

ونعنـــي بالدراســـة العلمية البحث الذي يستعمل الأسلوب العلمي المعتمد على المقاييس التالية :

- ملاحظة الظواهر اللغوية – التجريب والاستقراء المستمر .
- بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج لسانية قابلة للتطوير .
- ضبط النظريات اللسانية الكلية، ثم ضبط الظواهر اللغوية التي تعمل عليها.
- استعمال النماذج والعلائق الرياضية الحديثة – التحليل الرياضي الحديث للغة– الموضوعية المطلقة .

وبمـــا أن اللغـــات البشرية لها ارتباطاتها الإنسانية والطبيعية المتفرعة ، كذلك فـــإن لعلـــم اللسانيات فروعاً متعددة يختص كل منها بناحية جزئية من هذا الكل الذي اســـمه "اللغات" : فاللسانيات النظرية تبحث بالنظريات اللغوية ونماذجها المتفرعة عنها وكيفـــية معالجـــتها للبنـــية اللغوية،ســـواء أكانـــت تلك النظرية اللغوية في الماضي أم الحاضر.

وبعد أن أعاد هيلمسلف تعريف مبدأ التجريبيّة بشروطه الثلاثة وبيّن أن الوفاء لمعطـــيات التجربة " المفترضة " يكون باعتماد الاستدلال [**deduction**] لا الاستقراء ، وبعـــد أن وضّح أن علاقة النظرية العلمية بالمعطيات الملموسة ليست علاقة مباشرة يشرع في عرض أدوات التحليل التي سيعتمدها لصياغة فرضياته وهي ثلاثة :

[أ] نظام من التعريفات وشبكة من المصطلحات .

[ب] المبدأ الابيستمولوجي للتحليل .

[ج] والشكل الذي سيكون عليه التحليل .



كما يُشترط في نظرية اللغة التي تحقق الشروط الابيستمولوجيّة أن تدقق المفاهيم التي تستعملها بأقصى قدر حتى تكون منطلقاتها صريحة . ويكون ذلك بتحديد شكلي [Formel] لنظام متناسق من التعريفات .

ودراسة اللغة أو دراسة الموضوعات دراسة علمية تعني في النهاية : إنشاء نظرية متناسقة، نظرية تبين لنا كيف تعمل اللغة، نظرية نستخرج منها مناهج دقيقة محددة لوصف اللغات .

إن النظرية ليست – كما يقول [هاليداي] روحاً سابحة في الهواء، إن النظرية لها عناصرها التي تتمثل في ملاحظات لا حصر لها تتصل بالأحداث اللغوية . ولأن النظرية تبنى علاقاتها على أساس الملاحظات ، الملاحظات التي يُشار إليها على أنها تجريدات " ينبغي أن تفهم على أنها علاقة لا عملية " فإنها – أي النظرية – يمكن أن تأخذ أشكالاً مختلفة، بعبارة أخرى : النظرية ثمرة بيانات مضبوطة في داخل إطار العملية [١] .

الهدف إذاً هو بناء نظريات لا جمع وقائع عن اللغة، والنظرية – إذا كانت جيدة لا تنفصل عن الواقع أبداً ، بل العكس هو الصحيح . الغرض الأعظم من بناء النظرية هو تفسير الواقع أو المادة، والواقع الذي نريد فهمه وتفسيره هنا هو اللغة، إننا نريد أن نكتشف كيف تعمل اللغة،والنظرية وحدها هي التي تقدر على أن تفعل ذلك[٢].

ويشير [هاليداي] إلى تأثير البحوث التطبيقية في انتشار علم اللغة مقرراً أن الدراسة اللغوية النظرية الخالصة لم يقدر لها الانتشار إلا بعد أن اتضح للباحثين كيفية الاستفادة منها، ومن هنا فحسب حظيت بالاحترام[٣].

---

(١) Halliday, Mc Intoch and Strevents, the Linguistic Sciences and language Teaching, ELBS edition, London 1975, P.56 .

(٢) Crystal Linguistics, P.112, Penguin Books, 1968.

(٣) Linguistic Sciences and Language teaching, P6 .

ولعلـــه مـــن المفيد أن نقدم هنا تعريفاً للنظرية مع أن هذا العمل معقد ومحاط بالمخاطـــر، الـــنظرية: تفسير لظاهرة أو مادة يعرض علينا جانباً من الواقع نرغب في فهمه، ونبني منه نظاماً محدداً أو ما يشبه ذلك .

وفـــي مجـــال علـــم اللغة المادة المباشرة المراد تفسيرها هي الجمل المنطوقة والمكتوبة التي يستعملها فرد من أفراد المجتمع اللغوي المدروس ليشمل رأي أصحاب المـــنهج التولـــيدي فسنقول : المادة المباشرة في قائمة من الأحداس اللغوية تؤلفها ملكة هـــذا الشخص اللغوية .. أن النظرية – ببساطة – ليست تلخيصاً للمادة ولا هي تفسير لمـــادة مخـــتارة خاصة فحسب أن النظرية التي توضع لتفسر أنماطاً موجودة في جزء خـــاص مـــن المادة، ربما تكون نظرية بمعنى ضيق جداً ... للهدف الكلي للنظرية أن تكون تفسيراً عاماً : التفسير الذي تفترضه النظرية سوف يعالج كل المادة التي درست أولاً، ولأنـــه ســـيعالج كذلك مادة أخرى بجانبها .. أن الحديث عن نظرية يعني تجاوز المـــادة التـــي وضـــعت في الاعتبار أصلاً. و لنقل ذلك بعبارة أخرى : النظرية تقدم ادعاءات حول النمط أو النظام الذي يكمن في المادة، وتتنبأ بأن هذا النظام سوف يفسر جـــيداً ، وعلـــى ســـواء عينات مستقلة من المادة وما يمكن إثباته من هذه التنبؤات هو المعيار الدقيق لصلاحية النظرية[1].

غـــير أن بعـــض اللغويين يرى أن الوصول إلى بناء نظرية عامة لتفسير كل جوانـــب اللغة ربما كان عملاً غير واقعي، بل إنهم يعدون الفكرة العامة للنظرية فكرة غامضة ومجردة، ولا يمكن تطبيقها مباشرة على المادة .

غير أن هذا النحو قد أصاب منهجية البحث فيه بعض الشوائب، ولحقته بعض نواحي القصور . ولنشر الآن إلى مثال واحد من أمثلة الاضطراب المنهجي في التقعيد ، بسبب الخروج عن واقع اللغة والاعتماد على مناهج أو أفكار جانبية لا تلائم الحقيقة اللغويـــة بمعـــناها الدقيق . كثيراً ما كان علماء العربية يلجأون إلى المنطق ، يلتمسون

---

(1) Crystal, Linguistics, P.P. 112,113 .

مـــنه العون في تقعيده وضبط أحكامه؛ فجاءت بعضُ أعمالهم في هذا المضمار مخالفة للواقـــع اللغـــويّ والاستعمال الحيّ للغة، الأمر الذي أدَّى إلى تعقيد بعض جوانب هذا النحو واضطراب شيء غير يسير من قوانينه، بحيث أصبحت مثاراً للشكوى في القديم والحديـــث، وســـبباً مـــن أسباب النفور منه وعدم القدرة على فهمه واستيعابه في يسر وسهولة .

اتخـــذوا القياس المنطقي لهم في مرحلة من مراحله منهجاً وطريقاً من طرائق التفكـــير في النحو. والقياس في حد ذاته مبدأ مقبول مشروع في كل العلوم، شريطة أن يكـــون هـــناك توافـــق أو تماثل بين المقيس والمقيس عليه في السمات والصفات، وأن يكـــون المقـــيس عليه – في اللغة بالذات – له واقع ووجود يتمثل في الاستعمال الحي للكلام . ولكن علماء العربية بالغوا في تطبيق هذا المبدأ وبالغوا في الالتزام بأحكامه ، حتى لقد كانوا يقبلون ما يجيزه القياس المنطقي ، وأن لم يرد به سماع . ويفضلون لغة قبـــيلة علـــى لغة قبيلة أخرى، على أساس من القياس ، لا على أساس الظواهر اللغوية التي تتمتع بالأفضلية ، بسبب سعة الانتشار واطّراد الخواص وتوافقها .

لقـــد كـــانوا مغرميـــن بالقياس حقاً، حتى إن بعضهم نصب نفسه للدفاع عنه، وتـــرويج أحكامـــه، واتخذهـــا مبدأ عاماً في صنعة النحو، وتصنيف مسائله وقضاياه . وهـــا هـــو ذا ابن جني يرى إذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلاً وجب أن يكون قياساً وعقلاً .

ورأي آخـــر أن إنكـــار القـــياس في النحو لا يتحقق لأن النحو قياس كله، فمن أنكره فقد أنكر النحو كما ينسب إلى الكسائي قوله : " إنما النحو قياس يُتَّبع وبه في كل أمـــرٍ يُنْـــتفعْ ولـــم يقف بهم الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزوه إلى توسيع دائرة القياس وتشـــعيب مســـائله، فـــنظروا في أركانه وأصوله، قصداً إلى الأخذ بها وتطبيقها على التفكير النحوي .

ولقد كان لواحد من هذه الأركان شأن أي شأن في معالجة قضايا النحو ومسائله؛ ذلك هو مبدأ " العِلّة " . فلكل شيءٍ عندهم علة منطقية، ومن ثمّ أخذوا يلتمسون العلل والأسباب للظواهر النحوية، ويجمّعونها ويصنفونها إلى مجموعات، حتى ضاقت بها كتب النحو وامتلأت بها أدمغة الدارسين والمتعلمين قبل أن تمتلئ بالحقائق اللغوية المتمثلة في القواعد والضوابط الأصلية التي ينتظمها الكلام الفعليّ .

أما أمثلة هذه العلل فكثيرة متنوعة : فهناك علل الإعراب، لم رُفع الفاعل ولم نُصب المفعول مثلاً ؟ وعلل البناء وأنواع البناء : لم بُنيت هذه الصيغة أو تلك ؟ ولمَ كان بناؤها على الفتح أو الضم أو السكون مثلاً ؟ وهناك علل التشبيه ، كما في إعراب المضارع لمشابهته للاسم، إلى غير ذلك من العلل التي أفرطوا في الجري وراءها، وفي تشعيب أنواعها، حتى أصبح لديهم ما يعرف بالعلل الأُوَل ، والعلل الثواني، والثوالث. وإنك لو نظرت في هذه العلل كلها أو جُلّها لوجدتها عللاً متهافتة عارية من الفائدة بعيدة عن الواقع . وإنما الواقع في الحقيقة أن جميع الظواهر اللغوية نحوية كانت أم غير نحوية إنما ترجع إلى المتكلم نفسه، فهو صانعها والمنشئ لها .

ولقد كان لهذا الضرب من التفكير الفلسفي آثار بعيدة المدى؛ إذ جرهم إلى الاهتمام بالصور والأشكال أكثر من عنايتهم بمعاني الكلام ووظائفه . ومن ثمّ ضاع كثير من حقائق النحو وسط هذا الزحام من مسائل الجدل الصوري، وهي مسائل أثقلت كاهل الدارسين والمتعلمين ، وحالت دون وقوفهم على واقع اللغة ، كما جاءت على ألسنة أصحابها، لا كما رسم النحاة وأرادوا لها .

وهكذا نرى أن كثيراً من صعوبات النحو العربي ومشكلاته ترجع إلى التجاء النحاة إلى التفكير المنطقي والنظر الفلسفي مضحّين في كثير من الأحوال بواقع اللغة واستعمالها الحي . من أهم آثار هذا النهج الغريب عن طبيعة اللغة – بالإضافة إلى ما ذكرنا– ظهور ما عرف فيما بعد بـ " نظرية العامل "، فإذا كان " لكل حادث محدِثٌ " في الفلسفة الكلامية فكذلك " لكل معمول عاملٌ " عند رجال النحو . ومعناه في

اصطلاحهم أن هناك علّة لكل حالة من حالات الإعراب من رفع ونصب وجرّ وجزم، وكذلك حالات البناء وإن لم تتغيّر صور الصيغة المعينة من مكان إلى آخر في الجملة والعبارة . وهذه العلّة عندهم تكمن في العامل الذي يقوم بدور التفسير والتوضيح لحدوث هذه الحالة الإعرابية أو تلك في هذا الموقع أو ذاك . فإن كان هذا العامل موجوداً فقد عثر النحاة على ضالّتهم ، وإلاّ يكن ، قدّروه وافترضوا وجوده على وجه يتّسق مع الحالة الإعرابية المعيّنة. وقد يكون العامل شيئاً معنوياً ليس له وجود لفظي في الكلام ولا يمكن تقديره أو افتراض صورة لفظية له، كما في حالة " المبتدأ " ؛ إذ هو مرفوع " بالابتداء " عند قوم منهم .

ولقد كان لهذه النظرية دور خطير في تقعيد النحو وتصنيف أبوابه وتبعيج مسائله وتشعيب أمثلته إلى حدٍّ أصبحت معه قضايا هذا العلم – وقضايا الإعراب بخاصة – تدور وجوداً وعدماً وصحة وفساداً مع المفهوم الفلسفي لفكرة العامل . وقديماً قالوا " الإعراب بخاصة – يدور وجوداً وعدماً وصحة وفساداً مع المفهوم الفلسفي لفكرة العامل " . وقديماً قالوا " الإعراب أثر يجلبه العامل " كما وضع علماء النحو كتباً مستقلة في العامل وصنوفه : وضع أبو علي الفارسي كتاباً سماه " العوامل " وكذلك ألّف عبد القاهر الجرجانيّ كتاباً آخر هو " العوامل المائة " .

وقد بدا لنا بعد تدبّر هذه المقاربات للتراث أن عيبها هو اتّصافها بالتجريبية. ونحن لا نقصد بالتجريبية تلك النزعة في العلوم التي تفضي باعتماد التجربة قبل إصدار أحكام علميّة ، فتلك من محاسن المنهج العلمي، وإنما الذي نقصده بالتجريبية [empirisme] ، هو قلّة التنظير للممارسة العملية وعدم وعي الباحث بالمسلّمات التي ينطلق منها وعدم تفكيره فيما يقتضيه التسليم بها من مستلزمات ونتائج فرعيّة .

ونودّ أن نرفع التباساً قد يعرض فقولنا قد يوهم أن التجريبية هي دائماً نتيجة تقصير من الباحث والحق أنها قد تكون نتيجة مرحلة تاريخية تكيّف جهود الأفراد رغماً عنهم .

وفيما يتعلق بموضوعنا فإن مقاربات التراث اتّسمت بالتجريبية ؛ لأنّها في الأغلب الأعمّ عندما كانت تنقد التراث النحوي وتقيّمه لم تكن تستند إلى نظريّة واضحة لما ينبغي أن تكون عليه الدراسة اللّغوية العلمية ، ولما ينبغي أن تكون عليه الدراسة العلميّة عموماً، ولم تكن واعية بكل الصعوبات والإشكالات النظريّة التي تقتضيها عمليّة التقييم هذه .

ولهذا الوضع أسباب كَيْفَتْهُ : منها ما يتعلق بالدواعي التاريخية والاجتماعية والحاجات الظرفيّة التي كانت وراء هذه المقاربات وهي أسباب عربية داخلية . ومنها خاصّة ما يتعلّق بنشأة النظرية العلميّة للدراسة اللّغوية، وتطورها، وكيفية تقبّلها، ومدى تمثّلها من قبل اللغويين العرب، ونعني بذلك علم اللسانيات .

هذا العمل قراءة للتراث النحوي ومحاورة له بالاعتماد على إطار نظري واضح ومتناسق، ينطلق من قراءات التراث السابقة له من إبراهيم مصطفى إلى د/تمام حسان ، فيعتمدها ويبني عليها، وهو إذ يقدّرها حقّ قدرها يحاول أن يتفادى أخطاءها ونقائصها. وهي تتلخص فيما سميناه " التجريبية "[1] **Empirisme** التي تمثل العيب الأساسي لمقاربات المحدثين للتراث النحوي ونقصد بالتجريبية قلة التنظير للممارسة العلمية وعدم تفكير الباحث في منطلقاته ومسلماته .

ولهذا السبب استعصى على المحدثين صياغة القضايا التي يثيرونها والأهداف التي يرمونها صياغة صريحة . وقد كان ذلك بسبب ضعف أسسهم النظرية على مستويين :

- على مستوى إدراك خصائص النظرية العلمية عموماً وشروط بنائها ومستويات التركيب فيها، وما تنفصل به من التأمل الفلسفي العقيم والتفكير المذهبي أو الوثوقي .

---

(1) د/ فارس الفهري : اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية ، الكتاب الأول ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ١٩٨٥م ، ص ٥٧ .

- علـــى مستوى الدراسة اللغوية لما تتميز بها الظاهرة اللغوية من تشعّب وما تقتضيه مباشرتها من احتياطات منهجية .

وقد حاولنا أن نتجنّب هذا النقص في قراءات اللغويين العرب السابقين لنا على هذيـــن الصعيدين . فقد اتضح لنا - بفضل تأخّرنا التاريخي عنهم ، الذي ييسر عملنا - أنـــه بـــدون هذا الإطار النظري المتكامل لا يمكن صناعة تأويل متين للتراث النحوي وتوضيح علاقته باللسانيات ، ومن ثم علاقتنا به .

وقـــد اقتضـــى منا نقدهم والسعي إلى تجاوز الغاية التي بلغوها أن نفصل في النظرية العلمية عموماً ، وفي النظرية اللغوية بصفة خاصة بين مفهومين أساسيين :

- الفرضيات العامة .
- أنظمة .

وهـــو فصـــل معهـــود في فلسفة العلوم [**epistemologie**] والمنطق والعلوم الصـــحيحة . ويمكّـــن اعـــتماده مـــن إدراك دقيق لما يميّز التفكير العلمي الحديث من الممارســـة العلمـــية التـــي سبقته . ولما كانت اللسانيات أحد العلوم الحديثة فإنه يسمح بـــتحديد مـــا يمـــيّز اللسانيات من التفكير اللغوي القديم، وفهم تطوّر هذا العلم ، وإنارة الجدل بين أصحابه في ما يتعلق بضبط منعرجاته الحاسمة .

إلاّ أن أهـــمّ ما في هذه الثنائية في ما يتعلق بموضوع بحثنا - أنها تيسّر تحديد مـــا نريد دراسته من التراث النحوي تحديداً دقيقاً . وقد مكّنتنا من توضيح القضية التي أثارهـــا اللغويـــون العـــرب المحدثون عند نقدهم للتراث النحوي، وتقديم الإجابة التي راموها وأخطؤوها لافتقارهم للأدوات النظرية التي تمكّنهم من ذلك .

الســـؤال التالي يمثل الصياغة الدقيقة عندما راموا إصلاح النحو وتيسيره : ما قـــيمة النظام النحوي العربي بعدّه جملة من القواعد الصرفية والإعرابية بالنظر إلى ما جدّدت فيه اللسانيات في وصف الألسنة البشرية ؟

ذلــك أن تراثنا اللغوي قد تتابع عليه الباحثون من الأسلاف وحتى المعاصرين فـــي أيامــنا هــذه ، والمعياريّة نصب أعينهم، لا يحيدون عن أسسها فيما يعالجون من مسائل الفصحى سواء في الجوانب الصوتية أو الصرفية أو النحويّة أو الدلالية .

ويحاول بعض المحدثين من اللغويين العرب تجاوز قيود المعيارية في بحوثهم متطلعيــن إلى تطبيقات وآفاق نظرية، تعتمد على الدرس الوصفي المجرّد ثم تنقلب إلى صــياغة حــيّة معاصــرة ، فيها عربية تختلف كثرةً وقلة في ضوابطها عن الموروث التقعــيدي والاســتعمالي ولا يستقيم لنا فهم الطرائق التي تجري في التحليل ما لم نقف علـــى أبعــاد هذا المنهج المعياري، ونفصل بين مساحات لابد أن يغطيها وأخرى تظل متاحة فيها فرص التناول التطوري والتجديدي للعربية .

لقد كان علماء العربية يقيسون الأداء اللغويّ سواء في مستوى التعامل اليومي أو فـــي النتاج الفني والفكري والعلمي بمعاييرهم التي استنبطت في عصور الاحتجاج ، ومن ثمّ تصدر الأحكام لتبرز التوافق أو التنافر، أي الصواب أو الخطأ، وهذا يعني أن قواعدهــم كانت سابقة على تأملهم ونقدهم ولا سبيل إلى درس وصفي يمكن أن يؤدي إلـــى إثــبات ما يخالف أصلاً عرف مكانه في منظمة تقعيدية، ولقد ربط السيد الشريف الجرجانـــي [ت ٨١هـــ] في تعريفاته بين المعايير العقلية وتلك اللغوية، فالمنطق " آلة قانونـــية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر فهو علم آلي " ... وهذا التعريف "يخـــرج العلـــوم القانونية التي لا تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر ، بل في المقال كالعلوم العربية ".

إن القـــول بإمكان لدرس يتناول العربية الفصحى وصفياً في كل حقبة مرّت بها منذ الجاهلية القديمة إلى العصر الحديث، يبدو بحاجة إلى برهان يزيل التداخل بين هذه الوصـــفية وما سيبنى عليها من علاقات تطورية وذاك النهج، الذي يختم اتباع المعايير والقوانين التي استنّها علماء العربية الفصحى .

الوصـــفية وما سيبنى عليها من علاقات تطورية وذاك النهج، الذي يختم اتباع المعايير والقوانين التي استنَّها علماء العربية الفصحى .

لقــد انــتهى علماء اللغة إلى أنّ " وظيفة اللغوي هي وصف الحقائق لا فرض القواعــد "[١] ، وتلــك وظــيفة لــم يفهمها على حقيقتها أحد مثلما فهمها وطبقها سلفنا الصــالح مــن علمائـــنا الأولين، إذ أنشأوا في فجر الإسلام يجمعون اللغة ورواياتها، ويمحصـــون نصوصـــها كل التمحيص، ويخضعونها لطرائق الاستقراء، ليخرجوا منها بما يسمونه " سنن العرب في كلامها " .

يمكنـــنا القـــول إذن : إنّ مـــنهج دراسة اللغة عند العرب بدأ وصفياً استقرائياً، تقرر فيه الوقائع في ضوء النصوص، لا تفرض على أحد ولا يُقضى بها على أحد .

ولكـــن هذا المنهج السليم سرعان ما انحرف واعتراه الضعف، منذ أن استبدل العرب القواعد بالحقائق، والمعايير بالوقائع، والإلزام المتسلط بالوصف الدقيق الأمين، وبـــدأ الناس يسمعون من اللغويين مثل هذه اللهجة الجازمة الحاسمة : " وليس لنا اليوم أن نخـــترع، ولا أن نقـــول غـــير ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها. ونكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن "[٢].

عوّلوا أول الأمر على سليقة الأعرابي، وظنوا أنه " إذا قويت فصاحته وسمت طبيعـــته تصـــرف وارتجـــل ما لم يسبقه أحد قبله به "[٣]، واقتنعوا بأن الأعراب " قد يلاحظـــون بالمـــنّة والطباع ما لا نلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع "[٤]، ومع احـــتمالهم أنّ العربي الفصيح ينتقل لسانه[٥] إذا فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل

---

(١) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٩م ص ١٨٨ .

(٢) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، المكتبة السلفية بالقاهرة ١٣٢٨هـ .

(٣) ابن جني : الخصائص ٢٢٤/١، تحقيق محمد علي النجار ، ط دار الكتب المصرية ١٩٥٢م .

(٤) السيوطي : المزهر ٣٠٩/٢ ، ط٣ ، دار إحياء الكتب العربية .

(٥) ابن جني : الخصائص ٤٢١/١ .

المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، ومع رغبتهم حينـئذٍ في رفض لغته، وترك تلقى ما يرد عنه، رأيناهم يجنحون إلى تقييد الباحثين بما قاسه أولئك الأعراب، وقالوه فلا يجرؤ أحد على قياس ما لم يقيسوه .

وقـد وقعـوا على الخطأ المنهجي الأول ؛ إذ جعلوا سنن العرب في كلامها ما سـنته قـريش أو تمثّلـته ، وأخضعوا مقاييسهم لما سمعوه من ألفاظها وتراكيبها، ثم فرضـوا على أنفسهم وعلى الناس هاتيك المقاييس، فقال قائلهم : " وعلم مقاييس كلام العرب هو النحو ... " [١].

ولـو وقفـوا عـند هذا لهان الأمر ، ولكنهم ألحقوا به خطأ منهجياً آخر حين قطعوا ما بين العربية وأخواتها السامية من صلات، فرأوا خصائص العربية من خلال الـزاوية التي أعجبتهم؛ لأنها أوسع اللغات وأشرفها وأفضلها[٢]، لا من خلال مقارنتها باللغـات التي تربطها بها أواصر القربى . وأنكروا أن يكون لغير العرب من البيان أو الشـعر أو الاسـتعارة مـا للعرب : "يلي الشعر شعر العرب، ديوانهم وحافظ مآثرهم، ومقيّد أحسابهم "[٣] .

وخصـائص العربية نفسها لم تكتشف على حقيقتها فيما كتبوه؛ إذ كان المؤلفون فـي هذه الخصائص يبحثون عنها متأثرين بالمنطق الأرسطي الذي لم تقف عدواه عند حـد، فكان لها أثر في علم الكلام والفقه، مثلما كان لها أبلغ الآثار في دراسة اللغة[٤]، والأدلـة على هذا التأثر لا تحصى عدداً ، وأوضح مثال لذلك تعليلهم مقاييس العربية، وأنهـا علـى وجه الحكمة كيف وقعت، وأنها " أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل

---

(١) السيوطي : الاقتراح ص ٦ ، ط٢ ، حيدر آباد ، ١٣٥٩هـ .

(٢) ابن فارس: الصاحبي ص ١٢ .

(٣) ابن فارس: الصاحبي : ص ٤٣ .

(٤) د/ تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص ١٧-٢٣ .

المتفقهيــن ... وذلك أنها إنما هي أعلام وأمارات لوقوع الأحكام ، ووجوه الحكمة فيها خفية عنا غير بادية الصفحة لنا "[١] . لذلك نادى ابن مضاء بسقوط كثير من هذه العلل التــي لا يــراد بها إلا إثبات الحكمة والمنطق التعليلي للعرب، فقال : " ومما يجب أن يســقط من النحو العلل الثواني والثوالث، وذلك مثل سؤال السائل عن [زيد] من قولنا : [قــام زيــد] ، لــم رفع ؟ فيقال : لأنه فاعل، وكل فاعل مرفوع، فيقول: ولم رفع الفــاعل ؟ فالصــواب أن يقال له : كذا نطقت العرب . ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر ولا فرق بين ذلك وبين من عرف أنّ شيئاً ما حرام بالنص، ولا يحتاج فيه إلى اســتنباط علــة ، ليــنقل حكمه إلى غيره، فسأل لمَ حُرّم ؟ فإن الجواب على ذلك غيرُ واجب على الفقيه " [٢].

وانتقلــت عــدوى المــنطق الأرسطي أيضاً إلى العربية عند تطبيق المقولات العشــر علــى أبــواب الــنحو ومباحثه، وهذه المقولات هي : الجوهر والكم والكيف والزمان والمكان والإضافة والوضع والملك والفاعلية والقابلية . ومن السهل أن نقارن بيــن الدراسات النحوية العربية وتلك المقولات إذا تجردنا في نظرتنا إلى بحوث بعض العلماء المعاصرين [٣].

أما مباحث القوم حول أصل اللغة، إلهام هي أم اصطلاح ، فكانت ذات وجهين كلاهمــا يخــرج عن المنهج الوصفي ، ثم يتلوّن باللون المناسب له، أما أحدهما فغيبي " ميتافيزيقي " كقول ابن فارس : " إن لغة العرب توقيف ، ودليل ذلك قوله جلّ ثناؤه : ﴿ **وعلّــم آدمَ الأسماءَ كلّها** ﴾ ، فكان ابن عباس يقول : علّمه الأسماء كلها، وهي هذه

---

(١) ابن جني : الخصائص ٤٦/١ .

(٢) ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ص ١٥١ ، تحقيق د/ شوقي ضيف ، ط١، دار الفكر العربي، ١٩٤٧م .

(٣) د/ تمام حسان: مناهج البحث في اللغة ص ١٨ وما بعدها .

التـــي يـــتعارفها الـــناس مـــن دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ... "[١].

وأمـــا الآخـــر فمنطقي في تعابيره واستنتاجاته ، لتأثره بالمناسبة الطبيعية بين اللفـــظ ومدلوله، ولاسيما إذا وصفت هذه المناسبة بأنها ذاتية موجبة لا يجوز أن تتخلف كمـــا كـــان يـــرى عبّاد بن سليمان الصيمري من المعتزلة. ولا يبتعد عن هذا الميدان المنطقي تساؤل ابن جني عن اللغة : أمواضعة هي أم إلهام ؟[٢] .

ففـــي المواضـــعة تبرز تلك المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله، ويتبين مدى التأثير المنطقي.

مـــن هنا كان علينا أن نقضي جانباً جميع المباحث التي لا تتعلق بدراسة اللغة تعلقـــاً وثـــيقاً، فالمـــنطق الصوري وتعليلاته وأقيسته، وما وراء الطبيعة من الغيبيات، وفرض القواعد والمعايير كما تفرض أحكام القانون، كل هذه ليست من المنهج اللغوي في شيء ، فلا مناص من تجديد البحث في دراسة اللغة إذا أردنا للغتنا الحياة والخلود.

والقواعـــد الموجـــودة فـــي " علم المنهج **Methodology** " لا تعني قتل روح الإبداع في الباحث؛ لأنها ليست قيداً على فكره، أو محاولة للإثقال عليه، وإنما يأخذ بها علـــى ســـبيل الاهـــتداء، وهي قابلة للإضافة والتعديل حتى تكون متوافقة مع موضوع البحث، وعرضة للتغير وفقاً للتطور الذي يحدث في العلم، والجديد الذي يطرأ عليه.

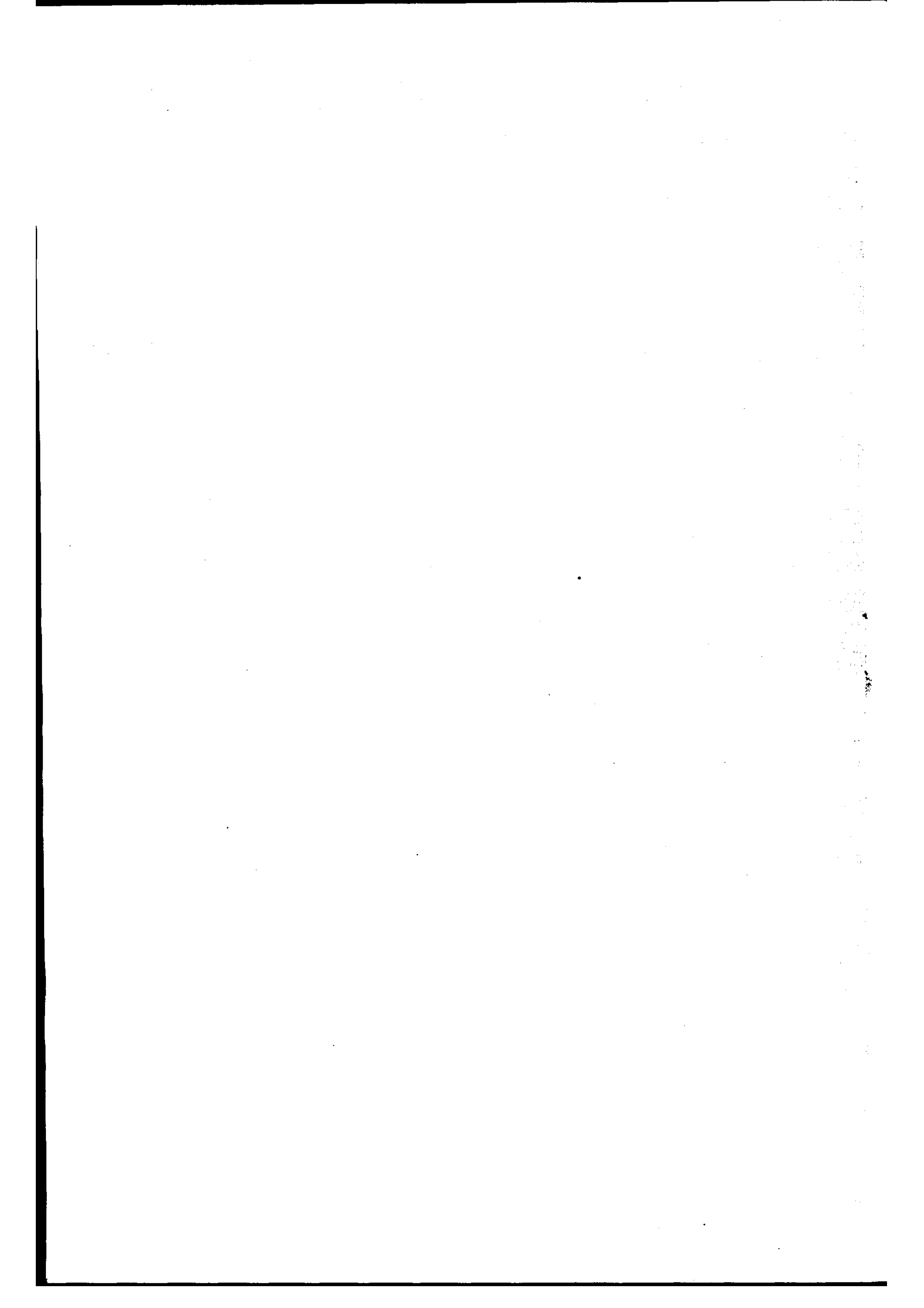
---

(١) السيوطي : المزهر ٤٧/١ ، ط٣ .

(٢) ابن جني: الخصائص ٣١/١ .

الفصل الثاني

مقومات البحث العلمي



ترجع أهم شعب البحوث إلى قسمين :

بحوث علمية ، وبحوث فنية ، ويطلق العلم **Science** اصطلاحاً على كل بحث موضوعه دراسة طائفة معينة من الظواهر لبيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها ووظائفهـا والعلاقـات التـي تـربطها بعضها ببعض، والتي تربطها بغيرها، وكشف القوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها .

ويطلـق الفن **Art** اصطلاحاً على كل بحث موضوعه بيان الوسائل التي ينبغي الالـتجاء إليها للوصول إلى طائفة معينة من الغايات العلمية . فالعلم هو ما يتحقق في الرياضـيات والفـيزياء والكيمـياء وعلـم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللغة وسواها . ويعتمد هذا التعريف على المثال **Example** .

وهـو مجموعـة مـن المعـارف المنظمة التي تدور حول موضوعات عقلية وطبيعـية وإنسانية ، وهو الذي يدرس هذه الموضوعات خلال وجهات النظر المتباينة. ويعتمد هذا التعريف على " الموضوع " **Object** .

وهـو دراسة ذات منهج ثابت لا يتغير بتغير الحالات، وهذا المنهج يعتمد على الاسـتنباط أو الاستقراء أو الحدس أو الاستبطان، مع الكشف عن مجموعة من الحقائق التي نعبر عنها بصيغ عامة أو قوانين . ويعتمد هذا التعريف على " المنهج "**Method**.

وهـو سلسلة متشابكة الحلقات من المفاهيم والقوانين والنظريات والحقائق التي تتطور وتتعدل دائماً .

وهو مجموعة من نتائج البحوث والدراسات، ومن الحقائق والنتائج .

والعلـم بهذا المفهوم يستحيل أن يكتمل؛ لأنه نتيجة جهد متواصل للعلماء؛ لذلك يقال عن هذا التعريف إنه يتصل بالتطور والتغير **Dynamic** .

وهو مجموعة من المبادئ والقوانين والنظريات والمعارف المنسقة التي وصلنا إلـيها ، ويشير هذا التعريف إلى الحالة الراهنة للعلم، دون الاهتمام بما يحدث فيه من

تقـدم لاحـق، وهو يدل على اكتمال العلم، وإن كان هذا مستحيلاً، ويؤدي إلى توقف البحـث وتحول المبادئ والقوانين إلى معتقدات جامدة؛ لذلك يقال عن هذا التعريف إنه تعوزه الحركة والحياة فهو ساكن أو راكد أو مستقر Static [١].

والعلـم ليس قوة معادية لأحد، ولا منافسة لأي شيء ، والعالم شخص لا يهدد أحداً، ولا يسعى إلى السيطرة على أحد، وكل المعارك التي حورب فيها العلم والعلماء كانـت معارك أساء فيها الآخرون فهم العلم، ولم يكن العلم ولا أصحابه هم المسئولون عـنها، وأعظـم خطـأ يرتكبه المدافعون عن مبدأ معين، أو عن ضرب من ضروب النشـاط الروحي للإنسان هو أن يعتقدوا أن العلم مصدر خطر عليهم، ويضعوا مبدأهم أو نشاطهم الروحي في خصومة مع العلم .

والعلـم لا يهدد أحداً، وإنما هو في أساسه منهج أو أسلوب منظم لرؤية الأشياء وفهـم العالم، وكل تقدم أحرزته البشرية في القرون الأخيرة إنما كان مرتبطاً، بطريق مباشر أو غير مباشر بالعلم[٢].

غـير أن توظيف منجزات العلم في العدوان والقهر والاحتلال وتدمير الشعوب وبـث روح الفـرقة عن طريق التفريق بين الأديان والأعراق والتركيز على استثمار العلـم في إنتاج أسلحة الدمار الشامل والاستحواذ عليها ومنع الآخرين من امتلاكها هو السبب الحقيقي في اتهام العلم بما اتهم به .

وثمة من يرى أن " المؤلفات الأرسطية تشكيل موسوعة كبرى انتظم فيها العلم القديـم بأكملـه عدا الرياضيات "[٣]، وأن الأهمية التي تقدم من وجهة النظر المنهجية تكمن في أن أرسطو هو " أول من نظر إلى العلم في مجموعة، ووضع مبادئ تصنيف

---

(١) انظر د/ علي عبد المعطي، د/ السرياقوسي : كتاب أساليب البحث العلمي ص ٢٩ ، ٣٠ ، مكتبة الفلاح، دولة الكويت ، ١٩٨٧م .

(٢) د/ فؤاد زكريا : التفكير العلمي ص ١١ وما بعدها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦م .

(٣) يوسف كرم : الفلسفة اليونانية ص ١٦، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٥، القاهرة ١٩٧٠م.

تـــام للعلوم يتمثل في مجموعة كتبه "[1]، ونجده يقسم العلم إلى نظري ينتهي إلى مجرد المعــــرفة: العلـــم الطبيعــــي، ما بعد الطبيعة ، الرياضي، وعلم عملي يرمي إلى غاية متمايزة من المعرفة، وهذه الغاية هي تدبير الأفعال الإنسانية ، إما في نفسها، وهذا هو العلـــم العملي بمعناه المحدود، وإما بالنسبة إلى موضوع يؤلف ويصنع، وهذا هو الفن، ومن العلم العملي: تدبير أفعال الإنسان والأخلاق والسياسة[2].

أمــــا المـــنطق فلـــم يدخـــل في أي من القسمين السابقين " وهو علم يتعلم قبل الخوض في أي علم آخر ليعلم به أي القضايا يطلب البرهان عليها، وأي برهان يطلب في كل قضية .

كمـــا يعد البحث وسيلة منهجية للاكتشاف والتفسير العلمي والمنطقي للظواهر، والاتجاهات والمشاكل، وينطلق من فرضيات أو تخمينات يمكن التأكد منها باتباع سبل تحقـــق أهدافاً، ويمكن قياسها بقوانين طبيعية أو اجتماعية يحتكم الناس إليها، ويستهدف الوصـــول إلـــى نـــتائج تحقق رغبات الباحث أو الجهة المتبنية للبحث، سواء كان هذا البحـــث نظـــرياً تفســـيرياً أو تحليلياً نقدياً أو أنه تطبيقي يلتجئ إلى الميدان أو المعامل والمختبرات .

وبِعَدّ الموضوع هو البحث العلمي، فما العلاقة بين البحث والعلم ؟، يعد البحث هو وحدة الإثراء العلمي، والعلم هو وحدة الإثراء المعرفي، والمعرفة أوسع مجالاً من العلـــم، والعلـــم أوســـع مجالاً من البحث ، فالعلاقة ترابطية، لولا العلم ما بحثنا ولولا البحث ما تعلمنا .

([1]) يوسف كرم : الفلسفة اليونانية ص ١١٨ .

([2]) المرجع السابق ص ١١٨ .

مفهوم البحث من الناحية الاصطلاحية :

عــرّفه القدمـــاء بأنه " إثبات النسبة الإيجابية ، أو السلبية بين الشيئين بطريق الاستدلال "[١] .

كمــا عــرّف المحدثون البحث [Research] بأنه : " طلب الحقيقة وتقصيها وإذاعتها في الناس "[٢].

ممــا سبق يتضح : " أن البحث وسيلة للفحص والاستقصاء المنظمين والتفتيش الدقــيق ، وهــو مــا يقوم به الباحث لاكتشاف معلومات أو علاقات جديدة، أو لتطوير معلومــات موجــودة، أو تصحيحها أو تحقيقها، على أن يتبع في ذلك خطوات المنهج العلمــي، ويــنهج الطــريقة العلمــية، ويتخذ الأدوات اللازمة للبحث، وجمع البيانات والمعلومات[٣].

والقضــية **Proposition** التــي ينطوي عليها أي حقل من حقول البحث على ثلاثة أنواع :

أولاً : تحديد أهداف البحث، وتشخيص الأشياء التي هي قيد الدرس .

ثانياً: وصف الطريقة أو الأسلوب .

ثالثاً : النتائج أي ذكر الحقائق التي تظهر من البحث .

فالبحث العلمي رحلة تبدأ بالفكرة وتحديد الهدف، ثم الإعداد لها بما يصاحب الباحث من دراسات ونصوص أو ما تعترضه من صعوبات وعقبات أثناء عبوره

---

(١) الجرجاني: التعريفات ص ٣٦ ، تحقيق إبراهيم الإبياري، ط١، ١٤٠٥هـ، الناشر دار الكتاب العربي .

(٢) د/ علي جواد الطاهر: منهج البحث الأدبي، ص٢٧ ، ط٧، مطبعة الديواني ببغداد، ١٩٨٦م .

(٣) د/ محمد سعد: الموجز في البحث اللغوي ، ص ٨ ،٩، ١٤١٤هـ .

لجسر من الدراسات السابقة والمعاصرة له في موضوعه وما يجابهه من مخاطر لعدم اتصال تلك السلسلة أو ذلك الجسر بانعدام بعض المراجع أو عدم توافرها .

والقيام بمثل هذه الرحلة حتى منتهاها أمر صعب للغاية وشاق وعسير ، إلا أن تحقيق بعض الأهداف أو المشارفة على تحقيقها يحيل كل ذلك الجهد والمشقة والمعاناة متعة حقيقية يكاد الباحث يحسها بكل أقطار نفسه ومشاعره إن لم يقبض عليها بكلتا يديه .

يكتسب تصور النظرية العلمية في نظرنا أهمية كبيرة؛ لأنه يوضح خصائص المنهج العلمي الحديث ، ويبيّن ما يميّزه من الممارسات العلمية التي سبقته . فضرورة صياغة فرضيات عامة متناسقة منطقياً فيما بينها [illegible] ميدانية وتؤطرها ثم صياغة أنظمة إجرائية تستمد شرعيتها من تلك الفرضيات السابقة تمثّل في ظننا خاصية من أهم الخصائص التي تميّز مولد العلم الحديث أو العلوم الحديثة بداية بالعلوم التجريبية .

ولئن كان من البديهي أن هذا التماسك الداخلي بين هذين الضربين من الفرضيات يمثّل سبباً أساسياً من الأسباب التي تفسر نجاعة العلوم الحديثة الإجرائية ، فإنّ العلاقة الجدلية بين الفرضيات العامة والأنظمة تفسّر هي الأخرى تطوّر العلوم الحديثة ونسبيتها وخصوبتها المعرفية . ذلك أن الفرضيات العامة تسمح ببناء أنظمة ناجعة إجرائياً ، ولكن بناء أنظمة يُمكّن هو أيضاً من تعديل الفرضيات العامة أو مناقشتها أو الإضافة إليها . وتسمح هذه العلاقة المتبادلة بتوسيع تدريجي لمجال العلم ضمن سجال وجدل بين العلماء يؤكد دائماً نسبيّة الحقيقة العلمية وتاريخيّتها .

والذي نلفت النظر إليه أن هذا المنهج هو الذي يقف وراء التراكم الهائل للمعارف والتطور السريع للعلوم الذي لم تعرف له البشرية نظيراً من قبل ، وهو في ظننا من أهم مقومات الحداثة ، ويبدو لنا أن هذا التطور يسمح بفهم تطور العلوم التجريبية عامة وييسّر عرض تطورها .

ومهمـــا كان الأمر فإن اعتماده قد مكّننا من فهم أفضل لتاريخ اللسانيات وتقديم أوضـــح لـــتطورها وتفهم أكبر للموضوعات التي احتدم فيها النقاش والسّجال ولخلفيات أصحابها .

وهـــناك من الدارسين في العصر الحديث من يثير مسألة صلة الفلسفة بالعلم – من زاوية تكوين المنهج – للمداولة والمناقشة، فيتساءل كلود برنارد : هل الفيلسوف أو العالم هو الذي يضع القواعد للمناهج العلمية ؟

وإنه يرجح أن المناهج لا يمكن أن تدرس نظرياً مثل قواعد عامة يفرض على العـــالم بَعْـــد أن يسير وفقاً لها، وإنما تتكون داخل المعمل الذي هو معبد العلم الحقيقي، وإبان الاتصال المباشر بالواقع والتجارب العلمية[1].

وثمـــة رأي يحاول التوفيق بين تشدّد " برناد " وأصحاب النظر العقلي المتمايز مـــن الواقـــع التفصيلي، فمهمة الفيلسوف لا تتنافى مع مهمة العالم، لأنها خطوة تليها . فعلـــى العالم المتخصص أن يرشدنا أولاً إلى المنهج الذي اتبعه في أبحاثه، وأن يطلعنا على الخطوات التي مرّ بها في بحثه في مضماره الخاص، ثم يأتي عالم آخر أميل إلى الـــنظرة العامـــة، أي يكون ذا نزعة فلسفية فيحاول أن ينسق بين هذه التقريرات التي قدمهـــا العلمـــاء المتخصصون ليستخلص منها الخصائص العامة للمناهج المختلفة، ثم يأتـــي الفيلســـوف المنطقـــي فيســـعى لإرجاع هذه المناهج إلى صفات ذاتية في العقل الإنســـاني، محـــاولاً أن يصوغ النتائج التي وصل إليها السابق في صيغ واضحة تنظم علـــى هيـــئة مذهـــب فـــي العقـــل الإنساني، من حيث طبيعة اتجاهاته في البحث عن الحقيقة[2].

([1]) د/ عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي ص ٧، دار النهضة المصرية ، القاهرة، ط١، ١٩٦٨م .

([2]) د/ عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ص ١٧ .

ونصـل إلـى النقطة التي تخصص القول في معيارية المنطق، فبعد أن رأينا تحديـد المنهج بين المنطقي والفيلسوف والعالم الذي يمارس العمل والدرس في مجال بعينه من مجالات العلوم، يطلعنا الحوار حول كون المنطق علماً أو فناً على المزيد من الخصائص لوظيفة المنطق المحددة لمعايير [الصواب والخطأ] والمطبقة في هذا العلم أو ذاك، فالذيـن نظـروا إلى المنطق على أنه علم كما فعل أرسطو يقصرون المنطق علـى دراسـة قوانين البرهان، والذين يرمون في المنطق إلى وضع قواعد وفرضها لتوجيه العقل، وبيان المناهج العملية المؤدية إلى تحصيل المعارف في العلوم المختلفة، ويدرسونه من أجل هذه الفائدة يعدون المنطق فناً وعلماً، أو فناً بوجهٍ خاص[1] .

وهـناك مـن يجمـع بين الطرفين – حيث يتتابع جماعة بور رويال ، وفنث، وليفي بريد، وزمّل – و " جبلو " يرى أن لا مجال لهذه التفرقة .

ويقـول دارس عربـي إن المنطق ليس فناً أي عملاً، كما أنه ليس معيارياً أي علمـاً يبحـث في قيمة الغايات نفسها، وإنما المنطق علم بالمعنى الدقيق أي طائفة من الحقائق الخاصة بموضوع معين، هو في كلمة واحدة : علم التفكير الصحيح[2].

وإنـنا بعـد هذا الاطلاع على جوانب درس المنطق الأرسطي ندرك الوشائج التـي يتصل بعضها ببعض من تحقيق المنهج المنطقي ونقله إلى العلوم، ومدى تطابق المهمة التي تولّد المنطق من أجلها أولاً مع أغراض العلم في وجوهه المتعددة .

وتبرز أهمية دراسة المنطق في مقام تفسير مناهج البحث اللغوي عند أصحاب التآلـيف العربـية القديمة في القرون الهجرية الأولى، فلقد اتضح أن ذلك المعيار في الصواب والخطأ [أو الميزان] الذي أمكن أن يستخرج قوانين للعقل ونشاطه بانعكاس العقـل علـى نفسـه [ذاته] دارساً متأملاً قد استعير واستعمل لينظم الحركة الذهنية

---

(1) د/ عبد الرحمن بدوي: المنطق الصوري والرياضي ص ١٧، دار النهضة المصرية، القاهرة ، ط٣، ١٩٦٧م .

(2) المرجع السابق : ص ٢٣ .

[العقلية] في أوجه التفكير والعمل المختلفة للحياة، فلم يعد محصوراً في مضمار آفاقه هي التصورات والتصديقات المنطقية مضافة إلى المبادئ الأولى الثابتة في العقل البشري السليم ومؤدية إلى البرهان والأقيسة المتفرعة منه .

والمنطق الأرسطي إنما يحلّل في إطار التراث القديم [عربياً] على أنه منهج، أي يمثل خطاً عقلياً متميزاً له أدوات جزئية يستطاع بها التوصل إلى تحقيق جزئيات علم من العلوم، ومن ثم بناء أركانه .

ويبقى أمر في المنطق الأرسطي هو المؤثرات المتبادلة بين دراسة النحو واللغة والبحث المنطقي : فقد كانت نشأة المنطق مرتبطة باللغة والنحو عند اليونان، وإن دراسة الآجرومية النحوية اليونانية تتبدى في أقسام رئيسة في كتب أرسطو، وقد ربط " السفسطائية بين الكلمة والعقل، وقد استعملوا خصائص اللغة وألفاظها في جدلهم، وارتقوا بعد ذلك إلى ضروب من الفن الخطابي المستهدف الإقناع في المحاورات "[1] .

وتطالعنا لدى أرسطو أبحاث التصورات التي تتصل اتصالاً مباشراً باللغة، فتقسيم الكلمة إلى مفرد ومركب ، والبحث في الألفاظ المشتركة والمترادفة، والمتزايدة والمتواطئة ظاهر العلاقة بمباحث لغوية، وكذلك باب [العبارة] من القضايا وأقسامها الحملية والشرطية ، وأجزائها: الفعل والاسم والحرف .

ونعود إلى استخلاص الدرس المستفاد مما سبق، إذ يتأكد لنا أن العلم وحده لا يسبغ على الكون أي طعم، ولا يفسر له أي هدف ترتضيه الإنسانية أو ترتاح إليه النفوس مهما كانت غير حائرة ولا قلقلة، فمهمة العلم تقف عند حد وصف الظواهر والكشف عن النظم والقواعد أو القوانين الطبيعية ، ولكنه يعجز عن أن يستخلص من الكون أية حكمة أو يعطيه معنى يستسيغه الفكر .

---

(1) د/ عبد الرحمن بدوي: المنطق الصوري والرياضي ص ٣٣، على سامي النشار ص ٦٤ ، منشأة المعارف، الأسكندرية، ١٩٦٣م ، ط٢ .

ويقول الدكتور الفندي : " والدين هو الذي يعطي هذا الوجود تلك المعاني كلها ومـــنه تنبثق كل المبادئ ؛ لأنه الأساس، وليست المبادئ أو النظم الاقتصادية مثلاً هي أساس الشعوب . ولنتذكر بأن علمنا هو للظاهر فقط، فنردد قول الله تعالى : **﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾**[1] " [2].

تلـــك هـــي أهم المبادئ التي تكون الروح العلمية التي يتسلح بها الباحث، وهو يطبق المنهج العلمي على مختلف الظواهر . ولاشك في أنها تضمن له – بالإضافة إلى خطـــوات المـــنهج – أكـــبر قدر من السلامة في خطواته، وتجنبه الوقوع في كثير من ضـــروب الخطـــأ والشـــك إذا كـــان المنهج العلمي هو البرنامج الذي ينظم سلسلة من المعلومات لتنفيذها، ويشير إلى عدة أخطاء لاجتنابها بقصد الوصول إلى نتيجة محددة، فـــإن الـــروح العلمـــية تعنـــي مجموعة من المبادئ والقيم العلمية تتحول بالتدريج إلى خصائص ذاتية تكون شخصية الباحث ، ويصدر عنها في كل أعماله . والروح العلمية مهمـــة للبحث العلمي بمقدار أهمية المنهج نفسه، بل إنه بدونها يظل هذا المنهج هيكلاً عظيماً بدون حياة .

والواقـــع أن مصطلح " الروح العلمية " ليس سهل التحديد؛ لأن مفهومه واسع ومتـــنوع ، وإذا كـــان يعـــبر عن مجموعة الخصائص التي يلزم توافرها في شخصية الباحث، فإن هذه الخصائص قد تكون :

فيزيولوجية، مثل : سلامة الحواس ودقتها .

سيكولوجية، مثل : القدرة على الإبداع ، والتذكر ، والربط بين المتشابهات .

عقلية، مثل : الذكاء، والتجريد، والتحليل، والتركيب، والمقارنة .

أخلاقية، مثل : المثابرة، والزهد، والشجاعة ، والإخلاص والنزاهة .

---

(1) الروم : الآية [٧] .

(2) د/ محمد أحمد الغمراوي: بين الدين والعلم ص ٢١ .

وجدانـــية، **مثل** : حب موضوع الدراسة، والتعلق الدائم به ، والاهتمام بكل ما يدور حوله .

ولاشــك في أن الباحثين يختلفون – فيما بينهم – تبعاً لاقترابهم أو ابتعادهم عن درجـــة الاكـــتمال في الخصائص السابقة، ومع ذلك فقد حدد علماء المنهج عدة مبادئ رئيســـة تقـــوم علـــيها الروح العلمية، هي الموضوعية ، والصرامة، والقدرة النقدية ، والتسليم بمعقولية الطبيعة، والعمل في فريق .

[أ] الموضوعية :

إذا كان العلم عبارة عن معرفة الأشياء، فينبغي أن يكرس الباحث نفسه لملاحظتها بأقصى درجات الدقة الممكنة، وهذا يعني خضوعه الكامل لموضوع دراسته ، وذلك بأن يستبعد من أبحاثه :

- الاعتبارات الجمالية .
- الاعتـــبارات الميتافيزيقية ، والأخلاقية الخاصة، فليس من حق العالم أن يعدل عن أبحاثه، أو يغير منها خوفاً من أن تأتي النتائج على عكس ما يعتقد .
- الاعتـــبارات العاطفـــية، وفي هذا المجال ينبغي على الباحث أن يكون مستعداً للتـــنازل عـــن الفـــرض القريب إلى نفسه؛ لأنه ليس هو الفرض الذي يكشف الحقيقة، أو يفسر العلاقات الواقعية بين الظواهر .
- التراث التقليدي وسلطان العادة، والأفكار الشائعة في المجتمع .

وممـــا يســـاعد الباحـــث على الوصول إلى أعلى درجة من الموضوعية تلك الرسائل والأجهزة التي تمّ اختراعها واستعمالها في مجال البحث العلمي . فهذه ، دون شك تنقل له صورة أمينة للواقع كما هو دون أي اعتبار مما سبق .

ويلاحـــظ أن موضـــوعية الباحث إنما تتجلى في مرحلة البحث، وهي المرحلة التـــي تتضـــمن كـــلاً مـــن الملاحظة والتجربة .. أما في المرحلة التالية وهي مرحلة

الكشـــف، فإن الباحث مدعو – بكل حرية – لكي يخلع من ذاته على الظاهرة، ويكشف غموضها، عن طريق الفرض القائم على الخيال . ومع ذلك فإن هذا الخيال ليس خيالاً جامحــاً، إنـــه خيال محكوم بامتحان التجربة، وهي وحدها التي تبين نجاحه من فشله . وهكــذا ، مـــا أن يـــنطلق الباحـــث للحظـــة في مجال الذاتية حتى يعود بسرعة إلى موضوعية الظواهر التي يدرسها .

[ب] الصرامة :

تعني الصرامة العلمية ألا ينتقل الباحث من نقطة قبل أن يبرهن عليها بصورة قاطعة . وهناك طرق كثيرة للتأكد من ذلك ، لكن يكفي هنا أن نشير إلى ضرورة التفرقة بين ما هو مبرهن عليه، وما هو محتمل أو مفترض . فلا يتقدم الباحث إلا بحذر، ولا يقبل شيئاً دون مراقبة وفحص، وبهذا فليس التساهل مقبولاً في مجال البحث العلمي .. لأن التساهل يؤدي إلى تمرير بعض الأحكام الخاطئة، ولهذا أثره الخطير في سلامة ما يترتب على ذلك من نتائج .

[ج] القدرة النقدية :

القدرة النقدية أساسية للعلم ، لكن يجب ألا نعممها لتشكل تلك القدرة السلبية التي تتجه بشكوكها إلى كل شيء ، وإنما هي مجرد حرية عقلية تساعد الباحث على أن يبلغ جوهر المشكلة، ويقبل الرجوع عما هو مؤكد من قبل، ويتقبل المناقشات والتحفظات، ويواجه نتائج أبحاثه بأبحاث غيره من العلماء، ويظل – دائماً – على استعداد لتغيير نتائجه هو .

وبهذا المعنى أمكن القول بأن أحد شروط العلم هو معرفة الشك، أي القدرة عليه، ونمو الرغبة في إثارة الأسئلة كلما زادت معرفة الباحث. وحين نفهم الشك على هذا النحو نجده ليس أكثر من أحد أشكال حب المعرفة، والشعور بتعقد الواقع، وبحدود العقل الإنساني .

د) التسليم بمعقولية الطبيعة :

حتى يقوم البحث العلمي على أساس متين، لابد أن يدرك الباحث منذ البداية أنه أمام نظام مطرد، وأنه إذا لم يظهر لعينه منذ الوهلة الأولى فيه من خطوط الوحدة والتناسق ، فإنها لا تلبث أن تتضح مع تقدمه في البحث، وتوصله لبعض النتائج .

إن أهم ما يقدمه العلم للإنسان هو التنبؤ بحدوث الظواهر، أي توقع مجيئها على نحو معين في ظروف محددة ، ولا يقوم هذا التنبؤ إلا في ظل نظام عام مطرد : ما يحدث الآن قد يحدث مثله بالأمس، وسوف يحدث مثله غداً .. ولولا النسليم بهذا النظام لما كان للقوانين العامة أي معنى، ولا نهدم العلم من أساسه .

هـ) طبيعة العمل في فريق :

لاشك في أن طبيعة العمل في فريق يختلف كثيراً عن العمل الفردي، حيث ينعزل الباحث عن المجتمع؛ لأنه يتطلب مجموعة خاصة من الصفات مثل: التواصل الاجتماعي ، ودماثة الخلق، ووضوح الشخصية، وربما كانت اللغة من العلوم إلى هذا المطلب؛ لأنها هي ذاتها ظاهرة اجتماعية تقوم على التواصل، وربما كانت هناك أيضاً مسائل في اللغة كأعمال التحقيق وصنع المعاجم لا تتم إلا بالعمل الجماعي .

وعلم اللغة يستعمل طرزاً كثيرة : الطرز الرياضية التي تستعمل المفاهيم الإحصائية أو الجبرية والمعادلات، والطرز الفيزيائية التي تجعلنا قادرين على إنتاج مقياس ثابت وفعال **Working Analoge** لتفسير الظواهر " كما هو الحال غالباً في علم الأصوات " .

وقيمة الطراز تكمن في وضوح وتركيز العلاقات التي يفترضها، فعلى ضوء طراز خاص نحصل على نظرة ما في اللغة لم نحصل عليها من قبل، فإذا ما كف الطراز عن توفير نظرات جديدة، أو فشل في تقديم نظرة أية نظرة ، فعلينا أن ننبذه

ونبحث عن طراز جديد . ومن هنا نرى أن الطرز أمور وقتية – إنه يقال أحياناً إن العلم يتقدم من خلال البحث عن طرز جديدة تقترح نظرات جديدة .

والطرز أعمال انتقائية ، جوانب معينة يلقي الضوء عليها ، وأخرى تهمل تماماً، واختيارنا طرازاً محدداً يوجه بحثنا، ينبغي أن يكون دقيقاً، وينبغي أن نستعمله بروح ناقدة، فإذا ما اخترنا طرازاً يبدو أنه يفسر خصائص لغوية معينة ينبغي أن نتذكر أنه ربما يشغلنا عن وجود خصائص أخرى ، وينبغي أن نكون منتبهين إلى أننا لا نزعم أن كل جوانب الطراز مناسبة على سواء لدراسة اللغة[1] .

العلم : المنهج، المحتوى اللغوي والمعرفي :

ويختلف الباحثون فيما يفرق العلم عن غيره ، فهو عند العلماء مجموعة منظمة من المعارف تدور حول موضوعات بعينها، وتصل فيما بينها مجالات معينة من الدراسة . بينما هو عند بعضهم الآخر منهج وأسلوب لا يختلف اصطناعه في مجال دون آخر . لذلك يتحدد أو يعرف العلم عند الفريق الأول بمادة البحث، على حين يتحدد لدى الفريق الآخر بمنهج البحث .

وبعبارة " جميس كونانت " هناك تعريفان للعلم ، أحدهما استاتيكي، والآخر دينامي .

فأما التعريف الاستاتيكي فهو الذي يضع موضع الصدارة الطائفة الراهنة المتشابكة من المبادئ والقوانين والنظريات ، وكذلك المجموعة الهائلة من المعلومات المنسقة ، وكأن العلم بذلك عرض شارح للكون الذي نحيا فيه، أو لبعض جوانبه .

كذلك فإن النظرة الدينامية على النقيض من ذلك، تعد العلم نشاطاً وجهداً موصولاً . ومن ثم فإن الحالة الراهنة للمعرفة تقوم أهميتها الجوهرية في أنها أساس لمزيد من عمليات وإجراءات تالية متواصلة .

---

(1) Grystal, Linguistics, P.115 .

وعلى أساس هذه النظرة، فإن العلم سيختفي تماماً إذا ما أغلقت المعامل أبوابها؛ لأن النظريات والمبادئ والقوانين مستقرة في الأصول والمراجع ستنقلب إلى عقائد جامدة . فبإغلاق المعامل ستتوقف كل عمليات البحث ، ولن تكون ثمة مراجعة أو إعادة اختبار لأية قضية من القضايا . وعلى هذا الوجه فإن التعريف الديناميي للعلم هو أنه سلسلة متشابكة الحلقات من المفهومات والإطارات النظرية التي تطورت ونمت نتيجة للملاحظة والتجريب .

وهي سلسلة مفضية إلى المزيد من الملاحظة والتجريب. وجوهر العلم إذن هو المجموع الكلي المفترض للنتائج والكشوف " الكامنة والممكنة " التي " تنتظر " البحث والكشف على يد العاملين في المعامل ومجالات البحث .

وهي كما يقول " كونانت " خططهم ، وآمالهم وتطلعاتهم أثناء عملية التحقيق والإنجاز، أسبوعاً إثر أسبوع ، وعاماً بعد عام(١).

والواقع أن كافة موضوعات المعرفة خليقة من الوجهة النظرية على الأقل بأن تندرج تحت العلم . غير أنها لا تصلح أن تكون موضوعاً للعلم في أية مرحلة من مراحل صياغتها إلا متى نضجت ولاءمت منهجه، أي صارت معدة لانطباق المنهج العلمي عليها، وتوافرت لها شروطه على ألا نفهم من " المنهج العلمي " مجموعة من الوصفات المجربة، الجاهزة والمستقرة، أو لائحة بالقواعد التي يجب الالتزام بها في كل عصر وعند كل موضوع ، " فالمنهج العلمي " متطور نام، وما يدفعنا إلى استعمال تسمية واحدة تضم مختلف تطوراته وتحوزاته، إنما هو مجموعة من السمات والشروط العامة التي ينبغي أن تصدق على إجراءاته التي قطعت الأنحاء العامة والعقلانية في القرنين الـ [١٧ ، ١٨] صلتها بكل تطور في البحث اللساني سابقاً، فبالرغم من أنها

---

(١) J.Conant, Science and common Sende, PP 5-24, yale University press, New Hacen, 1961.

كانت تدرس اللغة من جانبها العقلاني [الفلسفي] فهي تتميز عن الدراسة اللغوية السابقة التي كانت تدرس اللغة على هامش الاهتمامات الابستمولوجية الأخرى .

وجاء سوسور في القرن الـ ١٩ م فجاء منهجه اللغوي قطيعة مع هذه الاتجاهات ، والاختلاف منهجي صرف يتعلق بتحديد الموضوع الذي كان يجب أن تتركز عليه الدراسة اللسانية، وبذلك أصبحت هذه الأخيرة في أصل البحث اللغوي ، أي تشكل بحثاً قائماً بذاته . وقد استؤنفت الدراسة اللسانية بمنهج علمي آخر قائم على أسس معرفية لغوية صرفة .

انقسم البحث اللساني مع مرور الزمن على نفسه فيما يتعلق باللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، فهناك مرحلة عرفت فيها اللغة المكتوبة [لغة الكُتّاب العظام] ازدهاراً ، فكانت المعيارية هي التي تسير وفق الدراسة آنذاك، ثم جاءت مرحلة أخرى أصبحت فيها اللغة المنطوقة تحظى باهتمام كبير ، واليوم هما معاً على درجة واحدة في المناهج اللسانية المعاصرة ، فلا تشكل هذه التفرقة أية عقدة في المجال العلمي اللغوي .

إن اللغة بالمفهوم السوسوري يجب أن تحدد وتدرس في سانكرونية معينة، وهذا يختلف عن دراستها دياكرونياً ، وهناك تفرقة أساسية بين الموقفين .

اللغة بنية وشكل، وليس جوهراً ، إنها نظام من القيم ووحداتها خلافية سلباً أو إيجاباً، وعلى اللغوي أن يبتعد عن دراسة الجوهر ، [الفكر] ويهتم بمبدأ التلاؤم الذي يسمح له بتكوين المواضع اللسانية وإدراكها التي لا يمكن أن تكون قضايا مجردة، بل هي عبارة عن نسق من القيم .

هكذا يمكن تصور الجهاز اللساني ، أو على الأصح جهاز مفاهيم اللسانيات البنيوية عند دوسوسور . ويقوم هذا العلم في قسمه الأكبر على الفرضيات المنهجية التي وضعها دوسوسير .

وقد كان البحث اللغوي – وبخاصة فيما يتصل بنشأة اللغات – مجالاً لكثير من الفروض والنتائج غير العلمية . لقد قيل مثلاً : " اللغة العبرية أقدم اللغات " ، وهو فرض لا سبيل للبرهنة عليه علمياً " أي باستعمال المنهج العلمي الذي حددنا خطوطه العامة في الصفحات السابقة " وثمة مزاعم أخرى تدفع هذا الفرض فثمة من يقول : "اللغة العربية أقدم اللغات " ... إلخ .

ومن ذلك أيضاً ما يتصل بالحديث عن أفضل اللغات أو أكمل اللغات أو أغنى اللغات أو ما شاء أصحاب هذا الحديث من صفات التفضيل، فهذا ابن فارس يقرر أن اللغة العربية خصت بالبيان وأن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه، ولو احتجت إلى التعبير بها عن شيء مثلاً لوجدت عشرات من الألفاظ تدل عليه، ولو أردت ذلك بغيرها لما أمكنك ذلك .. [1] وشيء من هذا يقوله " جالينوس " عن اليونانية؛ إذ هي أفضل اللغات ، لأن سائر اللغات إنما تشبه نباح الكلاب أو نقيق الضفادع [2].

وقد أثير خلاف حول ما إذا كان آدم قد استعمل لغة كالتي يستعملها أو أنه كان يعتمد على الإشارة ، ثم تطورت إلى أن أصبحت لغة منطوقة يتداولها الناس من بعده وهي قضية التوقيف والاصطلاح .

لكي تكون الدراسة – أياً كان موضوعها – علمية ينبغي أن تتوفر بعض السمات الضرورية . قد يختلف العلماء واللغويون – إلى حد ما – في طبيعة عملهم وفي مجاله، ولكن ثمة اتفاق عام فيما يتصل بحاجة علم اللغة إلى منهج علمي، وأن المنهج الذي سارت عليه العلوم قد يكون منهجاً ناجحاً، يقال هذا بغض النظر عما يثار من خلاف في تبعية علم اللغة للعلوم الطبيعية أو للعلوم الاجتماعية، وبغض النظر عما يدور بين اللغويين أنفسهم من جدل في تحديد المقصود " بالعلمية " في هذا المجال .

---

(1) ابن فارس : الصاحبي ص ١٦-٢٥ ، تحقيق السيد صقر .

(2) ابن حزم : الأحكام في أصول الأحكام ٣٩/١ ، بعناية أحمد شاكر ، مكتبة الخانجي .

وقبل أن نأخذ في الحديث عن هذه السمات ينبغي أن يوضع في الاعتبار أن ما قد يعده بعض الباحثين أصلاً قد يجعله آخرون فرعاً، وأن المصطلحات التي يستعملها الباحثون قد تختلف من باحث إلى آخر، ومع ذلك نطمئن إلى أن محصول البحث الذي نستخلصه من هؤلاء وهؤلاء سوف يؤلف في النهاية المنهج الملائم للدراسة اللغوية.

هذه السمات هي: الوضوح، والدقة، والنظامية، والموضوعية، والشمول، واليقين.

أولاً: الوضوح والدقة :

- الوضوح :

الوضوح شرط ضروري في كل مراحل البحث اللغوي جمعاً وتصنيفاً وتقعيداً، وهو ضروري أيضاً حين يختار الباحث النظرية التي على هداها يقوم بالعمل ، فينبغي أن تكون أسس هذه النظرية واضحة، وينبغي أن يكون واعياً بالاعتبارات التي استند إليها عند اختياره لها . وسوف نختار للمناقشة هنا موضوع نتبين منه الحاجة الماسة إلى الوضوح في البحث اللغوي، هذا الموضوع هو :

تحديد مصطلحات البحث :

لا مندوحة لنا عن استعمال المصطلحات الفنية ، فاللغوي لا يدرس مفردات اللغة كلها، إذ لا سبيل إلى حصرها ، إنه لا يدرس مفردات مثل: محمد وشجرة ورجل وجبل .. إلخ ، بل يدرس قسماً بعينه يفترض أنه يضم هذه المفردات وغيرها هو "الاسم" ، إنه لا يدرس مفردات مثل: قام ويجلس .. إلخ ، بل يدرس قسماً بعينه يفترض أنه يضم هذه المفردات هو " الفعل " ، وقد يتطلب البحث منا أن يجعل من كل قسم أقساماً، فقد يفترض أن قسم " الاسم " مثلاً يضم أقساماً فرعية هي : العلم والضمير .. إلخ ، وقد يفترض أن قسم " الفعل " مثلاً يضم أقساماً فرعية هي : الماضي والمضارع .. إلخ . وفي التعامل مع الأقسام لا المفردات اقتصاد في الجهد لا

يقوم في كل ما يدخل في القسم المفترض من أفراد تميزه عما عداه، ولهذا اشترط في تعريفه العمل العلمي إلا به .

وليست هذه الأقسام التي يفترضها الباحث منفصلة عن الواقع اللغوي الذي يعالجه، بل إنها مفترضة أصلاً للتعامل مع الواقع أي لكي نفهم الواقع فهماً حسناً، لكي نوصل فهمنا للآخرين .

وليس الاصطلاح مجرد اتفاق بين أهل الصنعة على مدلول خاص فحسب، بل إنه اتفاق قائم على معايير ، وأي محاولة لتصنيف المفردات في أقسام ينبغي أن تقوم على أساس أوجه شبه تتحقق أن يكون جامعاً مانعاً .

لقد عرف بعض النحاة الاسم بأنه ما يدل على مسمى من ذات أو معنى، وعرف بعض النحاة الفعل بأنه : ما يدل على حدث وزمنه، واعترض على هؤلاء بنحو [صه وهيهات] وغيرها مما يطلق عليه أسماء الأفعال ، لأنها تدل على حدث في زمن وإن عوملت معاملة الأسماء .

ومن الواضح أنهم اعتمدوا في تعريفهما على معيار هو المعنى الذي يدل عليه كل منهما[1]. وأدرك نحاة آخرون ما في التعريفين السابقين من قصور، فوضعوا لكل من أقسام الكلام علامات تميزه عن غيره من الأقسام ، وكانوا في ذلك على طريق مستقيم .

لقد جعل الدكتور تمام حسان أقسام الكلام في العربية سبعة بدلاً من ثلاثة هي : لاسم والصفة والفعل والضمير والخالفة والظرف والأداة معتمداً في ذلك على معايير ترجع إلى المعنى والمبنى كليهما فتجنب ما اعترض به على النحاة الذين اعتمدوا على المعنى وحده أو المبنى وحده[2].

---

(1) د/عبد الرحمن أيوب: دراسات نقدية في النحو العربي ص٨، ٩،مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧م.

(2)د/ تمام حسان:اللغة العربية معناها ومبناها ص٨٦ – ٩٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

كما يجب التنبيه إلى تأثير مصطلح جديد أو إعادة تعريف مصطلح قديم إلى تأثير هذا على التعريفات الأخرى التي يستعملها الباحث، إن المصطلحات التي نستعملها في وصف اللغة يعتمد بعضها على بعض إلى حدٍ كبير، فمصطلح ما يحدد مصطلحاً آخر، وهذا المصطلح بدوره يحدد المصطلح السالف، ومن ثم فإن تغيير معنى مصطلح واحد قد يضطرنا إلى تغيير معنى بعض المصطلحات المتصلة به .

وكثيراً ما يتعرض الباحثون لمشكلات من هذا النوع، فالباحث الذي يتبنى تقسيم الدكتور تمام عليه أن يدرك أن مفهوم [الاسم] عنده مثلاً قد تغير عما كان عليه عند النحاة القدامى بعد أن أخرج منه الصفة والضمير والظرف وجعلها أقساماً مناظرة له، وعليه فينبغي ألا يخلط بين التقسيمين، كما ينبغي التنبه إلى ما ينبني على إعادة التصنيف من نتائج .

فالدكتور تمام حين جعل الصفة قسماً بذاته افترض نمطاً ثالثاً للجملة العربية هو الجملة الوصفية [التي قد تكون أصلية نحو : أقائم المؤمنون للصلاة؟ وقد تكون فرعية نحو : رأيت إماماً قائماً تابعوه للصلاة] [1].

هذا النمط الجديد نظير للنمطين المعهودين : الجملة الاسمية والجملة الفعلية، وهكذا يكون لدينا ثلاثة أنماط جديدة للجملة لا نمطاً واحداً .

كما ينبغي التنبه أيضاً إلى ما ينبني على ذلك من تغيير في تعريف الأبواب النحوية، فينبغي عند تحديد صيغة الكلمة الواقعة مفعولاً فيه أن يقال إنها ظرف، وينبغي عند تحديد صيغة الكلمة الواقعة حالاً أن يقال : إنها صفة .. وهكذا في الأبواب الأخرى .

---

(1) د/ تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٠٣ .

واختيار المصطلحات أو إعادة تعريفها ينبغي أن تتم – إذا ما وجدت فائدة في ذلك – بدرجة عالية من الحذر، إنه بناء متماسك يفقد هيكله حين نضيف إليه أو نحذف منه أو نغير فيه .

ويشترط الباحثون في المصطلح أن يستعمل للإشارة إلى مدلول واحد، وألا يشار إلى المدلول الواحد بغير مصطلح واحد، ولاشك أن هذا أدعى إلى الدقة وأدنى إلى الوضوح وأقرب إلى القصد في التعبير، غير أن ما نراه في مجال البحث اللغوي قديماً وحديثاً يخضع لطبيعة اللغة العربية على سبيل المثال، فاللغة تتسم بظواهر الاتساع والمصطلحات التي تدل على هذه الظواهر تتسم أيضاً بالاتساع فيدل المصطلح الواحد على أكثر من استعمال ، ويبدو أن هذه حكمة استقاها نحاة العربية من طبيعة اللغة وعلاقاتها بالذاكرة البشرية .

فمصطلح [المفرد] في النحو العربي يستعمل في باب من أبوابه للإشارة إلى الواحد أي ما يقابل المثنى والجمع، وفي باب آخر للإشارة إلى ما يسمى جملة أو شبه جملة، ومصطلح الحرف يستعمل أحياناً ليدل على الكلمة ، وأحياناً ليدل على قسم بعينه من أقسام الكلام، ويستعمل للإشارة إلى وحدة من وحدات النظام الصوتي أو الإملائي في العربية كالهمزة والباء والتاء .. وغيرها مما يعرف بحروف المعجم .

وقد أحس النحاة بخطورة هذا المسلك فاضطروا إلى أن يقولوا : المفرد في باب كذا هو كذا ، وفي باب كذا هو كذا ، واضطروا إلى أن يخضعوا المصطلح بوصف أو إضافة ، ولكن هذا أو ذاك كان على حساب الاقتصاد في العبارة، وهو من شروط الاصطلاح حتى يسهل استعماله ويتيسر تداوله . ومع ذلك فقد بقيت المشكلة قائمة حين يستعمل المصطلح مجرداً عن تحديد مجال استعماله بعلم بعينه، أو في باب خاص أو عند قوم بأنفسهم، أو حين يستعمل عارياً عن وصف أو إضافة .

والنهج نفسه أولى بأن يتبع في مصطلح أسماء الأفعال فيستعمل لها شبيهات الأفعال، وإن كانت أوزانها ليست على أوزان الأفعال؛ لأن هذا المعيار يركز على

المَبْنَى والنحاة يعتمدون في أكثر تحليلاتهم الإعرابية والنحوية على المعنى ، فإذا اعتمدنا عليه صح لنا أن نسميه شبيهات الأفعال .

على الباحث أن يكون مدققاً في اختيار المصطلحات ، وفي تحديد معانيها بوضوح، وينبغي أن يحتفظ بمدلول المصطلح ثابتاً في كل مراحل البحث، وأن يحتفظ كذلك بالعلاقات التي بينه وبين المصطلحات الأخرى التي تتصل به ثابتة أو بعبارة موجزة: الثبات والتناسق .

ليس من العيب أن تتوجه عناية الباحث أساساً إلى المصطلحات التي تتصل ببحثه مباشرة، فليس من الضروري أن يقف باحث في الأصوات من مصطلحات النحو التي قد تعترضه في بحثه موقف النحوي منها، بل يكفي في ذلك أن يتبنى مفاهيم متفقاً عليها بين عدد كبير من الباحثين في هذا المجال أو يعتمد على المفاهيم السائدة في علم اللغة ، تلك المفاهيم التي لم يوجه إليها اعتراضات ذات بال .

واختيار مصطلح معروف أو ابتكار مصطلح جديد ينبغي أن يعتمد على معايير قائمة مثلاً على أساس التشابه في الشكل أو الوظيفة أو هما معاً .

وينبغي على الباحث أن يكون لديه تصور لما يمكن أن يحدث لو استُعْمِل معيار آخر .

أن يبذل الباحث أقصى جهده على أن يكون للمصطلح الواحد مدلول واحد، وألا يكون للمدلول الواحد غير مصطلح واحد، وهذا أدعى للثقة وأدنى للوضوح، فإن وقع المحظور ، فالأفضل أن يتبنى أكثرها تداولاً بين الباحثين وأقلها عرضة للنقد .

على من يتصدى لابتكار مصطلحات جديدة أن يراعي أن يكون لفظ المصطلح مختصراً ، وأن يتلاءم شكله مع طرق البناء الصرفي والنحوي في اللغة حتى يسهل تداوله ويعم الانتفاع به، وأن يتجنب الألفاظ ذات المدلولات الشائعة في الحياة العامة حتى يضمن لمصطلحه أن يعري من الدلالات غير المرغوب فيها .

- الدقة :

الوضوح شرط ضروري في كل مراحل البحث اللغوي جمعاً وتصنيفاً وتقعيداً، فاللغوي لا يدرس مفردات اللغة كلها، بل يدرس أقساماً بعينها يفترض أنها تضم هذه المفردات .

وليس من المقبول في العلم أن تترك عبارة واحدة دون تحديد دقيق أو تستعمل قضية يشوبها الغموض أو الالتباس. فالدقة ضرورية ولا معدل عنها ، ووسيلة العلماء إليها استعمال لغة الرياضيات لغة الكم . وهذه اللغة تساعد على التعبير عن حقائق العلم بمزيد من الدقة .

بيد أن في اللغة جوانب من الصعب أن توصف كمياً ، ومنها جانب المعنى، ومازال علماء اللغة حتى اليوم مختلفين في عدّه موضوعاً صالحاً للدراسة العلمية .

وثمة أمر آخر له ارتباط بلغة العلم وهو التجريد، والرياضة بطبيعتها علم مجرد ، أي أنه لا يتحدث عن أشياء ملموسة، ومن هنا كان التجريد صفة ملازمة للعلم سواء تم عن طريق الرياضة والمنطق [وهو الأغلب] أم عن طريق أي نوع آخر من الرموز أو الأشكال(1).

والنحو العربي مثل واضح للتجريد ، فالإعراب مثلاً نظام مجرد يعتمد على بيان الموقع والحالة والعلامة، الجملة مثلاً لذلك : الشمس ساطعة، ولنبدأ في إعرابها :

الشمس : مبتدأ [موقع] مرفوع [حالة] بالضمة [علامة] .

ساطعة : خبر [موقع] مرفوع [حالة] بالضمة [علامة] .

إن استعمال المصطلحات [موقع وحالة وعلامة] عمل تجريدي بحت، فليست خاصة بكلمة الشمس فحسب، أو بكلمة ساطعة فقط، وإنما هي صفة تستحقها أية كلمة

---

(1) د/ فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص ٥٣ ، عالم المعرفة [٢] ، الكويت ١٩٧٨م .

يمكن أن تشغل هذا الموقع أو ذاك ، بل إن الحالات الإعرابية [الرفع والنصب والجر والجزم] على درجة عالية من التجريد؛ إذ إنها موضوعة للتمييز بين المواقع الممكنة في اللغة العربية ، فالفاعل يميزه عن المفعول به أنه مرفوع، والمفعول به يميزه عن الفاعل أنه منصوب، والرفع والنصب لا وجود لهما إلا في أذهان النحاة الذين يدرسون المواقع النحوية، إن النحاة في الحقيقة لا يتعاملون مع مفردات وإنما يتعاملون مع أقسام، وهم في النهاية يحددون علاقات مجردة .

ثانياً : النظام :

من أهم سمات التفكير العلمي التنظيم إلى أننا لا نترك أفكارنا تسير حرة طليقة، وإنما نرتبها بطريقة محددة وننظمها عن وعي، ونبذل جهداً مقصوداً من أجل تحقيق أفضل تخطيط ممكن للطريقة التي نفكر بها[1].

ومن هذا المنطلق يحذر علماء اللغة المحدثون من كثير من مزالق الدراسة غير العلمية، فدراسة بنية اللغة كيفما اتفق، أو دراستها دراسة جزئية غير شاملة دون قصد ووعي، أو تفسير ظواهرها تفسيراً انطباعياً، أو تحليلها تحليلاً مضطرباً، أو استعمال المصطلحات استعمالاً متقلباً، أو الفشل في فهم الأعمال السابقة، هذه السمات كلها ينبغي أن يتجنبها الباحث الذي يريد أن تكون دراسته للغة دراسة علمية .

واللغة ظاهرة على جانب كبير من التعقيد والتنوع ، فالجمل أو التراكيب أو الأبنية التي تؤلف نسيجها لا حصر لها وتتنوع تنوعاً حتى ليبدو من المستحيل أن نصل إلى أية نتائج عامة من فحصها إلا إذا درست بطريقة على درجة عالية من التنظيم .

لا مندوحة لنا إذا ما أردنا أن ندرس اللغة دراسة علمية – عن تبني منهج منظم يساعدنا في اكتشاف النظام الذي يحكم اللغة وفي وضع النظرية التي تفسر

---

(1) د/ فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص ٢٧ .

الطريقة التي يعمل بها . والمنهج العلمي ما هو إلا شكل منتظم بطريقة خاصة للتفكير والبحث .

ويتحدث الدكتور تمام حسان عن الظواهر اللغوية التي يمكن أن تخضع للملاحظة قائلاً : " وسبيل الملاحظة الاستقراء ، ويتطلب الاستقراء عدداً هائلاً من المفردات التي يتناولها، وقد تكون هذه المفردات أصواتاً عند دراسة الأصوات أو حروفاً أو مقاطع أو ظواهر موقعية عند دراسة التشكيل الصوتي [الفونولوجي] أو صيغاً عند دراسة الصرف أو أبواباً عند دراسة النحو أو غير ذلك . وتتطلب كل مجموعة من هذه المجموعات أن يتم استقراء مفرداتها ، وقد وضع كل منها تحت ظروف مختلفة، فإذا أردنا استقراء سلوك معين مثلاً اخترنا من حالات المنطق ما يكون هذا الصوت مجاوراً فيها لكل صوت آخر من أصوات اللغة ، إما سابقاً وإما لاحقاً له ، ثم وضعناه في أول الكلمة أو بين صوتي علة أو مشدداً أو ساكناً في الوسط .. إلخ ، ثم لاحظنا ما يعتريه في كل حالة من هذه الحالات من خصائص صوتية ، ثم يجيء التقسيم وتسمية الأقسام بعد الملاحظة ، وعملية التقسيم تقوم على إيجاد أوجه الاتفاق بين المفردات ، فما توافق منها ائتلف وما تنافر منها اختلف، وإنما تكون أوجه الاتفاق بين ما ائتلف منها متعددة الجوانب كالشركة في الشكل أو في الوظيفة أو فيهما معاً "(١) .

أما الطرق التي يستعملها اللغوي في ملاحظة الظواهر المدروسة فكثيرة منها : السماع أو التدوين الصوتي، وقد يستعمل الأجهزة في تسجيل المادة أو في تحليلها ، وفي التعرف على خصائصها مثل: راسم الذبذبات **oscilograph** أو جهاز رسم الأطياف**Spectrograph** أو الكيموجراف**Kymograph**..إلخ(٢).

---

(١) د/ تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، الأنجلو المصرية ١٩٥٥م .

(٢) انظر د/ أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي من ص ٣٣ – ٤٤ ، عالم الكتب ١٩٧٦م .

وقد يعمد الباحث إلى الإحصاء أو إلى استعمال الرموز والمعادلات، على أن استعمال هذه الطرق كلها ليست إلا وسائل لغاية محددة، وليست غاية في حد ذاتها، ومن الفهم القاصر والضلال البين أن ننظر إلى علم اللغة على ضوء هذه الوسائل، وربما كان أكثر من ذلك أهمية الطريقة التي تستند إليها الإجراءات أو المخططات العلمية في الدراسة .

وبعد أن يستوفي الباحث ملاحظاته ، وينتهي من ترتيبها ترتيباً يكشف عن العلاقات الداخلية التي تربط بين الظواهر المدروسة ، ويستخلص أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينها يضع الفروض التي تفسر هذه الظواهر .

والفرض **Hypothesis** قضية تفترض أو تتنبأ بعلاقة بين متغيرين أو أكثر كأن يقال : إذا وقع [أ] مثلاً وقع [ب] ، ومن الفروض الأولية في اللغة : نفخم الحركات العربية حين تسبق بصوت مفخم ، ينصب الفعل المضارع إذا سبق بأداة نصب ... إلخ .

ومن الفروض الأكثر تعقيداً : التغيرات الصوتية مطردة، اللغة ظاهرة إنسانية، العربية الفصحى كانت لهجة قريش .. إلخ .

والفرض الواحد قد يقوم على أساس عدد من الفروض التي يمكن اختيارها قبل وضعه بطرق إحصائية ، فالفرض القائل بنصب الفعل المضارع حين يسبق بناصب قد سبق بعدد من الفروض التي حددت إحصائياً النواصب التي يجيء بعدها الفعل المضارع .

وبعد أن يضع الباحث الفروض المناسبة لتفسير الظواهر المدروسة ينبغي عليه أن يتحقق من صحتها؛ لأن الفرض – من حيث المبدأ – يقرر علاقة يمكن أن يبرهن عليها أو يتبين خطؤها، وذلك بوضع الظواهر المدروسة في ظروف محكومة مع تنويع

الظروف كلما أمكن، وينبغي أن تكون الظروف التي تتم فيها التجربة واضحة، بحيث يمكن للآخرين أن يكرروا التجربة ويؤكدوا صحة النتائج[١].

بيد أن الظواهر اللغوية التي يمكن أن تختبر بالطريقة السابقة المتبعة في الأشياء المادية قليلة [كدراسة الجوانب الفسيولوجية والسمعية للأصوات اللغوية] بيد أن هذه الطريقة ليست وحدها السبيل إلى الاستيثاق من الفرض، فاللغوي مثلاً يمكنه أن يقوم بفحص أكبر عدد من المتغيرات في موقف تجريبي خاص، فعلى سبيل المثال يمكنه أن يتحقق عن طريق مادة لغوية جديدة من تأثير متغير ما على المتغيرات الأخرى في الموقف [مثل وجود لن وغيرها من النواصب قبل الفعل المضارع] كما يقوم أيضاً بفحص العوامل الأخرى التي يمكن أن يكون لها دور في التغير المذكور كأن يفحص مثلاً تأثير موقع الناصب من الفعل المنصوب،أو الفصل بينه وبين الفعل بفاصل ما [حرفاً أو كلمة أو جملة] .. إلخ وعليه حينئذٍ أن يستبعد العوامل غير المؤثرة أو غير الصالحة لتفسير النتيجة.

وقد يكون العامل المؤثر في الحالة اللغوية هو فقدان السبب الموجب لتأثير معين، وهذا هو ما فسر به النحاة حالة الرفع في الفعل المضارع حين قالوا: يرفع الفعل المضارع حين لا يسبقه ناصب أو جازم .

وينبغي الحذر عند وضع الفروض من تأثرنا بالفروض التقليدية في المجال المدروس، ولذلك ينبغي أن توضع هذه الفروض موضع الاختبار الدقيق. ومثال ذلك أن النحاة القدامى قالوا : إن الفعل المضارع يأتي منصوباً بأن مضمرة وجوباً بعد حتى ولام التعليل، والسر في ذلك كما يقول سيبويه : قائماً انتصب هذا بأن ، وأن هنا مضمرة ، ولو لم تضمرها لكان الكلام محالاً ؛ لأن اللام وحتى إنما يعملان في الأسماء فيجران وليستا من الحروف التي تضاف إلى الأفعال [٢] .

---

(١) د/ فؤاد زكريا : التفكير العلمي ص ٣٣ .

(٢) سيبويه : الكتاب ٣/٥ ، ٦ ، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م .

فليس ثمة ما يمنع من وضع فرض جديد لتفسير النصب في الفعل المضارع بعد اللام وحتى، وهو أن اللام وحتى قد يجران إذا سبقا اسماً، وقد ينصبان إذا سبقا فعلاً مضارعاً، ومن الضروري أن يكون واضحاً أن الفرض الذي يقترحه الباحث لتفسير الظاهرة موضوع البحث ينبغي العدول عنه إذا لم يتبين صحته والبحث عن فرض آخر .. وهكذا حتى نصل إلى الفرض الصحيح، وهذا يتطلب العودة إلى مادة البحث أو جمع مادة أخرى كلما احتاج الأمر إلى ذلك .

بعد أن ينتهي الباحث من اختيار الفروض والبرهنة على واحد منها يأتي إلى المرحلة الأخيرة، حيث تصبح الفروض المختبرة قوانين أو قواعد أو سلوكاً يمكن التنبؤ به .

والحقيقة أن قوانين النحو العربي وقواعده إنما وضعت وفقاً لسلوك المفردات في التراكيب العربية من واقع النصوص والاستعمال، ولكن عند تحليل كل نص أو أي نص على حدة، فإننا نجد مجموعة من الاختلافات والسمات المميزة لاستعمالات كل نص منها ما يرجع إلى اختلاف البيئات أو اللهجات أو المستويات اللغوية أو التوليد في التركيب والدلالة، وتختلف تراكيب واستعمالات كل عصر عن العصر الذي يسبقه، ولعل هذه الأسباب هي التي تجعل البحث اللغوي مستمراً وممكناً في كل وقت، ناهينا باختلاف الباحثين وتكوينهم ومؤهلاتهم واتساع أفقهم وثقافاتهم واطلاعهم على أنظمة لغات أخرى أو أنحاء غربية أو مناهج بحث جديدة أو أدوات عمل ووسائل جديدة تختلف من باحث لآخر ، ومن بيئة لأخرى ومن عصر إلى عصر .

وليس المقصود بوضع القواعد في العلوم اللغوية بخاصة أن تكون كلية تشمل كل الأفراد، بل الهدف هو الوصول إلى قواعد عامة تنتظم أغلب الأفراد، وينبغي ألا ينظر إلى القاعدة في العلوم اللغوية، كما ينظر إلى القانون في العلوم الطبيعية مثلاً .

فإذا ما وجد الباحث شيئاً يختلف عن القاعدة فلا يتسرع باتهامها أو بتخطئة الظاهرة أو المثال المخالف لها ، بل عليه أن يبحث عن تفسير لذلك .

ويلخص الدكتور تمام الأسس التي ينبغي مراعاتها عند وضع القواعد فيما يأتي:

- القاعدة وصف لسلوك عملي في تركيب اللغة، ويلاحظ أن يكون هذا السلوك مطرداً حتى يعبر عنه بالقاعدة .
- القاعدة لهذا السبب جزء من المنهج لا جزء من اللغة .
- لابد أن تتصف القاعدة بالعموم وليس من الضروري أن تتصف بالشمول.
- أن تكون القاعدة مختصرة قدر الطاقة .
- من الضروري إيراد بعض الشواهد والأمثلة التي جرى عليها الاستقراء لتكون سنداً للقواعد وإيضاحاً لها[1].

ثالثاً : الموضوعية :

الموضوعية سمة أساسية للتفكير العلمي، والمقصود بها أن القضايا التي تثار أو النتائج التي يوصل إليها أو الأدلة التي يعتمد عليها ينبغي أن تكون قابلة – بعامة – للملاحظة والتجربة، والكلمة التي تلخص هذه المعاني هي أن يكون العمل تجريبياً empirical ، والعمل التجريبي هو اختيار يتم فيه فحص ظاهرة في ظروف تجريبية محكومة، وتكون النتائج فيه قابلة للملاحظة المباشرة والحكم المباشر، فإذا ما أعيد الفحص وصل الباحث إلى النتيجة ذاتها والحكم ذاته، ولنقل بعبارة أخرى : النتائج يمكن البرهنة عليها .

والنظر إلى الموضوعية هو أن ننظر إليها على ضوء نقيضها الذاتية، وحينئذ يكون المقصود بها : أن يكون التفكير مرتبطاً بسلوك الظواهر الخاضعة للملاحظة بحيث تصبح طبيعة موضوع الدراسة هي الفيصل في الحكم على الظواهر دون اعتماد على ميول الذات الباحثة ولا عواطفها وآرائها الشخصية ومعتقداتها[2] .

---

(1) د/ تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(2) د/ تمام حسان: الأصول ، ص ١٤ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء .

إن الدراسة الموضوعية ينبغي أن تفهم على أنها مناقضة للنظرة الذاتية ، وثمة معان إضافية للمصطلح - " الموضوعية " - على درجة كبيرة من الأهمية، إنها تعني أن يـــتخذ الباحـــث مسلكاً نقدياً مبدئياً حين يتشكك في أي فرض من الفروض إلى أن يـــتأكد من صحته بدليل تجريبي، إنها تعني الحذر من المفاهيم السابقة التي ربما تدعم فرضـــاً مـــن الفروض المقترحة، وعلى الباحث من أجل ذلك أن يبذل جهداً في التفكير بعـــيداً عـــن القضية المثارة فيدرسها من زاوية جديدة، أو يعرض فروضه على رفقائه مـــن الباحثين لقراءتها بدقة ونقدها، إنها تعني أيضاً استعمال مخططات دراسية موحدة *Proceedures* مخططـــات تحظـــى بالقبول عند معظم أو كل اللغويين؛ لأنها صالحة للبحث ولا تحتاج إلى تعديلات خاصة في كل مرة تستعمل فيها .. إلخ .

لقـــد تكلمنا عن الذاتية في مضمونها المرفوض علمياً ، حيث يعتمد الباحث في الملاحظـــة وفـــي وضـــع الفـــروض على شعوره أو معتقده أو حدسه تجاه الموضوع المـــدروس، بـــيد أن لهـــا جانباً آخر قد يضيف بعداً ثميناً ونوعياً للدراسة، وقد يزودنا بفـــروض مفيدة وبخاصة في مراحل البحث الأولى، ولكن ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن مثل هذه الفروض غير علمية إلا إذا تم اختبارها والبرهنة عليها .

وعلـــى هـــذا فليست الملاحظة الذاتية معيبة في كل الأوقات أو مخطئة في كل الظـــروف، فهناك دراسات تستند في بعض أحكامها على الملاحظة الذاتية ، وليس هذا معيباً بحال من الأحوال، ولا ينبغي أن يكون مدعاة إلى اتهام العلوم بعدم الدقة، والذي يعنينا هنا أن الدراسة اللغوية – لكي تكون علمية – ينبغي أن تكون موضوعية .

من طرق البحث الموضوعية :

الموضـــوعية سمة أساسية للتفكير العلمي وسلوك ينبغي على الباحث أن يسلكه حين يدرس موضوعه، هذا جانب له أهميته، وثمة جانب آخر لا يقل عنه أهمية هو أن نقترح طرقاً أو [تكنيكات] معينة تتحقق فيها النظرة الموضوعية الخالصة .

[أ] استعمال مخطط موحد :

مـــن معانـــي الموضوعية أن يستعمل الباحث مخططات موحدة بقدر الإمكان، مخططات يقبلها معظم اللغويين أو كلهم، ويرون أنها صالحة للدراسة وليست في حاجة إلى تبريرات أو تعديلات في كل مرة تستعمل فيها .

وهـــذا الموضوع يحتاج إلى توضيح وبخاصة ما يتصل بالكلمة [موحدة إلى] تعني هنا أمرين :

الأول : تشـــير إلى طرق أو تكنيكات] يجزم علماء اللغة بأنها صالحة للدراسة أو على الأقل يقرر الباحثون صلاحيتها على أسس غير الأسس المقررة في علم اللغة، كاســـتعمال التفســـير الإحصائي أو غيره من التفسيرات الرياضية أو استعمال المنهج الشكلي .

الثانـــي: تشـــير إلـــى طـــرق أو [تكنيكات] ينتشر استعمالها في علم اللغة ، ويعرف اللغويـــون قيمتها . وما هو أكثر من ذلك أنهم يفهمون حدودها فهماً جيداً، مثال ذلـــك ما يعرف باختبار الثنائيات الصغرى **Minimal pair** في علم الأصوات التشـــكيلي أو **phonology** ، وهذا المنهج استعمله معظم اللغويين عندما كانوا يدرسون لغة لأول مرة، ويريدون اكتشاف نظامها الصوتي .

[ب] فحص عينة محدودة :

موضـــوع علم اللغة هو اللغة منطوقة أو مكتوبة في المواقف الفعلية، والهدف مـــن دراسة هذه المادة عند أصحاب المنهج التجريبي هو أن نسلكها في أنماط ونماذج، نمـــاذج صوتية أو صرفية أو نحوية .. وعلى أساس مادة محدودة نضع فروضاً تتصل ببنـــية هذه المادة تنطبق على أية مادة أخرى تضاف إلى المادة المختبرة، هذا القدر من المادة الذي نستعمله للبرهنة على فروضنا يطلق عليه مصطلح العينة **corpus** .

والعيـنة قـدر غير منتظم من المادة اللغوية المجموعة في مجال لغوي محدد [مـنطوقة أو مكتوبة] . هذه المادة يحللها اللغوي لكي يضع فروضاً أو مقولات تتصل بالخصائص الصوتية أو الإملائية أو الصرفية أو النحوية أو المعجمية للغة(١).

وقد كان هذا المسلك الذي يعتمد في الدراسة على تحليل قدر محدود من اللغة، وقـد عـرف بأسماء عديدة، ربما كان أكثرها لأشهره المنهج البنيوي **Structural Approach** ، وقد نهج علماء العربية الأوائل حين جمعوا مفرداتها ووضعوا نظامها الصوتي والصرفي والنحوي هذا المنهج، فاكتفوا بالقليل عن الكثير، وقاسوا ما لم يسمع على ما سمع، وفي ذلك يقول المازني : ألا ترى أنك إذا سمعت " قام زيد " أجزت أنت [ظـرف خـالد] و [حمق بشر] ، وكان ما قسته عربياً كالذي قست عليه؛ لأنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ومفعول، وإنما سمعت بعضاً فجعلته أصلاً، وقست عليه ما لم تسمع، فهذا أثبت وأقيس(٢).

الملكـة نظام عقلي تحتي يكمن وراء السلوك الفعلي، ولذلك لا يصلح للدراسة التجريبـية المباشرة، وإذا لم يكن صالحاً للملاحظة المباشرة فإن الطريق الرئيس الذي يمكنـنا من اكتشافه هو الاستبطان **intrespection** أي بسؤال أنفسنا كيف نستجيب [أو نفسـر أو نحلـل] لجملـة معيـنة ؟ إن صاحب اللغة [أو اللغوي الذي قد يكون من أصـحاب اللغـة المدروسة] مدينان للحدس اللغوي الذي يتيح لهما أن يحللا اللغة وفقاً لحاجتهم شرحه [إزالة اللبس، تجاهل الأخطاء، فهم الجمل الجديدة .. إلخ] .

والـذي نستخلصـه مـن ذلـك أنه إذا كان هدف علم اللغة هو وصف الملكة **competence** ، وإذا كـان المدخـل الوحيد المباشر إليها هو الحدس **intuition** فإن

---

(١) R.R.K. Hartmann and F.C. Stork:Dictionary of Language and Linguistics, London, 1973.

(٢) المازني : المنصف ١٨٠/١ ، ابن جني في التصريف ، تحقيق إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين ، دار إحياء التراث القديم ، ط١، ١٩٥٤م .

الحدس يصبح دليلاً من الأدلة التي نستشهد بها على ماهية هذه الملكة . وبعبارة أخرى : إذا كانت الملكة أو القدرة هي الموضوع الفعلي لعلم اللغة فإن حدسنا يكون جزءاً من المادة الذي عليه تستند نظرية الملكة .

والحدس من حيث هو طريقة للمعرفة يتميز بأنه معرفة مباشرة لا تحتاج إلى وسائط، ولا تسير بالتدريج من خطوة إلى خطوة، وهو ينقلنا مباشرة إلى لب الموضوع المدروس بدلاً من وصفه وصفاً خارجياً أو مقارنته بغيره، وهو في جوهره معرفة فردية، أي أنه يتاح لشخص بعينه لا لأي شخص آخر، وهو يتطلب تجربة من نوع خاص يصعب نقلها إلى الغير أو تعليمها لهم، ويستحيل أن نعممها على الجميع[1].

ولعل ما سبق من تعريف الحدس هو السبب في أنه لا يعد جزءاً من موضوع البحث أو أداة له في العلوم، إن المعرفة التي تعتمد على الحدس مادة للبحث أو أداة له نمط من المعرفة يختلف عن المعرفة الناتجة عن الملاحظة المباشرة والتجربة الموضوعية، والعلماء لا يعترفون بغير هذه المعرفة ولا يرضون بغيرها بديلاً عنها .

أما [تشومسكي] فيرى أن علم اللغة علم عقلاني في جوهره .. ويرى أن المقارنة بين موقف عالم الطبيعة وعالم العلوم الاجتماعية خارجة عن الموضوع، وعلم اللغة فصل من دراسة العقل، ومن المقرر أن يقال إنه فرع من فروع علم النفس الإدراكي، وعلم اللغة بهذا الاعتبار ليس على خطأ حين يعد الحدس جزءاً من مادته.

وينبغي ألا نبالغ في تصوير التعارض الملحوظ بين المنهجين أو نستخف بما يمكن أن يكون نقطة اتصال يلتقيان عندها .

إن النظرية التوليدية لا يستبعد أصحابها على الإطلاق البرهان التجريبي من مجالات البحث والعكس هو الصحيح، لقد أكد [تشومسكي] على الحاجة إلى الفروض في اللغة، الفروض التي يمكن اختبارها تجريبياً، ونقد أولئك الذين يعارضون ذلك ولا

---

(1) د/ فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص ٩٥ .

أحـد مـن العقلانيين يـنكر العلاقة التي بين هذه الطرق وموضوع البحث من حيث اكتشاف نظام من القواعد خاص بالملكة، ومن حيث اكتشاف أن هذه القواعد كانت تنتج الجمـل الموجودة في أية عينة، بل ربما يقرر – هذا الباحث العقلاني – في النهاية أن شـيئاً مـا في مكان كان خطأ ، وأن عليه أن يعيد دراسة موقفة، وهكذا نتبين التلازم الضروري بين المنهج العقلاني والمادة اللغوية التي يمكن أن تخضع للتجربة .

وفـي الجانـب الآخر لا أحد ممن يعارضون المنهج العقلاني يحصر نفسه في الـنماذج التي يكتشفها في العينة، إن هذا العالم ليس بالضرورة عالم عينة محددة، ليس ثمـة لغوي يعتقد أن قواعده التي يستخرجها من المادة المجموعة لا تتجاوز هذه المادة ... إن هـذا اللغـوي في الحقيقة يقبل تماماً الهدف المقرر لعلم اللغة وهو : بناء نظام تجريدي من القواعد لتفسير الظواهر اللغوية .

ومع ذلك فعدد كبير من اللغويين يعتقد بوجود تعارض مبدئي بين وجهة النظر العقلانـية فـي التحلـيل اللغـوي وما يعرف بوجهة النظر التجريبية، وربما كان من الأسباب الرئيسة للمشكلة، مشكلة التعارض بين المنهجين، المعنى الذي تشير إليه كلمة [حـدس] . فثمة ادعاء بأن المعنى المقصود للأحداس في النظرية التوليدية لا يتعارض مـع المـناهج التجريبية، فما يشار إليه بالحدس ليس إلا رد الفعل المباشر الذي يظهره راوٍ لغـوي **informant** إزاء مـا يقـبله من لغته معنى ومبنى . [أي ما موقفه من صيغة معينة ؟ أيقبلها أم يرفضها ؟ ما موقفه من تركيب معين ؟ أيقبله أم يرفضه ؟ ما الذي يعنيه بكلمة معينة أو بجملة معينة ؟ .. إلخ] .

وثمة ادعاء آخر بأن ما يشار إليه بالحدس يتضمن أكثر مما سبق، وأن أحداس المـتكلم ذاتها فيما يتصل ببناء لغته هي بحكم حقها الطبيعي جزء من موضوع البحث فـي التحليل اللغوي، وإذا كان الأمر كذلك فهذا الزعم يختلف ولاشك عن وجهة النظر التجريبـية المثالـية، كما أن الرأي المضاد له [القائل بعدم التعارض بين المنهجين] ربما يكون مضللاً .

ربما تكون المشكلة ناتجة عن ممارسات خاطئة وقع فيها بعض اللغويين، قد ترجع إلى : فشل في الاستعمال المنظم للطرق التجريبية في اختيار عمومية أحداس المتكلم صاحب اللغة، أو إلى عرض صورة مختارة للمادة المدروسة حدسياً، أو إلى خلط أحداس اللغوي أو موقفه بأحداس المتكلمين أو مواقفهم، أو غير ذلك من الأخطاء.

إن المشكلة في الحقيقة ترجع إلى الادعاء بأن المعلومات التي يحصل عليها عالم اللغة التوليدي ينبغي أن تحظى بمكانة مساوية للمعلومات المبرهن عليها تجريبياً، إن الادعاء يحمل مضامين مشوشة بخصوص أي تعريف لعلم اللغة بأنه الدراسة العلمية للغة، فإذا ما رغب شخص في أن يستعمل مصطلح علم اللغة بهذا المفهوم، وفي الوقت نفسه يؤكد ثقته بالنظرية التوليدية ، فقد يكون من الضروري له أن يعيد تعريف كلمة [علم Science] لكي يدعم تركيزه على الحدس الذي يرفضه الموقف الثابت للعلم، ربما يكون عليه أن يقول : إن علم اللغة ليس [هذا النوع من العلم] الذي يكون فيه البرهان التجريبي هو البرهان الوحيد، أي أن علم اللغة ليس علماً بالمعنى العادي للعلم، بيد أن محاولة كهذه هي من غير شك محل مناقشة .

وفي هذه المحاولة يقرر دافيد كريستال أن علم اللغة الجديد عليه أن يحذر من هذه المحاولة لسببين أساسين :

الأول : أن أي تعريف جديد للعلم ملائم لمجال بحثي محدد سوف يلقي معارضة من فروع العلم الأخرى وبخاصة من فلاسفة العلوم .

الثاني: أن ذلك سوف يجعل من الصعوبة بمكان – إن لم يكن من المستحيل – على المعارف اللغوية أن تندمج في إطار الشكل العام للمعرفة العلمية، ومن حيث المبدأ فالمعرفة في علم من العلوم تتواصل مع المعرفة في علم آخر؛ لأن أوليات الدراسة نفسها مشتركة، فإذا ما طور اللغويون أساساً عقلانياً خاصاً بهم فسوف يعزلون أنفسهم عن التيار العام للبحث العلمي، وسوف يكون علم اللغة بذلك علماً شاذاً ، على الأقل حتى يجيء الوقت الذي تكون فيه العلوم كلها عقلانية .

والآن هل من سبيل لإزالة هذا التعارض بين المنهج العقلاني والتجريبي ؟ لقد بذلــت في هذه السبيل محاولات قامت على أساس ابتكار وسائل تجريبية معقدة لوصف وتصنيف استجابات الراوي الحدسية للغة، وقد احتل علم النفس اللغوي الذي يبحث في موضــوع [القــبول **acceptability**] مكاناً ظاهراً استطاع منه أن يضع جسراً بين المنهجين المتعارضين .

ويشــير كريســتال حين يتكلم عن هذه المحاولات إلى أنه ينبغي علينا أن نميز بوضــوح بيــن حــدس المــتكلم وحدس اللغوي أو الباحث . فالحدسان يعملان بطرق مخــتلفة – فالمــتكلم يمكــن الرجوع إليه فحسب ليزودنا بمعلومات عما يشعر به إزاء الاستعمال اللغوي السليم، أو المعنى أو الخطأ اللغوي. وليس من المأمون أن يطلب إليه أن يــزودنا بآراء فيما يتصل بكيفية تحليل المادة .. أما أحداس اللغوي أو الباحث فهي نتــيجة تدريب واحتراف، وفي هذا المجال لا يفترق [اللغوي عن عالم الطبيعة مثلاً ، والفرق بينهما أن اللغوي قد يكون متكلماً باللغة المدروسة [**native Speaker**] وهذا معــناه أن له حدسين [حدس اللغوي وحدس المتكلم] ، وهنا مكمن الخطورة المتصلة بالذاتية ، بيد أن لهذه المشكلة حلاً، فإذا ما استطاع اللغوي أن يبعد أحداسه عن أحداس المــتكلم فعــندئذ يكون من المحتمل جداً الحصول على تفسير معدل تجريبياً لما يقصد باستعمال الحدس .

إن اســتعمال حدس أي شخص آخر قد قبل في الواقع كوسيلة معيارية في علم اللغة [وبخاصة في الفرع المعروف بعلم اللغة الأنثروبولوجي] فعند تحليل لغة أجنبية نخــتار أحد المتكلمين بها [الراوي] ، وبسؤاله بعض الأسئلة نستخرج منه مقولات أو بيانات تتصل بلغته مثل : معاني الكلمات أو الجمل .. إلخ .

رابعاً : الشمول واليقين :

- الشمول :

المعرفة العلمية معرفة شاملة بمعنى أنها تسري على جميع أمثلة الظاهرة التي يبحثها العلم، ولا شأن لها بالظواهر في صورها الفردية . على أن شمولية العلم لا تسري على الظواهر التي يبحثها فحسب ، بل على العقول التي تتلقى العلم أيضاً، فالحقيقة تفرض نفسها على الجميع بمجرد ظهورها ولا يعود فيها مجال للخلاف بين فرد وآخر[1] .

وهذا هو ما يقرره علماء اللغة في مجال البحث اللغوي، فإذا ما زودنا الوصف بقواعد تفسر كل المادة المتيسرة فإن هذا الوصف من المحتمل أن يكون أفضل من الوصف الذي يفسر لنا ثلاثة أرباع المادة .. أو بعبارة أخرى إذا ما كان الوصف يفسر كل المادة بطريقة أكثر اقتصاداً – الاقتصاد هنا محدد في ضوء عدد الرموز أو القواعد الضرورية للقيام بالتفسير – فإن هذا من المحتمل أن يكون أفضل وصف والقاعدة في العلوم اللغوية قاعدة عامة تنتظم أغلب الأفراد .

وعالم اللغة لا يتعامل مع الصور الفردية للكلام أو ما أطلق عليه [دي سوسير] مصطلح [الكلام **La parol**] وإنما يتعامل مع الظواهر العامة المشتركة أو اللغة [**La Langue**] وما ذلك إلا لأن الصور الفردية أبعد ما تكون عن الوحدة والتجانس فلا تصلح للدراسة ، ولكي ندرس شيئاً ما دراسة علمية ينبغي أن يكون لدينا موضوع محدد حتى نستطيع إجراء إحصاء بأجزائه وإجراء تحليل له، وصور الكلام الفردية – أو النشاط الكلامي الذي يقوم به الأفراد – غير محدودة، ولا يمكن والأمر كذلك وصفها إلا إذا كان هذا الوصف أيضاً بلا حدود وهذا ما لا سبيل إليه[2].

---

(1) د/ فؤاد زكريا : التفكير العلمي ص ٤٦ .

(2) Dinnaen : An Introduction to general Linguistics, P.198.

ـ اليقين :

واليقيــن فــي العلــم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بطابع الشمول الذي تتسم به القضايا العلمــية، إذ إن كل عقل لابد أن يكون [على يقين] من تلك الحقيقة التي تفرض نفسها عليه بأدلة وبراهين لا يمكن تفنيدها .. واليقين هنا هو اليقين الموضوعي ، وإنما يكون اليقين موضوعياً حين يركز على أدلة منطقية مقنعة لأي عقل، ولابد للوصول إلى هذا اليقين الموضوعي من هدم كل أنواع اليقين الذاتي ، فلابد أن يزعزع العالم – كخطوة أولــى فــي بحــثه – ما رسخ في عقول الناس من أوهام وتحيزات عملت على تثبيتها عوامل غير موضوعية.

وإذا كــان اليقين العلمي يعتمد على براهين وأدلة منطقية فإن هذا لا يعني على الإطــلاق أنـــه يقين ثابت أو نهائي .. بل إن المقصود من ذلك أن البرهان العلمي يقنع كــل من يستطيع فهم هذا البرهان في ضوء حالة العلم في عصر معين ، أما أن تتحول القضــية العلمية إلى حقيقة تفرض نفسها على الناس في كل العصور فهي شيء يتنافى مع طبيعة العلم ذاتها[1] .

من خلال تعريفنا للموضوع نستنتج بعض المبادئ المنهجية :

إن اللســـانيات لا يجب أن تكون في نهاية البحث من أي نوع كان، بل يجب أن تكون في أصل البحث المستمر ، أي أن يكون البحث لسانياً خالصاً، وهذه إحدى النقط المنهجية التي فرقت بين مرحلتين من التطور اللساني .

وانطلق روّاد الحركة اللغوية في القرن التاسع عشر من حقيقة تثبتت مع نهاية القــرن الثامن عشر، وفحواها أن الألسنة البشرية تتغيّر مع الزمن بالضرورة وتغيّرها يفضـــي إلى انسلاخ صور لها بعضها من بعض حتى تفارق على التدرج هيئتها الأولى كلــياً، ولأول مـــرة في تاريخ المعارف اللغوية يحصل التسليم بأن دراسة تغير الألسنة

---

(1) د/ فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

البشـــرية تمثل علماً قائماً بنفسه . وهذا ما عمل اللغويون طيلة القرن التاسع عشر على بناء صرحه .

ومـــنذئذ اســـتقام علـــى الصعيد المعرفي المنهج الذي يقود البحث اللغوي في إجـــراءاته التطبيقـــية ومستنداته النظرية ، ولشدة ما كان هذا المنهج غالباً بل متفرداً لم يكن اللغويون إذ ذاك ليعوا أنه لم يكن إلا منهجاً من بين المناهج الممكنة، ولهذا السبب مـــا كـــان لهـــم شأن بمفارقاته ولا كانت لهم حيرة بأن يخصّوه بمصطلح يسمه فيحدّه بالجمع والمنع، وإنّما الذي سيبلور المتصور الذهني ليسكبه في مصطلحه المناسب بعد الوعـــي الكلـــي بـــالقواعد المعرفية والأصول المنهجية هو فردينان دي سوسير عندما يجردها متصوراً الزمانية ليؤلف به ثنائياً تقابلياً .

لكـــن إذا حاولنا البحث عن التعريف العلمي لمادة " لسانيات : الدراسة العلمية للغـــة " تقريـــباً لا نكـــاد نعثر له على أثر في خضم البحث القديم والمستمر في مجال الدرس اللغوي، ذلك أن الإنسان الأول لم يركز جهوده حول البحث في الآلية الإبداعية في المجال اللغوي، فقد كان يريد فهم السؤال القائل: ما الكلام ؟ فجاء هو نفسه بأجوبة تعريفية مختلفة، ذلك أن الاهتمامات المعرفية [الابستمولوجية] المختلفة كانت تتجاذبه مـــن كـــل جهة ، هدفه فقط هو أن يقول عن الكلام ما هو ؟ أما كيف ندرسه فلم يكن العقـــل قـــد تفتح على هذا النوع من الأسئلة، لذلك جاء الجواب متأخراً ، حيث صاحب إثارة السؤال : كيف ندرس الكلام ؟

وحـــتّى في القرن الـــ ١٩ م الذي اشتهر بالدراسة النحوية نجد جهود اللغويين كانـــت مركـــزة حول تاريخ اللغات والعلائق التي تربطها ببعضها، وليست اللغة لذاتها هـــي موضـــوع البحث اللغوي، ولذلك فإلى عهد قريب، أي قبل القرن الـــ ١٩ م نجد المنهج اللساني بالمفهوم العلمي مازال غائباً .

وقــد ركــز د. سوسور جهوده لتعريف اللغة علميا بعد أن وجد أن سابقيه لم يحــددوا موضوع دراستهم ، فأخذ على عاتقه هذه المهمة ، مهمة التعريف، فخصص الفصل الأول من كتابه [م . م . ع] لتحديد هذا الموضوع .

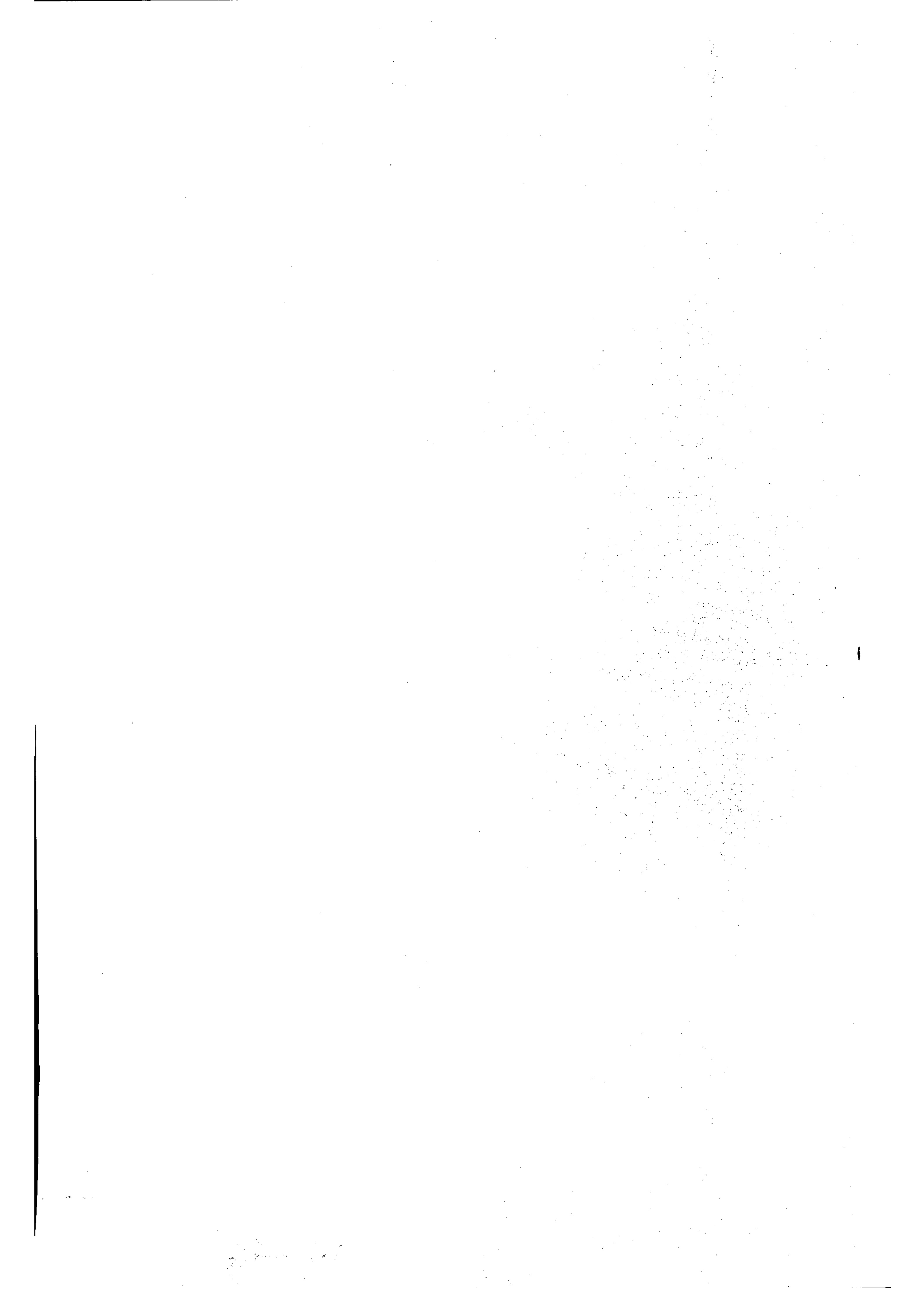
وإلــى الآن نجـد مصطلح [كلام] ممتزجاً بمجموعة من الحقائق المختلفة : فيزيولوجــية نفســية، سمعية، شفوية، بل وكل العلوم تقريباً يمكنها أن تدعى ملكية هذه المؤسســة الكونية التي على عاتق علماء اللغة تحديدها، ومعنى هذا أن ميدان اللسانيات الخــاص ليس واضحاً بالرغم من أن دو سوسور يرى أنه من الإمكان التأكد من العلم قبل اكتشاف موضوعه الخاص .

كــل المجــتمعات البشرية تملك وسيلة للتواصل، لكن هذه الوسيلة تختلف من مجــتمع إلــى آخــر، وبيــن هــذا الاخــتلاف وما يمكن أن يدرك من تشابه – وفقاً لتشومسكي- يمكن أن توضع فرضية تتعلق بالموضوع اللساني والمنهج .

فهــذا الموضــوع هو اللغة ، المكون الاجتماعي للكلام الذي يعد قضية فردية وهــو بدوره يختلف عن " الإنجاز] المظهر الإرادي والفردي، وهذا يختلف عن اللغة التي تعد نظاماً من الدلائل اللغوية .

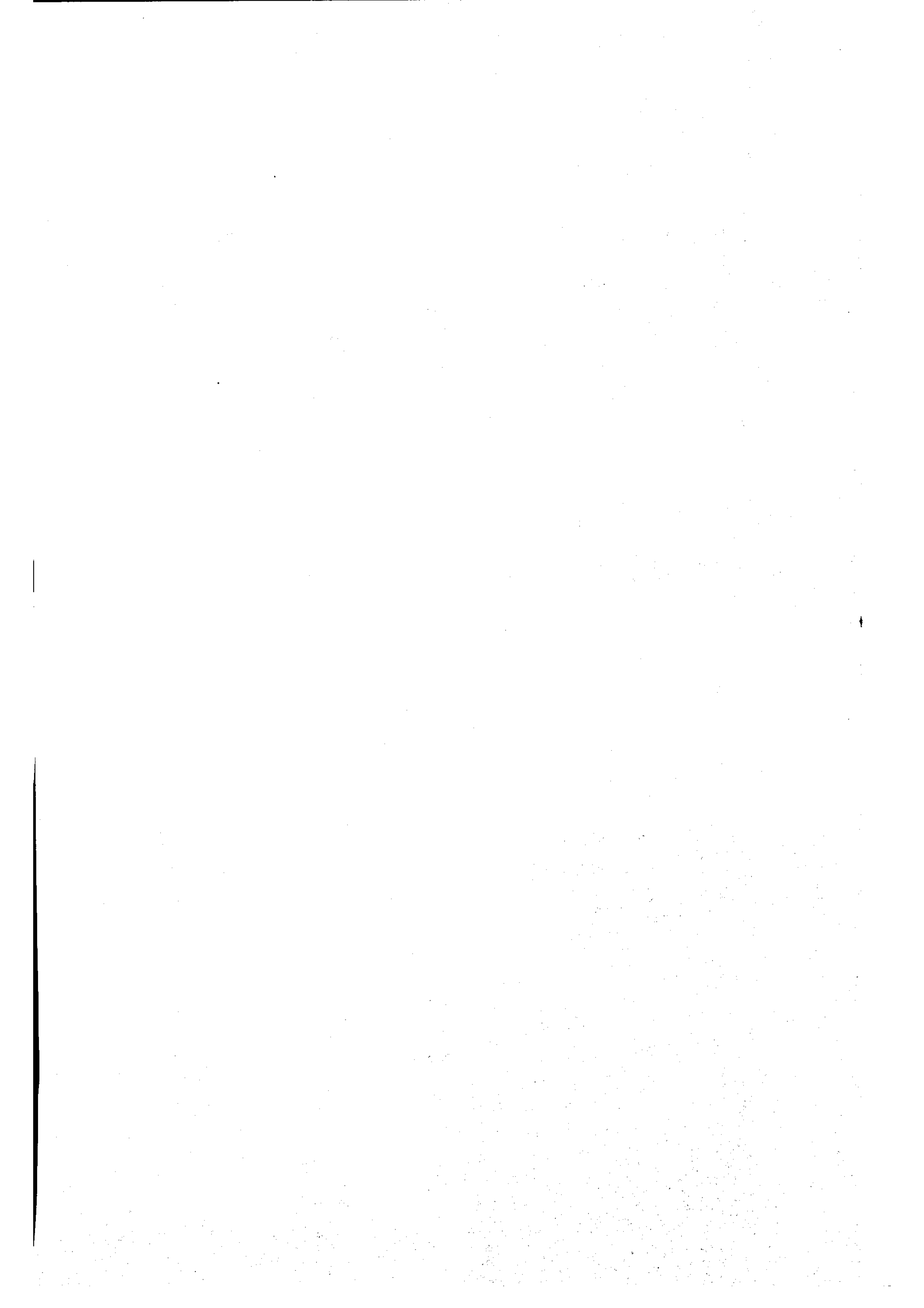
يــتفق عامــة الدارســين اللغويين على أن علم اللغة كدراسة علمية للكلام بدأ انطلاقــته الأولى مع نشر كتاب دو سوسور سنة ١٩١٦م المعنون بـــ " محاضرات في علم اللغة العام " . ومعنى هذا أن هذا الكتاب المرفق بهذا التاريخ قد وضع حداً فاصلاً بيــن فترات خلت حين كان الإنسان يولى اهتمامه لوسيلة تواصله مع الآخرين ، وهذا الميدان العلمي الجديد : اللسانيات .

فــإذا نحــن تأملــنا الدراســة اللغوية في العصور السابقة أي ما قبل ١٩١٦م وفــترات المخاض اللساني الذي أفرز هذا الكتاب نجد أن الإنسان منذ العصور الأولى كــان يولــي اهــتماماً للكلام ، وقد جمع حوله طائفة كبيرة من الملاحظات والشروح، وهكذا جاءنا موروث لغوي عظيم .



الفصل الثالث

ثوابت المنهج وعناصره



سمات التفكير العلمي :

[أ] العلمية : *Scientificness* :

العلمية أو المنهج العلمي [*Scientific method*] هو مجموعة من الإجراءات أو الأساليب التي يعتمد عليها أي باحث في دراسة ظاهرة من الظواهر، بعض هذه الإجراءات والأساليب حسي وبعضها عقلي ، وقد تتمثل الإجراءات والأساليب الحسية في الملاحظات المباشرة التي يقوم بها الباحث حول الظاهرة أو التجارب التي يجريها للتحقق من الفروض التي أقامها بناء على هذه الملاحظات ، أما الجانب العقلي فيتمثل في القواعد والقوانين التي يستنتجها من هذه الملاحظات والتجارب ، بحيث تكوّن قواعد عامة تحكم وتفسر حقيقة الظاهرة موضوع الدراسة، وما يرتبط بها أو يتفرع عنها من ظواهر أخرى، ولعل الجانب العقلي من مفهوم العلمية يأتي في المرتبة الأولى قبل الإجراءات والأساليب الحسية رغم أهميتها كما تتمثل في عصرنا الحاضر في الأجهزة والآلات الحديثة المتطورة التي يستعملها العلماء اليوم في إجراء التجارب أو رصد الملاحظات أو التحق من الفروض وغير ذلك .

ويتمثل الجانب العقلي في عمليتي التجريد والتعميم، وهاتان الكلمتان تشيران في الحقيقة إلى لب المنهج العلمي في دراسة ظاهرة ما بغية الوصول إلى القوانين العامة التي تحكم وتفسر جوانب الظاهرة المدروسة .

ذلك هو " التجريد " الذي إذا ما دخلنا مجال التفكير العلمي رأيناه شرطاً في كل فكرة علمية، فالمعرفة الجزئية وحدها لا تكون علماً؛ لأنّ الجزئية المعزولة عما عداها لا تكون من القوانين العلمية العامة التي تشملها وتشمل غيرها من بنات جنسها، ولعلنا قد لاحظنا كلمتي " معرفة " ، و " علم " حينما قلت إن معرفتنا للجزئية الواحدة لا تكون " علماً " [*Science*] ، مما يبين لك أن المعرفة بالأشياء أوسع من العلم الخاص بها، فليس كل ما نعرفه هو من قبيل العلم والعلوم، ولكن كل حقيقة علمية

ضـــرب مـــن المعرفة، فلقد تعرف خصائص تميز أباك أو أخاك أو صديقك دون سائر الناس، فلا يكون ذلك ما تقصده بعلم النفس أو بغيره من علوم الإنسان .

ومـــثل ذلـــك أيضاً في مجال " اللغة " فقد نعرف خصائص تميز لغة عن لغة كالخصـــائص التـــي تمـــيز اللغة العربية عن اللغة الإنجليزية ، فالصفة مثلاً تأتي بعد الموصـــوف فـــي العربـــية فـــي حين نجد العكس في الإنجليزية، ولكن هذا ليس هو المقصـــود بالعلمـــية في علم اللغة [***Linguistics***] وسائر العلوم الأخرى؛ لأن العلوم تجـــرد المعـــارف الجزئية من خصائصها الفردية لتصل إلى فكرة عامة تشملها جميعاً كأن تبحث عن طبيعة العلاقة بين الصفة والموصوف في اللغات الإنسانية، وهنا تصبح الفكـــرة علمية [***Scientific***] مادامت قد استندت بحق إلى ركائز من معارف جزئية أدركناها إدراكاً صحيحاً، مثل معرفة الخصائص الفردية لكل لغة من اللغات في علاقة الصفة بالموصوف فيها .

والفكـــرة المجـــردة إذا بلغناها من خلال المعرفة الجزئية وجدناها بالضرورة فكـــرة عامـــة لا تصدق على فرد واحد، أو موقف واحد، أو لغة واحدة، وإنما تصدق على مجموعة من الأفراد أو مجموعة من المواقف المتجانسة، ونقول " مجموعة " ولا نقـــول " كل " ؛ لأنّ الاستقراء الناقص هو الذي تثبت به القوانين العلمية، أما الاستقراء الكامل فمستحيل .

ومعـــنى هذا أن الدراسة العلمية للغة ليست هي المعرفة بخصائص لغة معينة أي ليســـت دراســـة للغـــة فـــردية، وإنمـــا هي دراسة الظاهرة الإنسانية المعروفة في المجـــتمعات البشرية باسم اللغة، بغض النظر عن كونها لغة قوم بعينهم لها خصائصها الفردية التي تميزها عن سائر اللغات، كما أميز قلمي هذا عن سائر الأقلام بخصائصه الفردية التي يمتاز بها .

واضح أن الهدف من وراء هذه الدراسة العلمية للغة هي الوصول إلى القوانين العامـــة التـــي تجرى عليها اللغات وتصدق عليها جميعاً بغض النظر عن خصائصها

الفــردية التـــي تمــيزها عن غيرها، فنقول هذه لغة عربية أو إنجليزية أو فرنسية أو غير ذلك .

هــذا هــو الفرق الحاسم بين الدراسات اللغوية التقليدية ، سواء عند العرب أو عــند الفيلولوجيين في أوربا، بل عند الشعوب جميعاً قبل ظهور علم اللغة الحديث بهذا المفهــوم العلمــي، إذ كانــت الدراسات التقليدية تصب اهتمامها على دراسة لغة معينة لأهــداف غــير الدراســة ذاتها أحياناً مثل تعليم اللغة أو معرفة الصواب والخطأ في الاســتعمال اللغوي أو فهم نص ديني إلى غير ذلك من الأهداف العلمية التي استبعدها علــم اللغــة الحديــث من دراسة اللغة، أو بمعنى أدق استبعدها علم اللغة النظري من اهتمامه وجعل لها فرعاً مستقلاً من فروع علم اللغة هو علم اللغة التطبيقي .

وغني عن القول إنه لولا هذه الدراسات الجزئية للغات بعينها والتي قام بها علماء اللغــة التقليديون في الشرق والغرب على السواء، ما استطاع علم اللغة أن يضع أسس الدراسة العلمية للغة،فهو بلا شك مدين لجهود هؤلاء العلماء الذين توافروا على دراسة لغاتهم بهمة لا تعرف الكلل وبشغف منقطع النظير كما فعل علماء العربية القدماء.

غــير أن علماء اللغة عندما يتحدثون عن المنهج العلمي أو العلمية في دراسة اللغــة ، لا يكــتفون بهذا الفهم لمعنى المنهج العلمي والعلمية، وإنما يضيفون إلى ذلك جوانــب أخرى في معنى " العلمية " في دراسة اللغة توصلوا إليها من مراجعة مناهج علمــاء اللغة القدماء في دراسة اللغات المختلفة، فوجدوها تفتقر إلى هذه الجوانب التي حصرها بعض علماء اللغة المعاصرين في ثلاثة أمور هي :

١- الدقة والوضوح ***Explicitness*** .

٢- المنهجية ***Systematicness*** .

٣- الموضوعية ***Objectivity*** [1] .

---

(1) D'crystal : Linguistics, penguin Books, London, 1974, PP.78-94.

هـذه الجوانب ، كما ترى ، قد تتصل بالدراسة العلمية بشكلٍ عام، سواء أكان موضوعها اللغة أم غير اللغة، إلا أن كثيراً من علماء اللغة يرون ضرورة توافرها في الدراسـة اللغويـة بصورةٍ خاصة؛ لأن الدراسات اللغوية التقليدية غالباً ما كانت تفتقر إليها .

وفـيما يتصـل بجانب الدقة والوضوح ، يضربون المثل بالمصطلحات العلمية التـي تتألف عادةً من مفردات أو عبارات خاصة ينبغي أن تحدد دلالتها بصورة دقيقة وواضـحة على ألا تختلط بغيرها من الكلمات أو العبارات التي يستعملها عامة الناس، وأهـم من ذلك أن بعض هذه المصطلحات قد تداولها لغويون وعلماء قدماء ومحدثون ينـتمون إلى مدارس لغوية مختلفة، وقد حددوا دلالتها بأشكال وطرق شتى، ولذلك لابد لمن يبحث في علم اللغة من إيضاح مثل هذه المصطلحات إيضاحاً دقيقاً لا لبس فيه .

فمـثلاً لابد أن نوضح بدقة ماذا نقصد بمصطلح صائت [***Vowel***] أو صامت [***consonant***] أو مقطع [***Syllable***] أو اسم [***Naun***] أو جملة [***Sentence***] أو كلمة [***Word***] (١).

ولـتحديد مـثل هذه المصطلحات اللغوية يفترض أولاً من وجهة النظر العلمية أننا نتمسك بأمرين :

أولهما : الثبات على المصطلح بالدلالة نفسها خلال الدراسة اللغوية بأكملها .

ثانيهما: المعايير التي يتم تحديد المصطلح بها .

الركـيزة الثابـتة الأولـى فـي المنهج توجب وضوح الإطار الذي يعمل فيه اللغـوي، والأسـس التـي يعـتمد عليها والخطوات التفصيلية التي يتبعها في البحث، والثبات عليها جميعاً طيلة المدة التي يجري فيها البحث أو الدراسة .

---

(١) Jiri,Kramsky, the Word as a Linguistic unit PP. 12-13, Mouton, The Hague, Paris, 1969.

- أمـــا الركـــيزة الثانية للمنهج العلمي والتي تسمى الانتظام والثبات فهي متصلة بالركـــيزة الأولى، ولكنها تؤكد على تنظيم العمل بشكل معين والثبات على الأسس التي يعـــتمد علـــيها، وتطبيقها بشكلٍ منظم، ليس على مظهر جانبي أو على نقطة واحدة أو نقطتيـــن لغويتيـــن ، بل على الدراسة بأسرها، بحيث تمثل النتائج التي يمكن الحصول علـــيها رؤيـــة شاملة غير مبتورة، ولكن وجهة نظر اللغويين المحدثين جميعاً هي أن اللغـــة ظاهـــرة ذات طبـــيعة فذة تختلف عن طبيعة أية ظاهرة أخرى من ظواهر هذا العـــالم، ولذلـــك فإن المنهج العلمي الذي يجب أن يطبق على دراساتها يجب أن يعدل بالشكل الذي يتلاءم مع هذه الطبيعة الخاصة للغة .

وإنـــنا إذا نظرنا إلى العلوم على اختلاف أنواعها وجدناها كلها تتجه نحو غاية واحـــدة، هي الوصول إلى حقيقة الشيء الذي تبحث فيه، وهذا يستلزم معرفة الشروط التـــي يجـــب توفـــرها في الأساليب العقلية المؤدية إلى الحقيقة، وعلماً بالأدلة التي بها يبرهن عليها، ودراسة هذه الأدلة وشروطها ومعرفة الصحيح منها والفاسد .

ومـــن هنا يتبين أن المنهج العلمي العام هو تطبيق القواعد المنطقية التي يتبعها العقل في كسبه للحقائق العلمية المنظمة؛ إذ المنهج العلمي هو أرقى مظهر من مظاهر التفكـــير المنـــتظم، فهـــو يستعمل بكل دقة جميع العمليات العقلية التي يراد بها كشف الحقـــائق وتبســـيطها مثل عمليات التحليل والتركيب والتخيل، والملاحظة ، والموازنة، والـــتجريد، والـــتعريف، والتصنيف، والتقسيم، كما يستعمل الاستدلال أو أنواع الحجج مـــن اســـتقراء وقـــياس وتمثيل. وبذلك يتمكن الباحث من اختبار كل ما يصل إليه من الآراء والنظريات ، وما يفترضه من فروض ، وما يستنتجه من استنتاجات ، وما يدلي به من حجج .

ويكـــون المـــنهج فـــي هـــذه الحالة هو الطريق الذي يسلكه الباحث في تبيان المعلومـــات والحقائق الكامنة والظاهرة وتوضيح البحث كوحدة واحدة لا انفصام فيها،

وبانســياق ثابــت ومحدد. ويكون المنهج هو المترجم للفروض والمنظم للبحث من ألفه إلى يائه .

وقــد كان روّاد علم اللغة الحديث، أو الدراسة الوصفية ينطلقون في دراساتهم من الملاحظات إلى الفرضيات، على النحو التالي:

١- ملاحظة الأحداث والمعطيات اللغوية .

٢- صياغة بعض التعليمات للأحداث المتشابهة .

٣- صياغة افتراضات تفسّر هذه الأحداث على ضوء التعليمات السابقة.

٤- التأكد من ملاءمة هذه الافتراضات للواقع اللغوي .

٥- بناء نظرية قائمة على هذه الافتراضات .

٦- اعتماد النظرية السابقة لوصف قضايا اللغة وتفسيرها[١].

أما الخصائص التي اتسم بها المنهج الوصفي، فأهمها ما يلي[٢]:

١- اعتماد معايير واحدة في تحليل التنظيم اللغوي .

٢- اعــتماد القواعــد الأكــثر وضوحاً وتبسيطاً في تبيان عناصر اللغة ووصفها وتفسيرها .

٣- شمول المستويات اللغوية [الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية] كافة، واستنفاد القضايا اللغوية بالبحث .

٤- اعــتماد الموضــوعية للتحقق من الافتراضات اللغوية، لذلك لا يتبنّى المنهج الوصفي هذه الافتراضات إلا بعد إخضاعها للتجربة والتدقيق .

٥- تــناول اللغــة علــى أنهــا موضوع من موضوعات الوصف، كالتشريح، لا مجموعــة من القواعد كالقانون . فالباحث في تشريح الجسم الإنساني لا يقول:

---

(١) ميشال زكريا: الألسنية [علم اللغة الحديث] مبادئها وأعلامها ، ص ١٤١ ، بيروت ١٩٨٠م؟

(٢) السابق نفسه ص ١٤٢ ، ١٤٣ .



يجب أن يكون العظم الفلاني بهذا الموضع، أو يجب أن يكون العضو الفلاني بهذا الحجم أو الوزن أو الصورة، إنما يشرح شرحاً وصفياً موضوعياً ما يقع تحت نظره، وهكذا على الباحث في اللغة أن يذكر خصائصها دون أن يحكم بأن هذا القول جائز، وذلك لا يجوز؛ لأنّ همّه وصف الحقائق لا فرض القواعد[1].

٦- اختيار مرحلة بعينها لوصفها وصفاً استقرائياً، واتخاذ النواحي المشتركة بين المفردات الداخلة في هذا الاستقراء، وتسميتها قواعد . فالقاعدة في الدراسة الوصفية ليست معياراً،وإنما هي جهة اشتراك بين حالات الاستعمال الفعلية[2].

والفكرة الرئيسة في قانون البحث العلمي هي أنه لا سابق دون لاحق ولا لاحق دون سابق . لنأخذ على سبيل المثال عالم اللسانيات الأمريكي – نوم تشومسكي – فسوف نجد برهاناً على ما نقول، فعلى الرغم من أن هذا العالم قد رفض كل شيء أتت به البنيوية ، ولكنه في صميم أعماله التوليدية والتحويلية إنما هو بنيوي . إن ما فعله تشومسكي هو أنه قلب البنيوية رأساً على عقب وأتى بشيء جديد لم تلتفت إليه البنيوية وهو دراسة " اللغة " على أنها ظاهرة " فيزيائية – رياضية – آلية – بيولوجية " تعمل داخل الدماغ البشري .

ولا نريد هنا أن نسترسل في وجوه الخلاف بين المنهجين وأصحابهما، ولكننا يجب أن نعترف بأن ما قدمته هذه المدرسة اللغوية من خدمات وما طلعت به علينا من نظرات عميقة جداً للنظام اللغوي الكامل، قد فاقا كل ما قدم في التاريخ حتى الآن، وهذا ما ترف به جميع علماء اللغة المعاصرين مهما اختلفت اتجاهاتهم كما يعترف به علماء آخرون كثيرون من ذوي الاهتمامات المختلفة ، كما أن أبحاث هذه المدرسة لم

---

(1) انظر د/ تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٦ وما بعدها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨م .

(2) السابق نفسه ، ص ٢٦ .



تنقطع أبداً ويساهم فيها معظم اللغويين المعاصرين. ولذلك فإنا نعتقد بأن الهوة الظاهرة الآن بيـــن موضوعية المنهج العلمي الذي يعتمد على التجريب المتجرد، وبين ما يبدو مخالفاً لذلك في منهج هذه المدرسة .

وهـــذه الشروط صعبة التحقيق من الناحية العملية، ولكن يحسن بكل باحث أن يضـــعها نصـــب عينيه ويطبقها بقدر ما تسمح به الطاقة في طريقة بحثه عن أية حقيقة من الحقائق العلمية .

والتفكـــير العلمـــي هـــو التفكـــير المـــنظم الذي يلزم توظيف سماته في إنتاج الموضـــوعات وجمـــع مادتها وتنظيمها وتصنيفها ومناقشتها وعرضها على الدراسات السابقة في التخصص نفسه لاستخلاص آراء جديدة والوصول إلى نتائج تتناسب معها.

الوضوح :

الوضوح شرط ضروري في كل مراحل البحث اللغوي جمعاً وتصنيفاً وتقعيداً، وهو ضروري أيضاً حين يختار الباحث النظرية التي على هداها يقوم بالعمل، فينبغي أن تكون أسس هذه النظرية واضحة، وينبغي أن يكون واعياً بالاعتبارات التي استند إليها عند اختياره لها .

ويجـــب أن تكـــون المـــادة مســـتوفاة وملاحظتنا شاملة ، بحيث لا يفوتنا من موضوع البحث شيء .

ويجـــب أن تكـــون الغاية من البحث واضحة جلية؛ لأن غاية البحث إذا كانت غامضة تخبّط الباحث شر تخبط، وأضاع وقته ومجهوده .

أمـــا الغاية من أي بحث علمي فيعينها علمنا السابق بالمسائل المتصلة به، لأن العلـــم بـــبعض الشيء يلقي ضوءاً على النواحي المجهولة فيه، ويعين المسائل التي لا تزال تتطلب الحل .

والحقـيقة التـي ينبغي مراعاتها هي أنه ليست هناك مناهج تصلح لكل شيء، وإنمـا هـناك مبادئ عامة وأصول فنية يكوّن منها الباحث المنهج المناسب لموضوعه حتى تتجه خطته اتجاهاً سليماً رشيداً نحو غاية محددة ونتائج صحيحة .

يعـتمد الوضوح على عدة أمور تشترك فيها الدراسات العلمية جميعاً كوضوح الفرضـيات التي يعتمد عليها البحث، ووضوح الخطوات المتوسطة وخاصة إذا كانت هناك فرضيات أخرى تعتمد عليها .

فهـنالك مشكلة المصطلحات أو التعابير الفنية التي تتألف عادةً من مفردات أو عبارات خاصة ينبغي أن تحدد معانيها بشكل دقيق وواضح للغاية حتى لا تلتبس مع ما يمكن أن يفهم منها عند استعمالها استعمالاً عادياً بين عامة الناس .

وتحديد معاني هذه المصطلحات الفنية يفترض أننا نتمسك بأمرين :

أولهمـا : هو الثبات على المصطلح المعين بالمعنى نفسه خلال البحث اللغوي بأكمله . **وثانيهما** : يتعلق بالمعايير التي يجري تحديد معنى المصطلح بموجبها .

ومـن الأمـثلة التـي تعطى عادةً على معايير غير دقيقة أو غير علمية؛ لأنها تعـتمد على مفاهيم غامضة ذلك التعريف التقليدي للجملة بأنها " مجموعة من الكلمات تتألف من مبدأ وخبر وتؤدي معنىً تاماً " .

فهـذا الـتعريف يعتمد أولاً على مفاهيم يجب أن تكون محددة سلفاً مثل مفاهيم " الكلمـة – المبـتدأ – الخبر – المعنى التام " ، وهي من المفاهيم التي يعسر تحديدها، ولكن لا يجوز أن تؤخذ كمسلمات يعتمد عليها أي تعريف يقصد به التحديد والتوضيح. أما الأمر الآخر في هذا التعريف فهو أنه يعتمد على نوعين من المعايير :

المعـيار الأول : لغـوي ، أي أن له علاقـة مباشرة باللغة، أو يعتمد على اللغة نفسها بشكلٍ رئيس .

المعيار الآخر : وهو " المعنى " ، فيعتمد على العالم الخارجي ، أي الخارج عن نطاق اللغـــة نفسها؛ لأن المعنى بالمفهوم العام هو العلاقة بين اللغة والعالم الخارجي. بالإضـــافة إلـــى ذلـــك فإن التعريف يدور حول نفسه، أي أننا إذا سألنا أنفسنا السـؤال التالـــي : إذا كانـــت الجملة تؤدي معنى تاماً، فما هذا المعنى التام ؟ وســـتكون إجابتنا في الغالب : المعنى التام هو ذلك المعنى الذي تؤديه الجملة . وهكذا نجد أنفسنا ندور في حلقة مفرغة .

ومـــن أمـــثلة اســـتعمال المعايير المختلفة لتعريف المصطلح نفسه على أيدي مدارس لغوية عربية مختلفة، تعريف أجزاء الكلام .

فهم جميعاً متفقون على تقسيم الكلام إلى ثلاثة أجزاء : الاسم والفعل والحرف. إلا أن المعايـــير التي وضعها اللغويون القدماء لتحديد كل جزء من هذه الأجزاء الثلاثة تخـــتلف مـــن مدرسة إلى أخرى . فنجد مثلاً أن ابن مالك يميزها في ألفيته المشهورة باستعمال معايير لغوية شكلية، أي لا علاقة لها بالمعنى فيعرف الاسم بأنه : تلك الكلمة التـــي تجر بحرف الجر وتنون وتسبقها " ال " التعريف وتقع مسنداً إليه كما تقع منادى في الجملة .

وجميع هذه المعايير صرفية نحوية، أي لغوية تتعلق بشكل الكلمة وما يمكن أن يطـــرأ عليها من تغييرات، كما تتعلق بالوظيفة التي يمكن أن تؤديها الكلمة في الجملة . كما عرّف ابن مالك الفعل بالطريقة نفسها وعدّ الحرف ماعدا ذلك .

وهـــذه المعايـــير شـــبيهة جـــداً بتلك التي استعملها أنصار المدرسة الوصفية التشكيلية الحديثة في أمريكا وأوروبا ، ولكن نحويين آخرين من العرب اتخذوا المعنى معـــياراً لتعاريفهم فقالوا : " إن الاسم هو ما دل على مسمى، والفعل ما دل على حدث وزمن، والحرف ما ليس كذلك ".

وقـــس على ذلك مصطلح الجملة الاسمية والجملة الفعلية، فالجملة الفعلية ليس بالضـــرورة أن تبدأ بفعل، وإنما يعتمد الإسناد فيها على ركن اسمي يقوم بوظيفة الفعل

ويعمل عمله كالمصادر والمشتقات وأسماء الأفعال، لكنّ هناك دراسات تعد الجملة التي تبدأ باسم فعل جملة اسمية؛ لأن صيغة اسم الفعل صيغة اسمية على حين أن معناه هو معنى الفعل وزمانه هو زمن الفعل ، فأحياناً نستعمل معياراً شكلياً أي الصيغة في التصريف وفي أحايين أخرى نعتمد على المعنى وهو معيار آخر .

الموضوعية :

المقصود بالموضوعية في التفكير العلمي التزام الباحث بالشروط التي تجعله متفقاً مع العلماء فيما قرروه، ويأتي على رأس تلك الشروط التخلي عن التحيز خلال استعمال لغة ملائمة تعبر عن الحيدة والموضوعية في عرض الآراء والأفكار المختلفة، والالتزام بتصحيح إحساساته وتعديلها وتنظيمها، والتجرد والنزاهة وتجنب كل حكم من أحكام القيمة، والابتعاد عن الأهواء الشخصية والرغبات والميول والآراء المسبقة .

وتؤدي الموضوعية في البحوث اللغوية إلى الدقة في صياغة الآراء والتعبير عن الأفكار والاستنتاج السليم والملاحظة الواعية والقدرة على التفسير والتنسيق والتنظيم . ولا تمنع الموضوعية الباحث في اللغة من التدخل للتعبير عن آرائه واجتهاداته والاستدلال السليم على بعض النتائج المترتبة على البحث .

ومن هنا كان الائتلاف بين هذه الأشتات؛ لكونها خالصة العروبة، وخاضعة في النظر والدرس لمنهج واحد هو منهج الوصف القائم على تسجيل الواقع في إطار سياقه وطبيعته، بالنظر الواعي والمعالجة اللغوية الصِّرفة .

تراكمية العلم وتنظيم المادة :

لا يجوز في التفكير العلمي أن نترك أفكارنا تسير حرة طليقة دون تخطيط أو تدبير، أو تمضي بطريقة أقرب إلى التلقائية والعفوية، بل لابد من العمل بطريقة منهجية منتظمة، مع بذل أقصى مجهود من أجل الوصول إلى أفضل تخطيط ممكن للطريقة التي نفكر بها، وهذا يتأتى في ضوء الوعي التام الذي ينظم أفكارنا وينسقها وينظمها .

والتنظيم الذي يعد من سمات التفكير العلمي وخصائصه يصنعه العقل البشري، ويبعـــثه في العالم بفضل جهده المتواصل الدءوب في اكتساب المعرفة، وهو يتأتى عن طـــريق اتباع " منهج " *Method* ، أي طريق محدد يعتمد على خطة واعية، والمنهج والعلم وجهان لعملة واحدة؛ حتى إننا نستطيع تحديد العلم ووصفه بأنه " معرفة منهجية" ؛ لذلك نجد فيلسوفاً ذا عقلية علمية جبارة مثل " ديكارت " يستنتج أن العلم ووصفه بأنه " معـــرفة منهجية " ؛ لذلك نجد فيلسوفاً ذا عقلية علمية جبارة مثل " ديكارت " يستنتج أن العلم ليس إلا منهجاً؛ لإيمانه الشديد بأهمية المنهج في العلم .

وتصـــف التراكمية الطريقة التي يتطور بها العلم ويعلو بها صرحه، وهي تدل علـــى أن " المعـــرفة العلمية " تتغير باستمرار، ويطرأ عليها الكثير من التطور، وحين تظهـــر نظـــرية جديدة يؤدي ذلك إلى إلغاء النظرية السابقة عليها، وتحويلها إلى شيء يهتم به المشتغلون بتاريخ العلوم .

وإذا كانـــت صفة التراكمية تنطبق على المعرفة العلمية، فإن الأمر يختلف مع المعرفة اللغوية ، بمعنى أن كل نظرية أو منهج جديد يظهر في علم اللغة ليس مقطوع الصلة بما سبقه من النظريات والمناهج، بل لابد من معرفتها والإلمام بها والإشارة إلى ما تضيفه النظرية أو المنهج الجديد، وربما يوضح اللغوي أو اللغويون جوانب القصور أو الضعف عند السابقين عليهم .

وقد استطاع علم اللغة الحديث بفضل جهود رواده الأوائل وإضافات العلماء اللاحقين أن يجعل من دراسة اللغة علماً ***Science*** مثل بقية العلوم؛ وذلك بفضل المناهج التي استطاع التوصل إليها، والتي يصيبها التطور والتجديد والإضافات المستمرة على الدوام، ولكن يظل الباحث المعاصر مطالباً بمعرفة تلك المناهج، واختيار أحدها للتطبيق في اللغة، وربما يختار أكثر من منهج ، وهذا يرتبط بطبيعة الموضوع أو الظاهرة أو القضية التي يدرسها ويحللها، ويحاول التوصل إلى القوانين التي تضبطها، والنظرية اللغوية العلمية التي تحددها وتوضحها وتقننها .

ولابد في " البحوث اللغوية " من وجود أمرين على قدرٍ كبير من الأهمية ، أولهما : استقراء الحقائق الجزئية ، وثانيهما: استنباط الحقائق الكلية والقضايا العامة. والمقصود بذلك أن البحث في اللغة يقوم على أساس استقراء موضوع البحث والدرس، وهذا يتطلب من الباحث القيام ببعض " الإجراءات " يأتي على رأسها جمع النصوص والشواهد والجمل والعبارات الافتراضية، ثم تصنيفها وفقاً للموضوعات المتصلة بالبحث .

ويجب على الباحث الاحتياط حين جمع المادة؛ لأن الاستقراء لا يعني أن تكون مادة البحث خليطاً من الحقائق المفيدة وغير المفيدة، بل لابد من الانتقاء والاختيار والانتخاب القائم على الدقة والتروي .

وهكذا يمكن القول بأن صفة التنظيم تحتل مكانها عند نقطة بداية البحث العلمي، حيث تتمثل في اتباع العلم لمنهج منظم، وكذلك عند نقطة نهاية هذا البحث، عندما يكوّن العالم من النتائج التي يتوصل إليها نسقاً مترابطاً يستبعد أي نوع من التنافر داخله .

يمتاز العلم بأن حقائقه يرتبط بعضها ببعض في بناء نسقي؛ فليس العلم مجموعة مفككة أو مبعثرة من الحقائق أو القوانين التي لا ترابط بينها، بل هو مجموعة حقائق منظمة تنظيماً يسمح لنا بأن نستنبط بعضها من بعضها الآخر، أو أن نفسر

بعضـــها ببعضها الآخر، وهذا ما يسمح لنا بالتنبؤ، فما التنبؤ إلا استنباط حالة مستقبلية من حالات سابقة أو استنباط هذه الحالة من مبدأ أو قانون عام وصلنا إليه . وبدون هذا التنظيم النسقي لا يقوم علم، ومهما تكدست الحقائق فإنها لا تكوّن علماً(١).

يـــبدأ العالم بحوثه دائماً من حيث انتهى العلماء السابقون وعندما ينتهي هو يبدأ العلمـــاء اللاحقـــون، وعلى هذا يتطور العلم ويتقدم، ويكون البحث متصلاً . ومن أجل ذلـــك يجـــب على العالم أن يطلع على جميع البحوث العلمية التي تم إنجازها في مجال تخصصـــه، وعلـــى آخر ما وصل إليه العلماء قبل أن يبدأ بحثه، حتى لا يبدأ من نقطة بدأ منها غيره، وحتى لا ينتهي إلى ما انتهى إليه غيره، فلا يعمل على تقدم العلم(٢) .

ولهذا وجب على كل باحث وعلى أي بحث أن يضع بنداً في مقدمة هذا البحث بعـــنوان الدراســـات السابقة، وبنداً آخر بعنوان أهداف البحث والبندان يسهمان معاً في بيان من أين بدأ هذا البحث؟ وإلى أي مدى سينتهي؟ وماذا سيحقق؟ .

الدقة والتجريد :

لا يكـــوّن النشـــاط العقلي للإنسان علماً بالمعنى الصحيح إلا إذا استهدف فهم الظواهـــر وتعلـــيلها، ولا تكـــون الظاهرة مفهومة بالمعنى العلمي لهذه الكلمة، إلا إذا توصـــلنا إلى معرفة أسبابها، وتمكننا تلك المعرفة من أن نتحكم في الظاهرة على نحو أفضل،ونصل إلى نتائج عملية أنجح بكثير من تلك التي نصل إليها بالخبرة والممارسة.

ويـــؤدي البحـــث عـــن الأسباب إلى التوصل لما يمكن أن نسميه بدقة التفسير للظواهـــر الـــنحوية والقضايا اللغوية، وما يزال الباحث يدرس العلل والأسباب الفرعية حـــتى ينتهـــي فـــي الظاهرة أو القضية إلى أسباب وعلل عامة، تضم حقائق الظاهرة الجزئية وتفسيرها تفسيراً دقيقاً .

---

(١) انظر د/ محمد السرياقوسي : التعريف بمناهج العلوم ص ٧٠ .

(٢)د/زكي نجيب محمود: المنطق الوضعي ٢/ ١٤ وما بعدها، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤،١٩٦٦م.

ويتطلب البحث في اللغة والنظر في قضاياها ودراسة مشكلاتها دقة الصياغة حين التعبير عن الأفكار المختلفة، ووصفها بطريقة تجريدية دون أن ننساق وراء الأحكام المعيارية أو الجمالية؛ لذلك من غير المقبول في البحوث اللغوية وصف أحد أبيات الشعر بالجمال أو القبح بالجودة أو الرداءة دون أن نقدم الخصائص التركيبية التي تعلل هذا كله .

وعلى الرغم من وجود بعض الأحكام المعيارية عند النحاة العرب منذ المراحل الباكرة فإن تلك الأحكام كانت تعلل في ضوء قواعد التركيب النحوي للجملة العربية[1].

لهذا صرفت النظرية اللسانية همها عن طريق التجريد والتعميم إلى كل ما هو عام ومشترك في إطار ما سمي باللسانيات التقريرية ***Deterministic Linguistics*** ، ولمّا كان التنوع حقيقة واقعة في السلوك اللغوي وجوهراً ثابتاً في حقها – اطلعت بدراسته مجموعة من علوم اللسان حملت اسم اللسانيات الاحتمالية ***Probabilistic Linguistics*** ، وكانت الأسلوبية من بين أهم هذه العلوم .

على أن النظرية اللسانية حين ضحت – عن اختيار منهجي – بالتنوع اللغوي في إطار اللسان الواحد إنما فعلت ذلك لانصرافها إلى نوع آخر من التنوع لا مفر من اعتباره حين تكون الاستراتيجية البحثية منصرفة إلى تفسير الظاهرة اللسانية، ونعني به تنوع ما صدقات الظاهرة اللسانية إلى شفرات لغوية مختلفة كالإنجليزية والعربية والروسية وغيرها، بما هي تجليات لقدرة واحدة ينماز بها الإنسان من سائر الخلائق، وبما هي موضوعات لعمل العقل البشري وآلياته في الكسب والاختزان والاستدعاء والابتكار والتوظيف، ويجهد الباحث للوصول من خلال هذا التنوع إلى الجوامع اللسانية ***Linguistic Universals*** المائزة للسان بما هو خاصة للإنسان .

---

[1] انظر الفصل الثالث بعنوان [نصوص ومعايير] من كتابنا المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، ط دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ١٩٩٤م .

التنبؤ والتحكم :

لا يقف فلاسفة العلم كثيراً عند التنبؤ، ليس لضآلة أهميته ، بل لأنه الوظيفة أو المهمـــة أو الهــدف الذي لابد أن يتحقق إذا ما كان المشروع العلمي ناجحاً، فليس له أوصـــاف أو شـــروط محـــددة عن وظائف العلم الأخرى بخلاف الشروط التي ينبغي توافـــرها فـــي الوصف والتفسير . فالتنبؤ أو إمكان التنبؤ ***Predictablity*** هو الحصاد الأخير للوصف والتفسير .

ويقــول رايشـــنباخ إن المعرفة العلمية هي أداة التنبؤ، أي أن وظيفة العلم هي التنـــبؤ[١] ، ويســـمى فلســـفته للعلـــم باسم " الفهم الوظيفي للمعرفة " ، بحيث لا تشير المعرفة إلى عالم آخر، وإنما تقدم عرضاً للأشياء في هذا العالم، بغية أداء وظيفة تخدم غرضـــاً، وهو التنبؤ بالمستقبل ، وهو بذلك يضع المبدأ الوضعي وهو " القابلية للتحقق في صيغة جديدة " .

والهـــدف المباشـــر للتفكير العلمي هو إقامة تنبؤات صحيحة لحوادث الطبيعة، والمحـــك الوحـــيد لصحة النماذج العلمية التي يقدمها تاريخ العلم أو مجالاته هو التنبؤ الناضج[٢].

يعـــد الـــبعض التحكم الوظيفة الرئيسة للمنهج العلمي فما يميز رجل العلم عن غيره هو إيثاره للتحكم فهو المعيار الأصيل للعلم .

والـــتحكم والتنبؤ لديه يستعملان بمعنى واحد؛ لأن التنبؤ بتكرار وقوع ظواهر معيـــنة إنمـــا هو التحكم في ذلك التكرار في الوقوع إذا ما كان من الممكن إعادة بناء الظـــروف التـــي وقعت في نطاقها تلك التكرارات . ولا يلزم أن يكون التحكم فعلياً في

---

(١) M.Walker, the Nature of Scientif though, preface, P122, Hall, New Jersey, 1963.

(٢) المرجع السابق : المقدمة .

جميع الأحوال، ويكفي أن يكون تحكماً فرضياً ***Hypothetical*** إذا ما تعذر بناء الظاهرة بصورة عملية(١) . ويعني التحكم بذلك معالجة الظروف المحددة للظاهرة لكي تحقق تفسيراً معيناً للتنبؤ بمسارها ، أو تحقق وصفاً منضبطاً يتنخل كافة الظروف أو الشروط ليستبعد ما هو عارض، ويبقى على ما هو جوهري ملائم لهذا الوصف .

ويؤيد هذا المعنى ما ذهب إليه " هايزنبرج " من أن ما نسميه بالعالم الموضوعي هو من صنع تدخلنا النشط وطرق مشاهداتنا المتطورة ، وتجاربنا ليست كما يقول هي الطبيعة نفسها، وإنما هي الطبيعة بعد أن تغيرت وتبدلت باجتهادنا في سير البحث(٢).

وعلى أية حال ، فوظيفة التحكم تتعلق بقابلية معالجة موضوعات البحث التي تخضع للمنهج العلمي لإجراء المشاهدات والتجارب، وتطبيق الاستدلالات المنطقية عليها .

ويفترض هذا أن المنهج العلمي ليس أداة تسجيل أو مرآة عاكسة لموضوعات البحث ، وكأنها " أشياء قائمة هناك " ، بل يعني أن المنهج العلمي مركب مؤتلف من موضوعات الملاحظة، والقائمة بالملاحظة أي رجل العلم معاً على السواء .

الملاحظة والتجريب :

" الملاحظة " من الألفاظ التي لا يمكن تعريفها تعريفاً دقيقاً ؛ لأن أي تعريف لها سيتضمن لفظاً مرادفاً لها أو يتضمن اللفظ نفسه، ولكن يمكن الإشارة فقط إلى معناها حين نقول مثلاً : إنها توجه الحواس والانتباه إلى ظاهرة معينة أو مجموعة من

---

(1) H. Becker, through values to Social Interpretation PP. 185-290, Duke University Press, Durham, 1950 .

(٢) ف. هايزنبرج: المشاكل الفلسفية للعلوم النووية، ص ٧٢-٧٣، ترجمة د. أحمد مستجير، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م .

الظواهـــر رغبة في الكشف عن صفاتها أو خصائصها توصلاً إلى كسب معرفة جديدة عن تلك الظاهرة أو الظواهر .

والملاحظـــة، ســـواء أكانت بحتة أو مع التجربة العلمية، هي توجيه الفكر إلى شـــيء من الأشياء أو صفة في شيء أو خاصية فيه بقصد معرفة حقيقته ، وللملاحظة غرضان :

الأول : إشـــباع الرغـــبة الطبيعـــية التي في الإنسان ، وهي حبه الوصول إلى حقيقة الأشياء .

الثاني : الانتفاع بنتائج الشيء الملاحظ في الحياة العملية .

ولـــيس المـــراد مـــن توجيه الفكر إلى الشيء الملاحظ مجرد مشاهدة الأشياء، وتأثـــر الحواس بما يصل إليها من المؤثرات الخارجية من أضواء وأصوات ومذوقات ومشـــمومات، بل الملاحظة عملية من عمليات العقل، أو مجموعة من العمليات العقلية، نُجمل عناصرها فيما يأتي :

أولاً : توجـــيه الانتـــباه إلـــى ناحية خاصّة أو صفة خاصة من صفات الشيء الملاحظ وإهمال ماعداها .

ثانـــياً : إدراك لمعـــنى الأثـــر الذي تنقله الحواس بعد حصر الانتباه فيه، ويكون ذلك الإدراك بـــتأويل ذلـــك الأثر على ضوء الخبرات السابقة التي كسبها العقل في حياته .

ثالـــثاً : استنتاج ما يمكن استنتاجه بعد تأويل المدركات الحسية، وبعد إدراك العلاقات المخـــتلفة التي بين الشيء الملاحظ وغيره من الأشياء والباحث في كل خطوة من هذه الخطوات الثلاث عرضة للخطأ .

فقـــد يوجـــه انتـــباهه إلى جهة غير مهمة، ويهمل الجهات المهمة من الشيء الملاحـــظ . وقـــد يخطئ في إحساسه، فتنقل الحواس ما ليس موجوداً بالفعل في العالم

الخارجـــي . وقــد يخطئ في إدراك الشيء المحسوس فيؤوله على غير حقيقته . وقد يخطئ في استنتاجه فيستدل استدلالاً خاطئاً، غير مستند إلى أساس صحيح .

والملاحظـــة والتجربة أمران متتامان، ومن طبيعة واحدة، فليست الأولى سلبية بيـــنما الثانـــية إيجابية، بل هما إيجابيتان، ويمثلان تدخلاً عقلياً لتنسيق عناصر الظاهرة المبعثرة المتناثرة.

وفـــي الملاحظـــة يـــتفاوت تدخل العقل بتفاوت القدرات والإمكانيات، وليست العـــبرة في تكدس الملاحظات وتسجيلها ، بل بالقدرة على تنسيقها وربطها، وتفسيرها تفســيراً صـــحيحاً للإفـــادة منها في الفهم والكشف، وقد يرجع قصور الملاحظة غير العلمية عن فهم الظواهر وكشف العلاقات بينها إلى أنها ملاحظة غير موجهة كما أنها ترى الظواهر منفصلة عما عداها .

وأمـــا الـــتجربة فهي ملاحظة الظاهرة بعد تعديلها تعديلاً كبيراً أو ضئيلاً عن طـــريق التحكم في بعض ظروفها واصطناعها [1] . فإذا كان البحث بمثابة مشكلة يراد لهـــا الحـــل، فـــإن الملاحظة تقوم بتحليل المشكلة ووصفها وصياغتها، وتقوم التجربة باقـــتراح الحـــل وتدبـــير ظروفه، ثم تأتي الملاحظة في النهاية لتساهم في إثبات كفاءة الحـــل وتقدير قيمته . والملاحظة في حاجة إلى أدوات من الحواس والعقل على السواء لتحديد عناصر التجربة ومعالجة الوقائع .

وإذا كـــان مفهوم التجريب يرتبط بالملاحظة والاستقراء، فإن علينا أن نميز – كمـــا يقول فلاسفة العلم – بين التجارب الإدراكية ومنطوقات الملاحظة التي يتحتم أن تصـــاغ في لغة نظرية . ومعنى هذا أن النظرية ينبغي أن تكون حاضرة في الملاحظة تختـــبرها وتنـــيرها . وتصـــبح الملاحظـــات الجديرة حقاً بالتسجيل هي تلك المتعلقة

---

(1) د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٧٩، الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٣م .

بالـنظرية على وجه التحديد . " غير أنه مادامت النظريات التي تشكل معرفتنا العلمية قابلــة للخطــأ أو ناقصــة دائمــاً، فإن الكيفية التي توجهنا بها إلى معرفة الملاحظات الملائمــة للظاهرة المدروسة قد تكون مصدر أخطاء ، غير أنه يمكن حل هذا المشكل بتحسين نظريتنا وتوسيعها لا بتراكم قائمة من الملاحظات التي لا هدف لها "[1].

وبــدون موضوع لا يمكن أن تكون الملاحظة هادفة وجادة؛ لأن الموضوع هو الإطــار العــام الذي تتبلور فيه الأفكار، وتستنبط منه الفروض مما يجعل الملاحظة أو المشاهدة مترسخة في الموضوع ومنطلقة منه ومثيرة له .

ولكــي تكــون الملاحظة صحيحة النتائج يجب أن تكون شديدة التنوع، كثيرة التعقــيد، بالغــة الدقة ما أمكن، فنحاة العرب الأوائل لم يقرروا أن العربية ترفع الفاعل وتنصــب المفعــول لمجــرد سماعهم جملة واحدة من عربي واحد، بل إنهم استقرءوا معظم الكلام العربي، فلما رأوا اطراد هذه الظاهرة وضعوا قاعدتهم .

ويتسع مجال الاستقراء اتساعاً بالغاً عندما ننتقل من مستوى فقه اللغة الوصفي للسان من الألسن إلى مستوى فقه اللغة العام لاستنباط القوانين العامة للغة، فعند ذلك لا تكفــي ملاحظــة لسان واحد – وهو الخطأ الذي وقع فيه علماء العرب والإغريق من قــبل- بــل لابد من ملاحظة كل الألسن في العالم، ما كان منها حياً لا يزال في أفواه البشر، وما اندثر منها فلم نعرفه إلا في النصوص والآثار .

ومــن أبرز ما يؤخذ على منهج الملاحظة أن آلته الوحيدة التي يستعين بها هي الأذن ، وهذا العضو لا يملك من الدقة ما تملكه أجهزة القياس الحديثة. هذا إلى أنه من الســهل خــداع الأذن فــي كثــير من الأحيان ، كما أنها شديدة التأثر بالحالة النفسية للملاحظ، ويكثر أن تخدعه فتسمعه ما يريد أن يسمع، لا ما هو حادث في واقع الأمر.

---

(1) آلان شالمرز : نظريات العلم ، ترجمة الحسين سحبان ، وفؤاد الصفا، دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٩١م ، ص ٣٤ – ٤٤ .

وطـــريقة الملاحظـــة المباشرة هي التي لا يلتجأ فيها إلى التجارب ولا تستعمل فـــيها الأجهزة، بل يقتصر فيها على ملاحظة الظواهر اللغوية في حالاتها العادية، ولا يستعين فيها الباحث بغير حواسه وقواه العقلية .

وفـــي هذه الطريقة يشترك علم اللغة مع عدد كبير من العلوم الأخرى وبخاصة العلـــوم الطبيعية، وتعد أقدم طريقة استعملها الباحثون في علم اللغة، ولا تزال إلى الآن مـــن أهم طرقهم، وإليها يرجع الفضل في معظم ما وصلوا إليه . فعلى ضوء الملاحظة اســـتطاعوا أن يقســـموا الظواهـــر اللغويـــة إلى أقسام متميزة، ويرجعوها إلى طوائف محـــددة، ويردوا الفروع إلى أصولها، فنظمت بذلك موضوعات العلم، ونسقت فروعه، وسهلت دراسته .

وتنقسم الملاحظة أقساماً كثيرة باعتبارات مختلفة :

فتنقسم باعتبار نوع الظواهر اللغوية التي يعالجها إلى قسمين :

[أ] ملاحظة صوتية[*Phonatic*] : وهي ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالصوت.

[ب] ملاحظة دلالية[*Semantic*] : وهي ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة .

وتنقسم الملاحظة باعتبار نوع اللغات التي يتناولها البحث إلى قسمين :

[أ] ملاحظة اللغات الحية .

[ب] ملاحظـــة اللغـــات الميتة : وتتحقق بالرجوع إلى ما وصل إلينا عنها في المؤلفات والوثائق والآثار .. وما إلى ذلك .

وتنقسم الملاحظة كذلك باعتبار تعلقها بشخص الملاحظ أو بغيره إلى قسمين :

[أ] الملاحظة الذاتية [*Subjective*] : وهي أن يلاحظ الباحث ما يصدر عنه هو من ظواهـــر لغويـــة، ويدون ملاحظاته، ويحللها ليصل على ضوئها إلى تحقيق ما يرمي إليه .

[ب] الملاحظة الخارجية [*Objetive*] : وهي ملاحظة الباحث لما يصدر عن شخص آخـر مـن ظواهـر لغويـة دون أن يكون لهذا الشخص الآخر أي دخل في الملاحظة .

وتنقسم الملاحظة الخارجية نفسها إلى قسمين أيضاً ، هما :

[أ] ملاحظـة خارجية سلبية [*Passive*] : وهي التي يترك فيها الملاحظ على حالته الطبيعية، بأن يقتصر الباحث على الاستماع إليه وهو يتحدث حديثاً عادياً.

[ب] ملاحظـة خارجية إيجابية [*Positive*] : وهي ما يعمل فيها الباحث على توجيه الشـخص الذي تجري عليه الملاحظة وجهة معينة بأن يلقي عليه أسئلة خاصة في الموضوعات التي يهمه بحثها، ليصل على ضوء إجاباته إلى الوقوف على ما يعنيه الوقوف عليه .

هذا ، وقد أخذ علماء اللغة على طريقة الملاحظة بمختلف أنواعها مآخذ كثيرة، وتبين لهم نقصها في كثير من الشؤون .

فمثلاً هناك ظواهر لغوية كثيرة لا يمكن فيها مطلقاً الملاحظة الذاتية، ومن ذلك : الظواهـر اللغوية في أدور الطفولة الأولى، وذلك لأن الطفل لا يشعر بما يصدر عنه وما يقوم به من ظواهر لغوية شعوراً دقيقاً، ولا يستطيع أن يصفه وصفاً يعتد به .

الفرضية :

إن رحلة تكوين الفروض مرحلة أساسية بعد مرحلة الملاحظة والتجربة، وأول مرحلة من مراحل البحث الاستقرائي هي مرحلة ملاحظة الوقائع والظواهر والحوادث أو إجـراء الـتجارب علـى مـا من شأنه الوصول إلى الوقائع والظواهر والحوادث موضـوع البحـث، ولكن لا قيمة لتكديس تلك الملاحظات والتجارب أو مجرد وضع قائمـة بهـا؛ لأنـنا حين نقوم بتلك الملاحظات والتجارب نقوم بها بقصد الوصول إلى

قانون عام يفسر مجموعة معينة من الظواهر أو الوقائع . تسجيل واقعة ما ليس كل ما نسعى إليه، ولكنا نسعى أيضاً إلى تفسيرها، والقانون العام هو ذلك التفسير .

ومـــرحلة الوصـــول إلى القانون العلمي هي المرحلة الثالثة من مراحل البحث الاســـتقرائي تسبق تلك المرحلة مرحلة التفسير : تفسير الملاحظات والتجارب وهي ما نسميها مرحلة فرض الفروض .

إذا انـــتهى الباحث من دور الملاحظة ، سواء أكانت ملاحظة بحتة أو مصاحبة للـــتجربة، وتوفرت لديه الأمثلة الكافية في الموضوع الخاص الذي يبحث فيه، دخل في دور آخر من أدوار الاستدلال الاستقرائي وهو دور وضع الفروض العلمية؛ لأن العقل بعد ملاحظته الأشياء يحاول بطبعه وضع تفسير لها، ويواجه نفسه بالسؤال عن عللها، ولمـــا كانت العلاقات العلّية بين الأشياء لا تدرك بالحس كما تدرك الأشياء نفسها، كان الإنســـان مضطراً إلى افتراض تفسير يعلل به ما يلاحظه، فإن نجح في تفسيره أخذ به واطمـــأن إليه، وإن لم ينجح افترض تفسيراً آخر، وثالثاً ورابعاً، حتى يصل إلى تفسير صـــحيح تبرره الوقائع والحوادث المشاهدة. وهذا التفسير الذي يفترضه الباحث ويريد به تعليل الحقائق المشاهدة هو ما نسميه بـــ " الفرض " .

ومـــن هـــنا يمكنـــنا أن نعـــرّف الفرض بأنه رأي نضعه على سبيل الحذر أو التخمين لتفسير علل الأشياء أو معلولاتها .

وغايـــة البحـــث العلمـــي الوصول إلى تفسير حقيقي للعالم وما يحدث فيه من الحـــوادث، ولكن ذلك لا يتحقق دائماً على الوجه الأكمل. فقد نضع فروضاً غير كافية لتفســـير جمـــيع الحقـــائق المـــراد تفسيرها، وقد تتناقض فروضنا مع بعض النظريات العلمـــية المســـلَّم بصحتها . وقد نأخذ بفرض من الفروض، ثم يتبين خطؤه على ضوء كشـــف علمـــي جديد . وقد تكون فروضنا خطأ في الواقع ، ولكن لا يظهر خطؤها لنا لعـــدم وجـــود أدلة كافية تثبت فسادها، فنأخذ بها ظانين أنها الحقيقة وليست من الحقيقة في شيء .

للفرضية مفهومان عند المتخصصين في مناهج البحث ، فالمفهوم الأول عندهم أن تفترض وجود ظاهرة معينة ، ثم تحاول من خلال هذا البحث تحصيل هذا الفرض، والمفهوم الثاني محاولة إيجاد تفسير لظاهرةٍ ما أي أنك تفترض حلاً معيناً أو مجموعة من الحلول، وفرض كبير بين المفهومين اللذين يجمعهما مصطلح واحد هو الفرض.

ويـــبدو أن كلمة " فرض " تعني تخيل شيء يعبر عن علة لمجموعة معينة من الظواهـــر أو الحـــوادث موضوع الاختبار، وأن تلك العلة عامل أساسي في إنتاج تلك المجموعـــة. حيـــن نضع فرضاً إنما نضع علة تكون الظواهر أو الأشياء الملاحظة أو موضـــوع التجربة معلولات لها وآثاراً . ويمكن أن نسمي تلك المرحلة – مرحلة وضع الفـــروض – محاولة لتفسير الظواهر . ومعنى " التفسير " أن تتفق واقعة مع أخرى أو مع قانون .

يمكـــن تعريف الفرض إذن بأنه تكهن أو محاولة للتفسير، وظيفته أن يربط بين عدد من الملاحظات والتجارب ويكشف عن بعض العلاقات الثابتة بين تلك الملاحظات التـــي يتضـــمنها سلوك طائفة من الظواهر أو الحوادث . وحين نضع تفسيراً قد يكون ذلـــك التفســـير صـــادقاً أو كاذباً، فإن كذب فإن علينا أن نحاول تفسيراً آخر يتفق مع الوقائع، وإن صدق وأيدته الوقائع قيد البحث في الحاضر والمستقبل القريب أصبح ذلك الفرض قانوناً .

يعـــد الفرض تخميناً مبدئياً يستدل به الباحث على إيجاد علاقة بين متغيرين أو أكـــثر، ولا يعـــد الفرض حكماً على الإطلاق إلا بعد إثباته، ولذلك فالأشياء المثبتة لا داعـــي لصـــياغتها فـــي شكل فروض ؛ لأن الأشياء المثبتة تعبر عن حقائق، والحقيقة لاشك فيها .

لا يكـــون الفـــرض العلمـــي فرضاً بالمعنى الصحيح إلاَّ إذا كان تفسيراً مؤقتاً للشـــيء المبحوث فيه، وهذا هو الفرق بين الفرض والنظرية ، ولكن لا يسمى الفرض فرضاً أيضاً، إلا إذا كان تفسيراً تؤيده الوقائع المشاهدة، والنظريات العلمية المتصلة به

المســلم بصحتها . فالفرض بهذا المعنى هو الخطوة الطبيعية التي يخطوها العالم نحو الــنظرية العلمــية أو القانون العلمي، بل النظرية العلمية ليست شيئاً آخر سوى فرض ثبتت صحته .

أمــا كلمة " نظرية " فتستعمل في معانٍ كثيرة، تستعمل أحياناً كمرادف للفرض العلمــي، كمــا يقــال " نظرية التطور " أو " النظرية الذرية " أو " نظرية الجاذبية " ، وكلهــا في الحقيقة فروض لا نظريات . وتستعمل بمعنى القانون العلمي، أو بمعنى أي قضــية علمية كلية، وأحياناً تستعمل بمعنى العلم نفسه، فيقال نظريات العلم الفلاني أي مادته.

وتســتعمل كلمــة " النظري" في مقابل العملي، فيقال هذا نظري وذاك عملي ، ولكــن الذي يعنينا هنا هو المعنى الثاني، أي النظرية بمعنى القانون العلمي العام، الذي هو نتيجة مباشرة للفروض العلمية .

غــير أنه ليس كل فرض يتحول إلى نظرية علمية بهذه الطريقة؛ لأنه ليس كل فــرض يمكن إثبات صحته أو فساده بطريقة علمية حاسمة . فكثير من الفروض يظل على حالته الفرضية، ولا يرقى أبداً إلى مستوى النظرية أو القانون .

ومــن أمــثلة الفــروض التي تحولت إلى نظريات، جميع القوانين العلمية التي ندرســها فــي كتــب العلــوم كقانون أرشميدس في الأجسام الطافية، وقانون بويل في الغازات، وقانون الأجسام الساقطة، وقانون العرض والطلب في علم الاقتصاد وغيرها.

ومن أمثلة النوع الآخر، افتراض وجود التطور في الكائنات الحية، والقول بأن جــوف الأرض ملتهب، والقول وبجود الجاذبية بين الأجسام ونحو ذلك، فإن هذه كلها مجــرد فــروض أي آراء ظنــية لا يمكن البرهنة على صحتها بطرق قطعي، ولكنها تعــززها الحقــائق المشــاهدة والنتائج الصحيحة المترتبة عليها، ولهذا أخذ بها العلماء أخذهم بالنظريات العلمية المقررة الثابتة لعدم وجود ما يناقضها .

وتأتـــي الفـــروض العلمية ليستعين بها العلماء، كل في موضوع بحثه، لتفسير الظواهر التي يدرسها، ويجب عليه أن يقوم فيما بعد بالتحقق منها .

والفرق في هذا المجال بين العالم والفيلسوف : أن الفيلسوف يعرض فكرته كما لـــو كانـــت حقـــيقة مطلقـــة، ثم يستنبط منها كل نتائجها بالطريقة المنطقية [القياسية] وحدهـــا . أمـــا العـــالم المجـــرب فهو يحدد فكرته في صورة سؤال أو تفسير مبدئي للظواهر ، ثم يستنبط منها النتائج التي يفحصها ويتثبت منها دائماً عن طريق التجربة.

ومما يلاحظ أن الفروض العلمية قصيرة العمر نسبياً، وذلك لأن معيار الصدق فيها هو الواقع، وليست اعتقادات الناس التي قد تجمع – أحياناً – على الخطأ .

ومن شروط الفرض العلمي :

١- أن يعتمد على معطيات الملاحظة والتجربة .

٢- أن يكون خالياً من التناقض مع نفسه .

٣- ألا يتعارض مع الحقائق الثابتة التي يقررها العلم .

٤- أن يحدد في صورة قضية واضحة، يمكن التحقق من صدقها بالتجربة .

٥- علـــى الباحـــث أن يقتصـــد في وضع الفروض، التي يحاول بها تفسير مسألة غامضة .

إنـــنا لا نستطيع أن نبدأ في دراساتنا اللغوية، وذلك بحكم طبيعة اللغة وعلاقتنا بهـــا مـــن نقطة الصفر . فلكل منا فرضياته المسبقة عن اللغة، ولابد لنا أن نبدأ ببعض الفرضـــيات، كافتراضنا جميعاً مثلاً أن الجملة تتألف من مبتدأ وخبر [أو فعل وفاعل] فنحن نعرف مسبقاً ما نريد أن نبحثه ، ولكن المهم هنا هو أن نحدد الإطار الدقيق الذي سنعمل من خلاله، وأن نلتزم بذلك الإطار التزاماً تاماً، وذلك لكي نصل إلى تحديد أدق لتلك المفاهيم المفترضة مقدماً، ونستبدل الغموض بالوضوح والدقة التأمين .

كما أن من المهم أن نحاول فحص أو اختبار كل فرضية بجميع الطرق العلمية الممكنة، كما أن السيطرة على تلك المتغيرات أشق بكثير، ولكننا حتى نستطيع المقارنة بين ظاهرتين علينا أن نحاول السيطرة على جميع المتغيرات الأخرى، لنلاحظ الترابط أو العلاقة بين هاتين الظاهرتين ، وكيف تتغير إحداهما بالنسبة للأخرى .

إن البحث اللغوي يعتمد في معظمه على المقارنة أو المقابلة، وعلينا أن نسأل الأسئلة الصحيحة، وألا نترك مجالاً واحداً للمقارنة لا نعقدها فيه . ومثال ذلك : أن عند كل منا انطباعاً مسبقاً عن علاقة تقوم بين الفعل والزمن . وعرف بعض النحويين العرب الفعل بأنه ما دل على حدث وزمن . وأشباه هذا التعريف موجودة ومتداولة في قواعد كثير من اللغات .

وفي مثل هذه الحالة يمكن أن نرضى بهذه الفرضية التقليدية المتعارف عليها، بحيث أصبحت تبدو وكأنها حقيقة مسلم بها . ولكن يجب ألا نفعل ذلك ، بل علينا أن نحاول تأكيد تلك الفرضية أو تعديلها أو رفضها كلية وذلك بوضعها تحت المجهر، أي بصياغة الأسئلة المناسبة التي يمكن أن تظهر حقيقتها .

فيمكن أن نسأل الأسئلة التالية على سبيل المثال : هل هنالك علاقة مباشرة بين صيغة الفعل والزمن بأن تدل صيغة الماضي على الزمن الماضي، وصيغة المضارع على الزمن الحاضر [أو المستقبل] ؟ وهل هذه الدلالة الصرفية ثابتة في السياقات النحوية المختلفة، أي في الجمل المختلفة؟ وهل هنالك طرق لغوية أخرى غير الفعل للدلالة على الزمن ؟

إن الإجابة على أسئلة عن هذا النوع تبين لنا بوضوح تام أن فرضيتنا السابقة لا يمكن قبولها على إطلاقها . بل علينا أن نعدلها بحيث تتمشى مع الواقع اللغوي، بدلاً من أن نتشبث بها ونحاول تبرير التغييرات التي تطرأ على العلاقة بين صيغة الفعل والزمن، كما فعل بعض النحاة العرب مثلاً عندما حاولوا تبرير إشارة الفعل المضارع المنفي بالحرف " لم " مثل " لم يذهب " إلى الزمن الماضي، بأن الحرف " لم " حرف

قلب، أي أنه يقلب الحاضر إلى الماضي . بينما كان الأحرى بهم أن يرصدوا السياقات المختلفة التي تقع فيها كل صيغة من صيغ الفعل، ثم يشيرون إلا دلالاتها الزمنية في تلك السياقات، بأن يقولوا مثلاً إن صيغة المضارع بعد حرف النفي " لم " تشير إلى الماضي وهكذا . أي أن تعريف أو تحديد الدلالة أو العلاقة اللغوية التي تشير إليها صيغة من الصيغ يجب أن تكون نتيجة للدراسات لا سابقة لها .

وفي واقع الأمر فإن الدراسة الوصفية لعلاقة صيغة الفعل بالزمن في اللغة العربية [وفي كثير من لغات العالم الأخرى ، بل ربما فيها جميعاً] تشير بوضوح إلى عدم وجود ثبات في تلك العلاقة، بل إن السياقات اللغوية هي التي تتحكم فيها، بالإضافة إلى " الظروف " والكلمات الأخرى المستعملة في الجملة، فإذا نظرنا إلى الجمل التالية مثلاً :

- بعتك الدار بألف دينار .
- غفر الله لك .
- إذا زرتني أزورك .
- وحياتك لا نكثت عهدك ما دمت حياً .

نجد أن الفعل الماضي في الجملة الأولى يدل على الزمن الحاضر، أما الأفعال الماضية في الجمل الأخرى فتدل جميعها على الزمن المستقبل . كما أن صيغة المضارع تدل على الزمن الحاضر في مواضع معينة، وعلى الزمن المستقبل في مواضع معينة أخرى، بل إنها تدل على الزمن الماضي في مواضع أخرى كالجمل التالية :

- زرتك ولم تكن في البيت .
- قطفت الثمرة ولمّا تنضج .
- لو ينتبهون إلى الشرح لاستفادوا [1] .

---

(1) رشيد الشرتوني: مبادئ العربية ج٤ ، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ، ط١٠ ، ص ١٠ -١١ .

عــلاوة على ذلك، فإن دراسة تحليلية من هذا النوع تظهر لنا أن هنالك معاني أخــرى يــدل عليها الفعل بالإضافة إلى الحدث والزمن، فهي تبين لنا إشارة فعلية إلى علاقات زمنية مختلفة كالعلاقات التالية :

صيغة " كان " فعل تشير إلى الحدث البعيد التام أو المنقطع .

صيغة " كان قد فعل " تشير إلى الحدث القريب التام أو المنقطع .

صــيغة " مــازال يفعل " تشير إلى اتصال زمن الحدث الماضي بالحاضر(١). وهــنا نصــل إلــى نتيجة كبرى أو ما يشبه القانون العام وهو أن هناك زمناً صرفياً . وآخــر نحويــاً يعــتمد على التركيب ومكوناته . وموقع الصيغة التي تحمل الزمن في وضوح هذا التركيب وعلاقات أخرى غيرها . وهذه الأمثلة جميعها تدل على ضرورة فحــص أي من المسلمات أو الفرضيات التي يحملها الباحث عن لغته مهما بدت مقنعة بناء على دراسات قديمة .

التحليل :

تنقســم السمات والعناصر إلى قسمين بعضها يتعلق بإمكانات الباحث ومؤهلاته واســتعداده، وهــي كــل ما سبق، وبعضها الآخر هو إجراءات يمارسها عند البحث. فالتحلــيل أولى الخطوات التي يجب أن يقوم بها الباحث وهي تعد من القسم الثاني، أي الإجــراءات التي يقوم بها . أما ما سبق من عناصر فهو يرتبط بطريقة تفكيره وإعداده هو ، وليس إعداد البحث، أما التحليل فهو خطوة أولى في إعداد البحث، وقدرة الباحث علــيه ومــدى دقته فيه يعتمد على إمكانات الباحث التي تتجلى في العناصر والسمات السابقة ، فهي التي تؤهله للقدرة على التحليل السليم .

---

(١) د/ تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ، ص ٢٤٥ .

ويعـــد التحليل Analysis من الأسس المنهجية في الدراسات اللغوية، فهناك ما يســـمى بـــ " مستويات التحليل اللغوي " التي يتناول خلالها الباحث اللغة في عناصرها الصوتية والتركيبية والدلالية، وتعرف تلك الدراسات ما يسمى بأصغر عنصر صوتي، وأصغر عنصر صرفي ... وهكذا .

وهـــناك محورٌ آخر للتحليل وهو تحليل النصوص في جميع مستويات اللغة من شـــعر جاهلـــي وقـــرآن وحديـــث شريف وشعر ونثر وفنون أخرى كالراوية والقصة والمســـرحية والمقالـــة وتصـــنيفها إلى وحدات أصغر فأكبر بدءاً من الصوت وانتهاء بالتركيـــب أو الأســـلوب أو النص محاولة للوصول إلى القواعد التي تنظم ارتباط هذه الوحـــدات بعضـــها مـــع بعضها الآخر وتآلفها إما لمعرفة خصائص اللغة أو هدفاً إلى اختـــبار قواعد النحاة القدامى أو استنتاج خصائص النص المدروس أو تجنب اللحن من ناحية، أو الحيدة عن قواعد النحاة وفضولهم من ناحية أخرى .

ويجب أن نخطو في البحث خطوات منظّمة، تكون كل خطوة بالنسبة إلى التي تلـــيها بمـــثابة المقدمة من النتيجة، مبتدئين بالبسيط صاعدين منه إلى المركب . ويعني التحليل تقسيم المشكلة التي يراد حلها إلى أبسط عدد ممكن من الأجزاء البسيطة، وذلك لإمكان حلها على خير وجه .

ينحصـــر المـــنهج بأجمعه في أن نرتب وننظم الأشياء التي ينبغي توجه العقل إلـــيها لاستكشـــاف بعـــض الحقـــائق. ونحن نتبع هذا المنهج خطوة خطوة، إذا حولنا بالـــتدريج القضـــايا الغامضة المبهمة إلى قضايا أبسط، وإذا بدأنا من الإدراك البديهي لأبسط الأشياء فإننا نجتهد أن نرقى بالدرجات نفسها إلى معرفة سائر الأشياء .

الاستقراء :

هــناك نوعــان مــن الاستقراء استقراء خارجي للموضوعات التي تعني بها الــبحوث أو الظواهــر العامة في اللغة، وهذا النوع من الاستقراء يمكن أن يجري قبل الشــروع في التحليل، والنوع الآخر استقراء داخلي، ويعني باستقراء الظواهر اللغوية أو الــنحوية داخل الموضوع المختار، أو داخل النص الذي يجري تحليله، وهذا النوع لابــد أن يكــون بعد خطوة التحليل بحيث يتسنى للباحث إجراء عمليه التصنيف داخل البحث.

ولذلــك فهــناك اســتقراء لعموم الظواهر بهدف الوقوع على موضوع جديد بالبحث قبل التحليل واستقراء آخر وهو الذي نعني به الآن، ويتم بعد اختيار الموضوع والاستقراء على الظاهرة المدروسة .

ينقسم الاستقراء إلى تام وناقص؛ فالتام هو ما يُتصفح فيه جميع أفراد الظاهرة. والــناقص ما يُتصفح فيه بعض أفراد الظاهرة، وذلك إما لاستحالة تصفح جميع الأفراد أو لأي مانع آخر .

فالاســتقراء الــتام هــو الحكــم علــى الكلي بما حكم به على جميع أفراده، والاســتقراء الناقص هو الحكم على الكلي بما حكم به على بعض أفراده . تسمى قاعدة الاســتقراء الــتام أو الإحصاء أو التحقيق ، بأن يعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملــة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئاً " والغرض من هــذه القاعدة هو مراجعة الصلات أو الروابط الموجودة بين الحلقات التي تكون سلسلة من الاستدلالات، فإذا تأكدنا من اتصالها جاز لنا أن نحكم حكماً صحيحاً ، ويصبح هذا الحكــم بالغــاً مــن اليقين ما لم تبلغه البداهة . ويجب أن تكون عملية الاستقراء التام متصــلة غــير مــنقطعة، إذ لــو أننا أهملنا حلقة من الحلقات التي تتكون منها سلسلة الاستدلالات لانقطعت السلسلة، ولما تبقى شيء من اليقين، ثم يجب أن يكون الاستقراء

الـــتام وافـــياً، حـــتى نستطيع أن نبلغ به اليقين؛ إذ أننا في هذه القاعدة عرضة لتضليل الذاكـــرة، وإذن يجب مع إحاطتنا بكل سلسلة القضايا أن نتنبه إلى تميز كل واحدة على الأخرى، حتى لا يتطرق الغموض والإبهام إلى معرفتنا .

ويلاحـــظ علـــى ما سبق أن قواعد المنهج الثلاثة الأخيرة كلها متصلة بعضها بـــبعض، ففي عملية الاستقراء التام نجد التحليل والتركيب كما أن الاستقراء التام يحقق التحليل والتركيب ويساعدهما على الاستكشاف .

إذا كـــان الاســـتقراء العلمـــي الصحيح هو الاستقراء الناقص الذي نبتدئ فيه بفحـــص الجزئـــيات ، وننتهي إلى القوانين العامة، فعلى أي أساس أو أسس نعتمد في الحكم على الكلي .

وللاستقراء التقليدي مراحل ثلاثة :

[١] الملاحظة والتجربة . [٢] وضع الفروض . [٣] تحقيق الفروض .

مـــا نقولـــه عـــن المرحلة الأولى يكاد يصور موقف كل من تحمس للاستقراء التقلـــيدي، فهـــي الأســـاس العام للثورة على المنطق القديم . ومشكلة الاستقراء عبارة مألوفـــة تجدهـــا في الكتب التي تتناول المنهج الاستقرائي وتقويمه، وتدور هذه المشكلة حـــول أحـــد أسس الاستقراء المسمى بمبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة أي افتراض أن المســـتقبل ســـوف يشبه الحاضر والماضي إذا اتفقت الظروف المحيطة نفسها بظاهرة مـــا فـــي المســـتقبل مع تلك الظروف المحيطة بحدوثها في الحاضر والماضي. تدور المشـــكلة بمعـــنى آخر حول تحليل هذا الافتراض، ما إذا كان يمكننا الاعتماد عليه أو ينبغي رفضه .

لكي يصل العلماء المعاصرون في أبحاثهم نريد أن نعرف أي معنى للاستقراء يستعملون ؟ ثم هل المنهج العلمي المعاصر يستعمل الاستقراء فقط ، أم أنه يضيف إليه نوعاً آخر من الاستدلال ؟

ويحـــتاج القـــياس إلـــى مقدمات كلية، وطريق الوصول إلى هذه المقدمات هو الاســتقراء، فإنه قبل أن ندخل الحالات الجزئية تحت القوانين الكلية، لابد أن نعلم تلك القوانيــن . وطــريق العلــم بهــا هو الاستقراء ، فالقياس إذن يعتمد على الاستقراء، والاستقراء من هذه الناحية متقدم على القياس .

ولكــن الاستقراء من ناحية أخرى يعتمد على القياس؛ لأنه لا يكفي أن نتصفح بعــض الجزئــيات لنصل منها إلى حكم عام، بل لابد من التحقق من صدق هذا الحكم العام. وطريق التحقق من صدق الحكم العام أن نطبقه على حالات جزئية جديدة لم نكن تصــفحناها من قبل، وهذا هو القياس بعينه . ففي الاستقراء إذن مرحلة لا غنى عنها، وهي مرحلة تحقيق الفروض العلمية. وفي هذه المرحلة يستعمل الاستدلال القياسي .

إنــنا آمــنا بــأن المنهج الصالح في دراسة عناصر البحث اللغوي هو المنهج الاســتقرائي الوصــفي الــذي يعترف بأن اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية بها تستقصي الملامــح المميزة لكل مجتمع : فلا نحاول أن نفرض معايير اللغويين العرب المتقدمين ولا آراء الباحثيــن المعاصرين كما تفرض أحكام القانون، بل نقدم أو نرغب في القيام بوظــيفة اللغوي في وصف الحقائق، ونقد الوثائق، وتمحيص النصوص، والموازنة بين الآراء قديمهــا وحديــثها، ومعــتدلها ومغاليها، لنستخلص بعد ذلك بتأنّ ورويّة، ثم نلم شتات هذه الأحكام .

فــإذا جئــنا إلى الاستقراء ، وهو أساس المنهج الحديث، وجدناه يعني ملاحظة عــدة حــالات [عينة] وإجراء التجارب عليها للوصول إلى قانون عام ينطبق عليها، وعلــى غيرها مما يشبهها، وهنا يتدخل الفرض العلمي الذي يقوم على الخيال والإبداع الشخصــي للباحث، وعناه أن المنهج الحديث يتطلب إمكانيات وقدرات أكثر مما يتطلب المنطق القديم .

فبينما يبدو هذا الأخير ساكناً استاتيكياً ، نرى المنهج الجديد متحركاً ديناميكياً؛ لأنه ينزع دائماً إلى البحث عما هو مجهول: اكتشاف علاقة جديدة بين الظواهر أو تفسير الغامض منها .

من خصائص العلم أنه ينزع إلى الاقتصاد في المجهود والتفكير . وهذا ما نجده متمثلاً في المنهج الحديث الذي يعتمد على الاستقراء أي دراسة مجموعة قليلة من الظواهر، لاستخراج حكم عام [قانون] ينطبق عليها وعلى غيرها. ومعنى هذا أنه كلما زادت معرفة الإنسان بالطبيعة، انحصر ما لديه من قوانينها في مجموعة قليلة تتيح له اختصاراً شديداً في وقته ومجهوده .

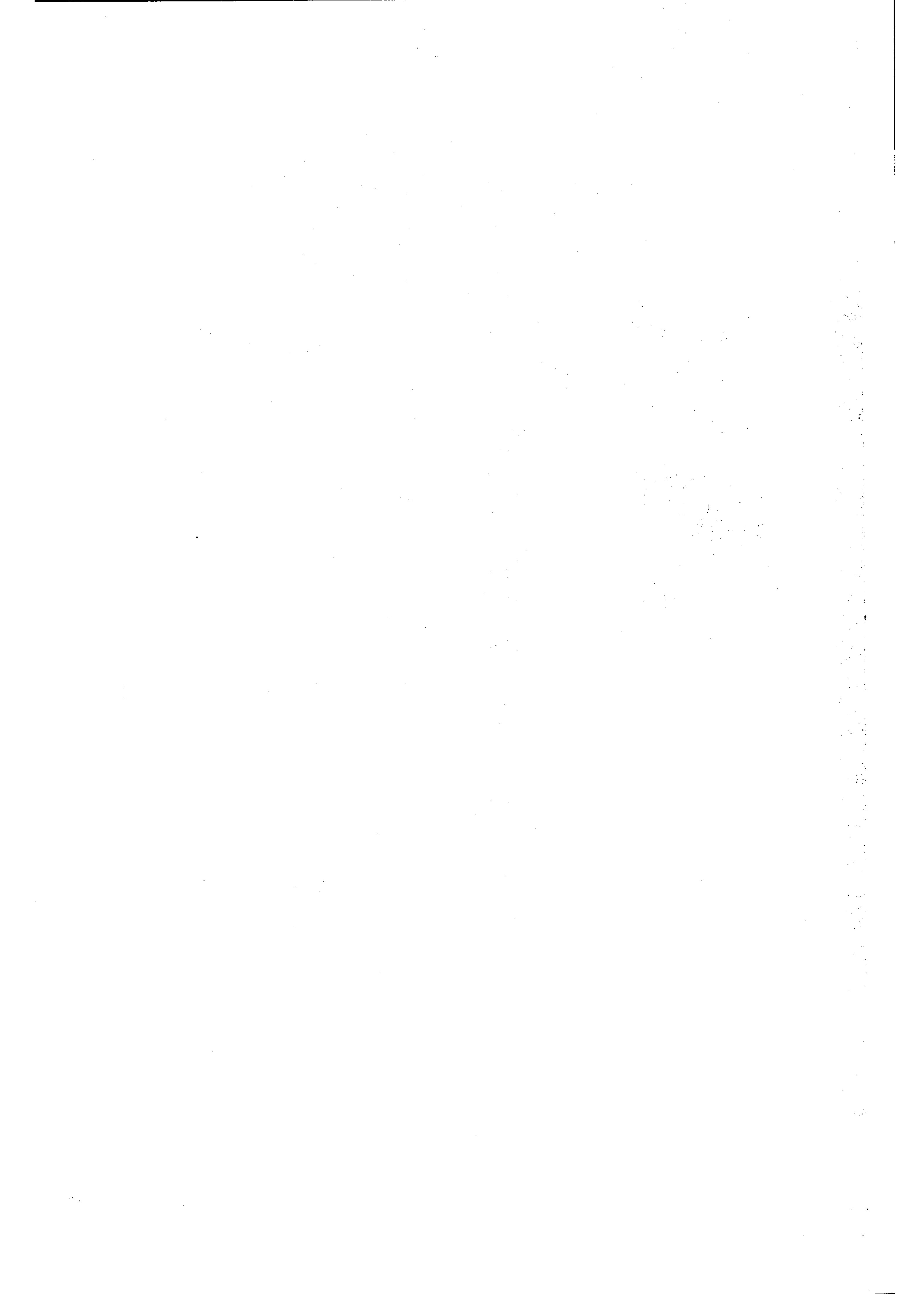
ومما يلاحظ أن المنهج الحديث قد أخذ يستعين في آخر مراحله برموز الرياضة حتى يزيد من اختصار القوانين نفسها . ويعتمد الاستقراء على الاعتقاد في مبدأ الحتمية، الذي يقرر " أن للطبعة نظاماً مطرداً لا يكاد يتخلف . وهذا يعني أن ما يحدث الآن قد حدث مثله بالأمس، وسوف يحدث مثله في المستقبل .

ومن هنا أمكن للإنسان أن يتنبأ بحدوث ظواهر الطبيعة [العاصفة في البحر عقب صفير الريح ، سقوط المطر عقب تلبد السماء بالغيوم] ، ومن المعروف أن التنبؤ يعتمد على تفسير الطبيعة تفسيراً علمياً يصاغ في صورة قوانين . أما التفسير بالصدفة فليس إلا دليلاً على عجز الإنسان وجهله، وهي ترتبط غالباً بالخرافات . ولاشك في أن الخرافات تزول كلما انتشر العلم، واتضحت أدلته وبراهينه .

وليس من شك في أن الإنسان أحد عناصر الطبيعة أو العنصر الذي يتعامل مع عناصر الطبيعة أو العنصر الذي يتعامل مع عناصر الطبيعة في أن اللغة خصيصة من خصائص الإنسان يتميز بها عن سائر الكائنات وقواعدها أو ضوابطها وقوانينها لها قابلية لأن تخضع لما تخضع له كافة قوانين عناصر الطبيعة التي يعيشها الإنسان .

الفصل الرابع

البحث اللغوي



ونعنـــي بالدراســـة العلمية البحث الذي يستعمل الأسلوب العلمي المعتمد على المقاييس التالية :

- ملاحظة الظواهر اللغوية – التجريب والاستقراء المستمر .
- بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج لسانية قابلة للتطوير .
- ضبط النظريات اللسانية الكلية، ثم ضبط الظواهر اللغوية التي تعمل عليها.
- اســـتعمال النماذج والعلائق الرياضية الحديثة – التحليل الرياضي الحديث للغة – الموضوعية المطلقة .

وبما أن اللغات البشرية لها ارتباطاتها الإنسانية والطبيعية المتفرعة، كذلك فإن لعلـــم اللســـانيات فروعاً متعددة يختص كل منها بناحية جزئية من هذا الكل الذي اسمه "اللغات". فاللسانيات النظرية تبحث بالنظريات اللغوية ونماذجها المتفرعة عنها، وكيفية معالجتها للبنية اللغوية في الماضي أو الحاضر .

واللّســـانيات علم موضوعه اللغة، ومن بدائه المعرفة أن يحدّد العلم موضوعه تحديـــداً مفهومياً . أما نقد نماذج الحدّ وضبط القواعد التعريفية بمنطلقات نظريّة، فمن فلســـفة العلم وهي القائمة على النّظر في أصول المعرفة النّوعيّة التي هو منضو تحت قوامها، لذلك يتعاقب على قضايا الحدّ العلم نفسه ، ثمّ أساسيته النوعية .

وتحديـــد موضـــوع العلم غير تحديد العلم، ولئن بدا للنّظر الأوّل أنّ حدّ العلم يســـبق حـــدّ موضـــوع العلم، فإنّ البناء المعرفي يقتضي أن تترتب الأمور من حيث المنطق ترتّباً يخالف ما هي عليه من حيث الحاصل، وفي هذا المقام يتقدّم تعريف العلم لموضـــوعه على تعريفه لذاته؛ لأنّ العمليّة الأولى ينجزها العارف بالعلم، فهي إجراء داخلـــيّ، أمّـــا الثانـــية فيضـــطلع بأمـــرها ناقد العلم حالماً يستكشف مقولاته ونواميس استدلاله، فهذه العمليّة من الإجراءات الخارجيّة .

ولئـــن تيسّر للعالم أن يعرّف الظاهرة التي هي موضوع علمه دون أن يردف إلـــى ذلك بالضرورة عمليّة تحديد العلم الذي ينكبّ على تلك الظاهرة، فإنّ نقد الأسس التـــي ترتكـــز علـــيها المعرفة النوعية الخاصة بعلمه لا يتسنّى إلاّ بالاستناد إلى ضبط خصـــائص الظاهرة التي يتخذها العلم موضوعاً له، معنى ذلك أنّ حدّ موضوع العلم قد يســـتغني عـــن حـــدّ العلم، ولكنّ حدّ العلم ذاته لا يكون أبداً في غنى عن حدّ موضوع العلـــم، وتـــأويل هذا أنّ اللسانيات يتعين في حقّها أن تعرف الظاهرة اللغوية أكثر مما يتوجـــب عليها أن تعرّف نفسها، ذلك أنّ تحديدها للحدث اللغوي هو الذي يعطي ذوي الـــنظر المعرفـــي المـــادة التي منها يستخلصون تعريفهم لعلم اللسانيات من موقع النقد التأليفي الكاشف لأصول المعرفة المخصوصة .

وكـــان مصـــطلح " العربية " يدل على النظرة الشاملة لدرس العربية وتحليلها، ويؤكـــد ذلـــك ويعززه إضافة كلمة " علم " بعد ذلك إلى هذا المصطلح ، فأصبح " علم العربـــية "، والعلـــم يـــدل على هذه النظرة الشاملة القائمة على أصول ومبادئ نظرية وتحليلية .

كـــيف تتحولّ اللغة من أداة وظيفيّة إلى أداة تنظيمية ؟ وما الذي يتقيّد به العقل فـــي اشتقاقه نظاماً معرفياً من نظام وقائعي هو في هذا المقام نظام علاميّ تواصليّ ؟ ثـــمّ كـــيف تـــتحدّد معالم المنهج العلمي الذي يسمح بإدراك البنى التركيبية في سكونها الملحـــوظ بداهة وفي صيرورتها المستنبطة بالاستقراء التاريخي ؟ بل قل كيف تتحوّل الكتابة باللغة إلى قراءة في اللغة ؟

إنّ هـــذه القضايا المعرفيّة لئن تجوّزنا بسطها فلا نزعم القدرة على فضّها من موقع عالم اللسان بوجهته المخصوصة .

لقـــد تســـنى للســـانيات أن تلتحق بالمعارف الكونية ؛ إذ لم تعد مقترنة بإطار مكانـــيّ دون آخر ولا بمجموعة لغويّة دون أخرى، ولا حتى بلسان مّا دون آخر، فهي

اليوم علم شامل لا يلتبس البتّة باللغة التي يقدّم بها، وفي هذه الخاصية على الأقل تدرك اللسانيات مرتبة العلوم الصحيحة بإطلاق .

أمّا على الصعيد الأساسي في فلسفة العلوم ونظرية المعارف ، فقد كان للسانيات فضل تأسيس جملة من القواعد النظرية والتطبيقية ، أصبحت الآن من فرضيّات البحث ومسلمات الاستدلال حتّى عدّت مصادرات عامة، وأبرز هذه القواعد – فضلاً عن النزعة العلمية المتخطّية لحواجز النّسبية والمعيارية بغية إدراك الموضوعية عبر الصّرامة العقلانية – اثنتان هما قاعدة تمازج الاختصاص، وقاعدة التفرّد والشمول، فأما تضافر المعارف فإنه يعدّ أساساً من أسس البحث الحديث، وقد سنّت اللسانيات شريعته لمّا تتبّعت الظاهرة اللغوية حيثما كانت حتى ولجت حقولاً مغايرة لها، وكان من ثمار هذه الممارسة المستحدثة بروز علوم هي بالضرورة نقطة تقاطع علمين على الأقل ، فسميت معارف متمازجة الاختصاص، ومن بينها اللسانيات النفسية، واللسانيات الاجتماعية، والأسلوبية .

وأمّا مبدأ التفرد والشمول فإنّه ثمرة من ثمار اللسانيات، وصورة ذلك أنّ المنهج اللساني ينصهر فيه التحليل والتأليف فيغدو تفاعلاً قاراً بين تفكيك الظاهرة إلى مركباتها والبحث عمّا يجمع الأجزاء من روابط مؤلّفة، فهو منهج يعتمد الاستقراء والاستنتاج معاً، بحيث يتعاضد التّجريد والتّصنيف ، فيكون مسار البحث من الكلّ إلى الأجزاء، ومن الأجزاء إلى الكلّ حسبما تمليه الضّرورة النّوعية .

ولكن إذا أردنا فعلاً معرفة جوهر اللسانيات فإننا نستطيع القول : إن هوية هذا العلم تتسم بصفتين اثنتين : الأولى هي العلميّة [تطبيق المقاييس العلمية على اللغات] والثانية هي الاستقلالية [هذا العلم له مبادئه وقوانينه وأنظمته الخاصة به] .

هاتان السمتان اكتملتا بظهور علماء لسانيين في القرن العشرين أمثال دي سوسور وبلومفيلد وسابير ومارتينه وتشومسكي وغيرهم .

وتتضـــافر فـــي الألسنية النظريات والفرضيات والمناهج الحديثة لتتولى وضع كتـــب تتـــبع فـــي تنظيرها مبادئ محدودة ، وفي حيّز التطبيق إرشادات معينة . وقد ضـــيقت الألســـنية حقـــل التنظير، وتجنبت إثارة السؤال المكرر ألا وهو : هل يخضع اللســـان لتنظـــيم واضح ؟ ومن البديهي أن اللسان يخضع لتنظيم قائم بذاته، وأنه على الألســـني أن يعمـــل فكـــره لإيجاد نظرية تصلح لتحليل اللسان الذي يدرس، ومن ثمة لإخضاعه لمنهج يتوافق وتلك النظرية مما يقودنا إلى المسلمات التالية :

١- تقـــدم نظـــريات الألسنية طريقة موحّدة لكتابة الأقوال والكلام بشكل أصواتي عـــام، اصـــطلح علـــيه الألســـنيون واعتمده علماء العالم كافة، وتحدد الكتابة الموحـــدة الإشارات الصوتية التي تدخل في لحمة الأصوات الإنسانية والتي لا يتجاوز عددها ٨٠ صوتاً، أثبتت في لائحة عالمية .

٢- يقـــترن الكـــلام أو الأصوات بنظريات الدلالة العامة، وكان علم الدلالة الجزء الهزيل من النظريات الألسنية ، وقد أصبح بفضل نظريات الإعلام والتواصل والمعلوماتـــية مزوداً بمؤشرات سليمة، منها أن المتكلمين بلغة واحدة يتبيئون المعنى الواحد في الكلام الواحد أو الجملة الواحدة .

٣- تحـــدد النظرية الشكل الذي يجب أن تراعيه كتب اللغة، لكي تكون قادرة على تعـــداد أوصـــاف الكلام الظاهرة وعلى ربطها بمضامينها المعنوية المضمرة، وتقـــوم كتـــب اللغـــة بكشف قواعد اللغات الطبيعية، وتستطيع بالتالي أن تبين الخلافات التي تفصلها عن قواعد اللغات الاصطناعية [لغات المناطقة ولغات المعلوماتية ، ولغات الأدمغة الألكترونية ، ...] .

٤- من المعلوم أن العلماء يرتبون قضاياهم، بحيث يكون أساسها الفرض، ثم يأتي دور المـــنهج، وأخـــيراً دور الـــروز الذي أوكل لنفسه مراقبة أمرى التنظير والتنهـــيج، وذلـــك لقـــبول الفرضيات أو رفضها، ولاختبار سلامة المنهج أو فســـاده، وللـــنظر فـــي صـــلاحية كتب اللغة وهو يلفظ بعض الكتب ويطالب

بإطـــراحها وبإبعادهـــا عن الاستعمال، وينقد بعضها الآخر نقداً علمياً، ويحدد أفضلها ويشجع على نشرها وانتشارها .

والبحـــث اللغوي الحديث يوجب علينا منذ البداية [فيما يوجب] أن نحدد البيئة اللغوية للظاهرة المدروسة تجنباً للأحكام لهذه الظاهرة . ورائدنا في هذا السبيل هو أن وحـــدة الحكـــم علـــى الظاهرة اللغوية المعنية يجب أن تبنى على أساس وحدة الظاهرة نفســـها فـــي الـــذات والصفات، أو الخواصّ ، فإذا ما تعددت أو اختلفت هذه الخواص وجـــب تعـــدد الأحكـــام، طبقاً للمبدأ الذي ينص على وجوب تعدد الأنظمة في معالجة الظاهرة أو الظواهر التي تختلف خواصّها . أمّا أن تخضع هذه الخواص المختلفة كلها لحكم واحد فهو عمل تعسفيّ ويُعرِّض الدراسة للتعقيد والاضطراب .

مـــا هـــذا الـــذي يجـــري على جبهة اللغة، ثورة في التنظير اللغوي تصاحبها تكنولوجـــيا متقدمة لا تقل ثورية في تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي، وعلوم المعرفة ، وتكنولوجـــيا الأعصاب على معالجة اللغات الإنسانية بواسطة الكمبيوتر، وذلك بهدف إكســـاب الآلة المهارات اللغوية من اشتقاق وتصريف وإعراب واختصار واستخلاص وفهرسة ، بل تأليف للنصوص أيضاً ؟

إنّ مســـألة هل اللغة موضوع بالإمكان تحليله التحليل العلمي مسألة تُثار حالياً فـــي مجال الألسنية . وما لفت انتباه الألسنيين إلى هذه المسألة هو الاعتقاد بأنه لا يكفي أن نستعمل في مجال تحليل اللغة الأدوات والوسائل والأساليب العلمية الدقيقة المستمدة مـــن الرياضـــيات أو علـــم المنطق الحديث لكي نُقر بوجود مجال علمي يتناول اللغة وندعـــوه بالألسنية أو علم اللغة الحديث . فهذه الوسائل العلمية التي نتبيّنها في الكتابات الألسنية لا تكوّن في حد ذاتها الدليل الواضح على تشكُّل علم يبحث في اللغة وقضاياها البالغة التعقيد .

فالمســـألة هنا ليست في تحديد الوسائل الرياضية التي تعتمدها الألسنية، بل هي فـــي إمكانـــية تشـــكّل الألسنية علماً تجريبياً يبحث في موضوع معين هو اللغة . وهذه

المسـألة تثـير أكثر من تساؤل ، وما يهمنا هنا هو السؤال الأساسي التالي : هل اللغة هي موضوع عتيد لعلم معيّن ؟ وذلك لأننا لا نستطيع أن نضع علماً يبحث في اللغة ما لم تكن اللغة في ذاتها خاضعة للموضوعية .

بإمكانـنا إعطاء إجابة مقبولة عن هذا السؤال إنّ كل إنسان سويّ نشأ وترعرع فـي بيـئة معينة قد اكتسب لغة هذه البيئة . نقول إنه قد اكتسب كفاية لغوية تتيح له أن ينتج عدداً لا متناهياً من جمل لغته .

فعملـية تكلّـم اللغة إذاً ترتد إلى هذه الكفاية اللغوية التي هي المعرفة الضمنية لـدى متكلم اللغة بقواعد لغته والتي تقود عملية إنتاج العدد اللامتناهي من جمل لغته . وتـرجع علة إمكان دراسة اللغة دراسة علمية وعدم تحقق ذلك إلا حين تدرس مستقلة عن مظاهرها أو تحققاتها الفردية، إلا أن الكلام يتحقق في صور لا حصر لها.

ولـيس ثمة علم يمكن أن يدرس هذه الصور في الواقع، فالمفردات والعبارات والجمـل [في أية لغة] لا حصر لها ولا سبيل إلى دراستها، أما الطرق التي تبني بها المفـردات أو العـبارات أو الجمـل فـتقع تحت الحصر ويمكن دراستها، ولهذا كان موضوع الدراسة العلمية للغة النماذج التي يأتي الكلام مطابقاً لها .

فاللغـة – لا الكـلام – هـي التي يمكن أن تدرس؛ لأنها طائفة من العلامات اللغويـة المتفق عليها، وطائفة من القواعد التي تنظم هذه العلاقات ، فنحن حين ندرس إذاً سوف ندرس نماذج وقواعد لا منطوقات .

وليس وصف اللغة بأنها ظاهرة اجتماعية في مواضع عدة بمنفصل عن اعتبار أنهـا كغـيرها من الظواهر الاجتماعية وقائع موضوعية ذات وجود خارج عن شعور الأفراد، ويعني ذلك في وضوح أن دراستها دراسة علمية يمكن أن يتحقق تحققاً كاملاً، مثلما يتحقق لعالم الطبيعة أن يدرس الظواهر الطبيعية دراسة علمية .

ومـبدأ القول بالمشترك بين لغات البشر أنّ الناس جميعاً يتّفقون في أنّهم على اخـتلاف لغاتهم يمكن لهم خلال بضع سنوات من التعرّض لها في محيط الاكتساب أن

يمـيّزوا نظامـاً مجّـرداً يصـدرون عنه في استعمال اللغة استعمالاً خلاّقاً متجدّداً لا ينحصر؛ إذ يستطيع كلّ واحد من أبناء اللغة ، كلّ لغة ، أن يتلقّى في الموقف المناسب على وجه الفَهْم ما لا ينحصر من جمل جديدة لم يكن سمعها من قبل . كما يستطيع أن يصـوغ في الموقف المناسب ما لا ينحصر من جمل جديدة لم يكن قالها أو سمعها أو وَقَـفَ علـيها مـن قبل . ويستطيع أن يَفْرِز بتلقائية مكتسبة مواتية الجُمَلَ الجائزة في مقاييسه ومقاييس بيئته اللغوية من الجُمَل غير الجائزة أو الجمل المتَحفَّظ عليها[1] .

ولكـنّ البحث عن المشترك يتخذ الآن شكلاً آخر تفصيلياً يتمثل في فَرْز كلّ ما يمكن فرزه من لغات العالم – على اختلافها وبقطع النظر عن تصنيف العائلات اللغوية التقلـيدي – وتحديد الخصائص المشتركة التي تجسّد عناصر الاتفاق وأصول التوحُّد . وقد وُضِعَت في ذلك تآليف واستُنبِطَت فيها بعض أصول ذلك التوحُّد .

الأمريكـيون يجـدون لهـذا الاتجاه أصولاً عند ديكارت والنحويين العقلانيين الفرنسـيين من مدرسة بور رُويال، وذلك أن هؤلاء ذهبوا إلى أن اللغة الإنسانية تقوم على أساس من بنية فكريّة عامة لدى الناس جميعاً .

والأبحـاث اللغويـة والفلسفية في هذا التقليد – عندهم – مدينة للنحو اللاتيني المعـياريّ، والعقـائد الرياضية لعصر التنوير[2] . وهي – عندنا – مما أدركه المبرد، وابن الخباز[3]، بل قرّره الفارابي[4] تقريراً صريحاً .

---

(1) N.chomsky: Topics in the theory of Generative Grammar P.10, Mouton, the Hague-Paris 1969 and in current in Linguistics, Vol 3 P.1-60 .

(2) انظر في هذا : جون سيرل : تشومسكي والثورة اللغويّة، الفكر العربي، العددان ٨-٩ ، ص ١٣٥ ، وزكريا إبراهيم: مشكلة البنية ص ٧٥ ، مكتبة مصر بالفجالة ١٩٧٦م .

(3) ابن هشام : شرح شذور الذهب ص ١٤، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٦٠م .

(4) انظر عبد الرحمن الحاج صالح: اللسانيات ، المجلد الأول، ٥٤/١ ، ٥٧ ، ١٩٧١م .

وقد وضع بانيني [Panini] الهندي نحو السنسكريتيّة بلغته، ومنهجه، وفي سياقه الثقافيّ التاريخيّ الخاص، ثمّ خلّف بعده في المعاصرين من صنّف نحوه في "النحو الوصفيّ "[1] ، ومن التمس فيه تقنية [Technique] وصفية[2]، ورأى تشومسكي أنّه يمكن عدّه قطعة من النحو التحويلي[3]. هذا على افتراق ما بين "الوصفية" و " التحويل "، ولكنّه تاريخ اللغة لا ينفكّ عن صورته في نفوس مؤرخيها.

ويتّصل بهذا المُشتبه في لغة البحث مشتبه منهجيّ ذو طبيعة أخرى وذلك أننا نقبل في العادة أن يفترض الباحث أنّ أمثلة الكلام تكون أوّلاً وأنّ القواعد التي تصفها أو تفسرها تكون ثانياً . وإذن فقد تكلّم العرب كما تكلّم غيرهم قبل أن يضعوا قواعد كلامهم . ومعلوم أنّ امرأ القيس وأقرانه قد تقدّموا على سيبويه وأقرانه من هذه الجهة في الترتيب الزمانيّ، ومن هذه الجهة في ترتُّب " القواعد " على " النصوص " .

ونقبل في العادة أن يفترض الباحث أنّ كتب النحو تكون أوّلاً، وأنّ " الأصول" التي توضع وفقاً لها تلك الكتب تكون ثانياً . وإذن فقد ألّف سيبويه والمبرد وابن السرّاج قبل أن يستخرج ابن جنيّ وابن الأنباري " أصول " النحو " .

وهكذا يصبح التسلسل واضحاً للنظرة الأولى ! ، ولكن تقوم عند هذه النقطة ملاحظات تغرينا بترك التسليم بهذا التسلسل على علاّته وتثير تساؤلات عن أمثلة الكلام التي كانت تصدر عن العربيّ : هل كانت تصدر عن العربيّ ؟ هل كانت تصدر بلا " قواعد " تلقائية؟ وتساؤلات عن قواعد سيبويه لتلك الأمثلة : هل وضعها بلا "أصول" نظريّة استظهرها وصدر عنها ؟

ويعرض في سياق التداخل مثل التساؤل : هل تصدر " القواعد " عن أمثلة الكلام بالضرورة التلقائية كما تصدر أمثلة الكلام عن " النظام – المثال " الكامن في

---

(1) د/ محمود السعران : علم اللغة ص ٣٤٧ ، ٣٦٣ .

(2) V.N. Misra: The Descriptive Technique in Panini, Mouton the Hague-Paris 1966.

(3) N.Chomsky : Aspects of the theory of Syntax P.V, The M.I.T press, 1965.

عقــول أبــناء اللغــة، ثــم يكون الفرق بين المثال اللغوي الكامن في العقل ومجموعة القواعد التي تشكّل النحو ناتجاً عن تدخُل اللغة في الحالة الثانية ؟

وهــل يكون أمر العلاقة بين الأصول التي يصدر عنها النحويّ والأصول التي يســتخرجها أصحاب النظرية موازياً للعلاقة الأولى - علاقة القواعد التي يصدر عنها أبناء اللغة بالقواعد التي يستنبطها النحويّون - مع استعمال لغة المصطلحات ؟

إن الصورة التقريبية التي استوت ملامحها عن النظرية النحويّة تستمد من تلك المظاهــر الــثلاثة : أمــثلة الكــلام وكتب النحو وكتب الأصول، وتستند إلى التداخل المتكامل بينها .

إن الصعوبات الملاحظة في تدريس لسان ما يمكن أن تكون قرينة من القرائن أو مؤشــراً خامــاً يشير إلى أن القواعد النحويّة المعتمدة ليست لائقة ولا كافية بوصف ذلــك اللسان، ولكن هذه الصعوبات ليست دليلاً علمياً في حدّ ذاتها على عدم كفاية ذلك الــنحو المعــتمد. فإن أريد إثبات عدم ملاءمة تلك القواعد النحوية للخصائص الحقيقية لذلــك اللّســان الموصــوف وجــب إثبات ذلك بالرجوع إلى مقتضيات وصف الألسنة البشــرية أي جملة فرضيات متناسقة أو نظرية علمية [هي التي نسميّها علم اللسانيات] وهذا يقضي بتوضيح هذه الأسس والفرضيات .

ولقــد حدد تشومسكي مهمة عالم النحو - وهو بصدد مناقشة آراء يسبرسن - يقول تشومسكي : " إن الاهتمام المحدد للنحو هو أن يحدد طبيعة الفكرة التجريدية التي تمثل خيطاً رابطاً بين عالمي الأصوات والأفكار مع الاحتفاظ بالحقائق اللغوية الواقعية التــي تنظمها غريزة الكلام في كل مجتمع أو في كل أمة، وعليه أن يحدد طريقة اللغة الخاصــة في حل مشكلة الجمع بين عالمي الصوت والفكرة، وعلى مستوى أعمق من التحلــيل . وعلــيه أن يبحــث تأسيس المبادئ العامة التي تحكم هذه النظرة المجردة .

وعلـيه أن يبحـث تأسـيس المبادئ العامة التي تحكم هذه النظرة المجردة . وعليه أن يحاول استخلاص المبادئ الكبرى التي ترتكز عليها قواعد كل اللغات "(١) .

يعمد البنائيون – أصحاب المذهب البنيوي – إلى الطريقة المنطقية المألوفة في تحلـيل الكلمـات ؛ إذ تعاد إلى مكونات تعريفاتها، وهم يسعون إلى نتيجة تمنح إدراكاً للفونـيمات الأساسـية في معنى كلّ لفظة – خاصة عند أولئك الذين يرون أن أصغر جـزء في الدلالة ليس الكلمة، بل تفرعات أصغر منها – وبذا يطورون الفكرة القديمة، ويـربطونها بأخرى جديدة وهي [الاستبدال] وإمكانية تغيّر الدلالة وانتقالها من مجال إلـى مجـال آخر مع كل تبديل في تلك الفونيمات – أي أصغر الوحدات الدلالية غير القابلة للتحليل إلى أصغر منها .

ويـرى " هيلمسـليف " أن الـنظريات الفونولوجـية " علم وظائف الأصوات وتطبـيقاتها " يمكن أن تنقل إلى عالم " الدلالة "(٢). ويضرب المثل ههنا بالناقة = الإبل + الأنوثـة ، وتغيـير " الإبـل " بـ " الأسدية " . الأسدية + الأنوثة = لبوة ، وتغير "الأنوثة" فتغدو : الأسدية + الذكورة = السبع .

ولاشـك أن العربـية تتميز بخصائص تجعل التطبيقات فيها محفوفة بالمحاذير والمـزالق، فالاشـتقاق ومعانـي المشتقات تبرز أثناء تحليل مضمون الكلمات، وكذلك تسـتوقفنا الأفعـال ومـا لها من سمات في حياتها، ولقد رأينا فيما سبق صلة المنطق بالدراسـات اللغويـة العربية القديمة ، إلا أنّ هذا التناول المقترح يمثل محاولة مختلفة عمـا كان من قبل، وهو يأتلف مع طرائق أخرى لدراسة المعاني وتحليلها، وذلك بتتبع تطورهـا التاريخـي – في حدود العربية عندما يطبق عليها – ومناقشتها في سياقاتها ومواقعها في الكلام .

---

(١) Chomsky, Essays or form and interpretation, P. 28, North Holland 1977.

(٢) George Mounin La Semantique, P.P.39-42, Paris. Col clef, 2 meed, 1975.

وتعالج مشكلة الخطأ في اللغة على أنها في تاريخ الدراسة القديمة تعني تحكماً معيارياً لا ينظر إلى الاستعمال، ويحتكم إلى القواعد المدوّنة، والتي تقتصر على حدود زمنية سالفة . ويرغب بعض الدارسين في تحقيق جديد يبتعد بالأبحاث عن ذاك التحيّز للقـاعدة[1] ، وهـذا الرأي يقودنا إلى نقطتين في البحث اللغوي، الأولى منهما: مسألة التقعـيد والمعـيار المقابلة لما يسميه بعضهم[2] بـ " المنهج الوصفي " ، والثانية هي اللحن ، وهي تعدّ ركناً من أركان " الدلالة " في الحياة العربية اللغوية .

و " المسـتوى الصـوابي " لـدى بعض الدارسين لا يُعَدّ من خصائص منهج الـدرس اللغـوي، لأنــه – كما يرى ذلك الباحث – لا يخص اللغة وحدها، بل ينداح ليشـمل الأطـر الاجتماعـية الأخرى ويتكفل المجتمع بتطبيقه وفرضه على الأفراد، واتخــاذه مــرجعاً عند الخلاف، والاحتكام في الاستعمال، أي أنه يوجد في كلّ شؤون الـثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي [العادات والتقاليد واللغة والملابس ... إلخ "[3]، وإننا نعـرض لهـذا كيما نميز هذه الفكرة عما نوجه النظر إليه في تأصيل مشكلة الصواب والخطـأ، فالأمـر إنمـا يـتعلق بالإحكام العلمي الذي يمنحه التفكير الفلسفي والدرس المنطقي عند المصنفين في العربية، فالمترجمات على اختلاف أشكالها بين مختصر أو مطـوّل، أو شـرح لأصول يونانية أو سريانية داخلت المواد المدروسة التي تصب في قـنوات جديـدة لابـدّ لها من انضباط وترتيب، كذلك إن الحياة العقلية الإسلامية بلغت مراتب عالية من مراجعة الأشياء جميعها، والتصرفات والأفكار على أساس مما قدمته العقـيدة، فهناك دائماً الصحيح الموافق، والمتجانف عن السويّة السليمة، فهذا يمثل نحواً مـن الـتكامل في الحياة والتفكير، وإن التصنيف في العلوم لا يخرج عن الإطار العام لهما .

---

(1) د/ محمد فرج عيد : مستوى الصواب والخطأ، رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم، القاهرة.

(2) د/ محمد عيد: في أصول النحو العربي ص ٦٦، عالم الكتب، القاهرة ، ١٩٧٣م .

(3) د/ تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٢٦٧، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨م.

وحرصنا على إظهار الفرق بين الفروع العلمية يحتمه المنهج العلمي، ولكن التنقيب في المادة العربية القديمة يجعل من الصعب وضع النتائج الحديثة للتقسيم على أنها فاصل دقيق في المعالجة؛ إذ كانت جهود علماء اللغة متداخلة في كثير من الأحيان، ومتبادلة التأثير فيما بينها .

إن النتيجة المستفادة تكمن في إدراكنا لجدلية العلاقة بين المعرفة والحياة من حولها ، فهي لا تثبت على حال واحدة، بل تتحرك متجددة حتى الأبحاث اللغوية والدراسات الأدبية لابد لها من أن تجمع بين الأصالة القديمة واللبوس الجديد، وإلا آلت إلى حدود مجردة كما هي عليه الآثار العتيقة في الكتب المتأخرة في العصر الوسيط العربي . وإن ما نراه من الاشتجار بين علم الأصوات اللغوي، وعلم الصوت الفيزيائي نموذج لما نشير إليه؛ لأنه في نهاية المطاف يعود بالتحسين على طرائق التعليم والخبرة اللغوية .

وعلم الدلالة فرع جديد نسبياً – جزءاً مستقلاً لا أبحاثاً ودراسات متفرقة – ويفيد من معطيات علوم عدة وينعكس على أنظمة – التعليم والترجمة ووسائل الاتصال الرمزية والفنية من الرواية والمسرحية وشريط الخيالة والتلفاز .

ويتطلب المنهج العلمي الحديث زيادة وتفصيلاً في جوانب غير التي كانت تكتفي بها المدرسة التقليدية ، فبعض اللغويين الأوروبيين ينصُّ على أن جهد الباحث الاشتقاقي الحديث لم يَعُدْ يقتصر على إيجاد الأصل الذي تقود إليه الكلمة [أو كلمة مركبة] ، بل إن النظرة الحديثة تقود إلى تتبع الكلمة في كل فترة زمنية كانت فيها جزءاً من اللغة، وفي كل نسق من العلاقات كانت داخلة فيه دون التوقف عن وضع الأسئلة التي تكشف الاشتقاق [التقليدي] .

وأول مجموعة من العلاقات هي التعلق بوحدات الحقل الدلالي الذي تتصل به الكلمة، وتشير العبارة الأخيرة إلى الدراسة البنيوية المجددة . وإذا ما أردنا مناقشة [الاشتقاق] العربي في ضوء الاتجاه التاريخي – كما يراه دارس الفرنسية – فإننا لا

نكاد نجد مواضع الالتقاء إلا إذا أردنا تحليل المادة الفصيحة في أطوارها الأولى، وفي حياتها الجاهلية القديمة، ذلك أن الصيغ والقوالب الصرفية والاشتقاقية لا تقبل التصرف بها، بل إنها تحتفظ بخصائص تشترك في دلالة المادة التي تتشكل ضمنها .

وتقليبنا صفحات الدواوين والمعاجم والكتب يثبت أن الصيغة لها شكل لا يتغير، وأن التطور الطارئ على اختصاص هذه الصيغة – أو تلك – بوظيفة معينة طفيف وأمثلته قليلة يورد بعضها المستشرق " فليش " من وجهة نظره ؛ إذ يقول " إن صيغة فعّال التي لم تكن في لغة الشعر القديمة ، وفي لغة القرآن سوى اسم فاعل للمبالغة – قد تحولت بتأثير الآرامية إلى التعبير عن أسماء الحرف : نجّار، بنّاء ، فخّار ، وزادها القياس في هذه الوظيفة التعبيرية الجديدة خصوبة وسعة حتى لتستعمل لقباً : كلاّب : مربي الكلاب ، جمّال : حادي الإبل ، كل هذه الأمثلة لأسماء الحرف "فعّال" لا تلحظ فيها أي علاقة بسلسلة الاشتقاق "[1]، ولكننا نخالف هذا الرأي ؛ لأن الوشائج غير خافية بين المبالغة والكثرة في صيغة " فعال " ، والاختصاص بحرفة – تقوم على دوام العمل في ضرب محدد من الأنشطة مما يبرز صورة التكرار والتكثر خاصة عندما نعلم إن الانتشار المشار إليه لم يتم إلا بعد التطور الذي شهده المجتمع العربي الإسلامي باتصاله بالأمم الأخرى وبنمو مظاهر الحضارة .

وثمة مثل آخر يسعى فيه " فليش " إلى إثبات إمكانية تطور بعض الصيغ فيتبعها – من ثم – تغير في مجالها فيقول " وليس مما يدعو إلى الدهشة أن نجد كلمة [يبرود] – وهي اسم بلدة سورية – وهي فعل قديم قد أصبحت اسم ذات بما طرأ عليها من طول في أحد مصوتاتها، والفعل من هذه الكلمة ذاتها هو يبرُدُ .

([1]) هنري فليش: العربية الفصحى ص ٧٩ ، ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ، الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٥م .

وكـــان مـــن الطبيعي وقد دخلت هذه الكلمة في نطاق الأسماء أن يطرأ عليها طـــول فـــي أحـــد مصـــوتاتها [الثانـــي] ، وربما كان ذلك لغاية بيانية نظراً لبرودة شتائها"[١].

وأعتقد أن حديث " فليش " ههنا قد جانبه الصواب إلى حدٍّ كبير، فانتقال الصيغ الفعلـــية إلـــى الأســـماء معروف في أمثلة ونماذج قديمة [أحمد ، تغلب ، يزيد] وهي محـــدودة، وتحرى تعليلات القدماء في كتب الاشتقاق أو الأسماء قد يوضح السبيل في حـــركة الصـــيغة تاريخـــياً، إضافة إلى أن الاسم المتناول ينتمي في الغالب إلى أصول آرامـــية / ســـريانية ، على الرغم من توافق الفعل والتسمية بين العربية وتينك اللغتين الساميتين[٢] .

وتعـــرف المنطقة الجغرافية التي تقع فيها البلدة بالبرد الشديد معظم أيام السنة [مـــنطقة القلمـــون وسط سورية بين مديني دمشق وحمص] ، مما جعل البرد والمكان الآهـــل مقترنين، ومن الظواهر اللغوية بين أهل المنطقة مَدُّ حركة الضم في الكلمات، وقـــد تكـــون هـــذه الظاهرة قديمة فتحملنا على تصور لتغير في الصيغة ثم تحوّلها من الفعلـــية إلـــى الاسمية فيقولون : يبرد ثم – بالمد – يَبرود : أي كلُ من يقيم هناك يبرد برداً شديداً ، ومن ثم التصقت اللفظة محرفة بالمواضع " الأكثر شهرة على أنه موضع ســـكن " ، وتمكنـــت مـــن مكانـــتها في الاستعمال، وهناك أمثلة أخرى مثل : يقطين ، وينبوع ، ويعقود .

ونحـــن نـــرى أن النشـــاط الأوربي للبحث عن أصول كلماته وكيفية صياغتها تطوريـــاً وتاريخـــياً يقابلـــه عندنا الجهد الذي يمكن بذله في تفسير العديد من الصور والأوزان والاشـــتقاقات، وذلـــك بالتنقيب في النصوص القديمة والإشارات مع المقارنة [المتأنية] باللغات السامية، وإن غياب بعض الأصول في العربية المدونة [التي وصلت

---

(١) قاموس سرياني/ عربي ، كوستاز [لويس] ٣٧ ط الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٣م .

(٢) انظر قاموس سرياني/ عربي : كوستاز ص ٤٠٩ .

إليــنا] قــد يقابله استعمال في العبرية القديمة مثلاً أو المدونة [التي وصلت إلينا] قد يقابله استعمال في السريانية ، وإننا نستعمل " تَلمَذَ " صيغة فعلية ولدينا الاسم : تلميذ ، أمــا الثلاثي فغير معروف إلا أنه موجود في السريانية[1] ، وقد يكون للتحكم المعياري هـهــنا مكانــة لا ينال منها كثيراً النقد الموجه إلى الدرس الأوربي، وذلك لاختلاف في طــبائع اللغــات، والنقلة التي تُحول أو تحوّر يجب أن توزن بالقيم الصرفية الاشتقاقية العربية .

وأمــا المصــطلح الآخــر المتداول في علم اللغة ودراستها فهو **derivation** الاشــتقاق القياسي، وهذا الإفراد إنما هو لواحد من استعماليه، فهو يطلق أحياناً ليرادف الاشــتقاق التاريخــي، فيعنــي بهذه الصورة العامة تطور صياغة الوحدات المعجمية، والغالــب علــيه أن يفيد: طريقة صوغ الكلمات بإضافة اللواحق والسوابق على جزء ثابــت [**radical**] وبــذا يقــابل ضــرباً آخــر مــن أبــواب الصياغة هو التركيب **composition** ، وقد تضاف أنماط فرعية تلحق بالاشتقاق القياسي الرئيس كأخذ الفعل من الاسم **border- bord** .

وهذه الصياغة الإلصاقية قد تكون من حيث الشكل أقرب إلى الإطار الاشتقاقي العربــي مــع فروق جوهرية ، فالإلصاق يحفظ [الثابت] المشترك على حالته ، وقد يضيف تلك السوابق واللواحق على أي جديد ويجلبه، بينما تتميز العربية بحيوية الأبنية وحركــتها بإضــافة الأحرف الزائدة بين حروف الأصل مما يشعر بابتناء هذه الأشكال وفــق خصائص في القالب يتفاعل مع الدلالة التي يحملها، وكذلك نلاحظ أن ثمة حدوداً لانطلاق الاشتقاقات من المصادر أو الأصول وسبكها على هيئة تتوالى بعدها الصيغ.

ويقــول فلــيش " هذه المفردات – وأخوات لها – تكوّن ما نطلق عليه : أسرة الكلمــات؛ إذ إن لها جميعاً [ثابتاً] مشتركاً ... وهذه المجموعات من أسرات الكلمات

---

(1) انظر قاموس سرياني ، كوستاز ص ١٧٣ .

إنما تكشف عن ميكانيكية لغوية، ولكن تبقى بالنسبة إلى الاستعمال العام تدريبات يصفها النحويون أو المدرسون؛ لأن الثوابت المستنبطة ليست سوى وحدات نحوية قلما يكون لها واقع في وعي الفرد المتكلم " [١].

ويلتفت " فليش " إلى الطريقة العربية الاشتقاقية فيعطيها ميزاتها في الصياغة "فالنظام العربي نقيض ذلك – الإلصاق – تماماً ، إنه يستعمل أصلاً لا جزءاً ثابتاً، والأصل مكون من صوامت [صوامت فحسب] تتصل بمجموعها فكرة عامة أقل أو أكثر تحديداً، ويتم تحويل هذه الفكرة إلى الواقع في كلمات مستقلة بالمصوتات التي توضع في داخل الأصل: فالمصوتات إذن هي التي يعبِّر عنها الأصل "[٢]. وإن فليش يضيف في فقرات لاحقة ضروب الزيادات الأخرى من الحروف الصامتة سواء بالتضعيف أو الإدخال[٣] .

وإننا في دراستنا للتطور الدلالي – وعُظْم مادته قديم : جاهلي أو إسلامي متقدم – نفيد من نتائج هذه الآراء النظرية في الاشتقاق وأبعاده في البحث اللغوي العربي كي لا تتداخل المفهومات – العلمية بشكل يؤدي إلى الاضطراب، فالمقارنة تجدي عندما لا تصطدم بالحقائق الأساسية وتعطلها .

فما هو – على صعيد فلسفة العلم ونظرية المعارف – المحصول المبدئي الذي جاءت به اللّسانيات في تعريفها للغة إذا ما قورن بما استقر عليه العرف لدى روّاد الفكر اللغوي القديم وقد أجملنا القول فيه .

---

(١) هنري فليش : العربية الفصحي ص ٥١ – ٥٢ ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٥م .

(٢) السابق نفسه ص ٥٢ .

(٣) السابق نفسه ص ٥٦ ، هنري فليش ص ٥٦ .

لقـــد خرجت اللسانيات باللغة من دائرة عدّها ظاهرة انعكاسية كالكتلة من القيم تصـــدر عـــن ذاتها لتعي نفسها بنفسها وهو مدار تعريف الكلام من زاوية علاقة اللغة بالفكـــر، وحيث فكّ هذا الحصار المتوارث فإنّ اللغة أصبحت تتنزّل قبل كلّ شيء في إطارهـــا الأدائـــيّ الذي هو الحوض الحيويّ لها، ويمكن أن نقدّر على هذا الأساس أنّ اللســـانيات قد أبرزت تعريف اللغة بوظيفتها التي هي الإبلاغ، ثم لما عملت على تفسير تحقـــق هـــذه الوظـــيفة انكبّـــت على فحص المقومات التكوينية فأردفت إلى التعريف الوظيفي تعريف اللغة بنيوياً فاكتملت حلقة الدائرة منطقياً من حيث أسس الحد .

فاللغـــة تعـــرّف كلـــياً بالغاية التي تتحقق بواسطتها، وبهذا الاعتبار ينتفي كلّ تصـــور للغـــة أو إدراك لهـــا إلاّ فـــي سياق ترابط يَعقِد بين طرفين يتحاوران بالكلام ويتفاعلان فيه .

وإذ تُعـــرَّف اللغة بغايتها ينتقض في حقّها أن تكون هي نفسها غاية : إنّما هي وسيلة أداء، هي مطيّة تركبها الرسالة الدلالية الجامعة بين شخصين على أقلّ التقديرات العدديّة .

وهكـــذا كفّـــت اللغة عن أن تكون ماهيّة مجردة وأصبحت ظاهرة بشرية شأنها شأن سائر الظواهر الإنسانية غير المادية ، كما كفّ الفكر البشري عن عدّها " روحاً " يتجسّد في الكلام الذي هو الاستعمال التعبيري لها .

المعارف اللغوية وظواهر اللغة :

من أهم مبادئ العلم الحديث أن يفرق بين نوعين من الأحكام التي ينتهي إليها، أولهما : الأحكام التي تتعلق بموضوع خاص، وثانيهما : تلك التي تتعلق بموضوع عام يشمل عدداً من الموضوعات الخاصة المتشابهة .

وعبارة العلم الخاص تعني مجموعة الأحكام والحقائق التي تنطبق على أي موضوع من الموضوعات المشتركة في النوع .

ويختلف العلماء المحدثون عن سابقيهم في أن هؤلاء الآخرين كانوا أكثر اهتماماً بالوصول إلى الأحكام العامة منهم بتحليل الموضوعات الخاصة والدراسات التحليلية الموضوعية من أغنى ثمرات العصر الحديث .

وهكذا ترى أن العلم الحديث يعترف بأنه عاجز عن الوصول إلى أحكام الكون العامة ، وأن وسيلته للحكم العام هي أن يعرف الحقائق التي تتعلق بالأشياء الخاصة، وستكشف له هذه الأشياء الخاصة عن قوانين ، تحكمها قوانين أشمل منها كذلك .

وقد يأتي اليوم الذي يصل فيه العالم الحديث إلى القانون الشامل، ولكنه يستطيع الادعاء بأنه قد كشف عن حقيقة الكون، أو حقيقة جزء من أجزائه أو مظهر من مظاهره بمجرد الملاحظة .

ولقد مرت الدراسات اللغوية بأدوار عديدة وانفعلت بتيارات عقلية متنوعة، منها المحافظ ومنها المجدد، ومنها ما تأثر بالأفكار الدينية ، ومنها ما تأثر كذلك بأساليب البحث العلمي الحديث، الذي تعددت فروعه منذ عصر النهضة والذي يقفز اليوم إلى آفاق واسعة في سرعة تجعل من الشاق على اللغوي متابعته والإلمام به . ومن أجل ذلك نزعت الدراسات اللغوية إلى التخصص وانتهت إلى مقررات منهجية وموضوعية .

إن المــنهج الصـــالح فـــي دراسة اللغة هو المنهج الاستقرائي الوصفي الذي يعــترف بأن اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية كالعادات والتقاليد والأزياء ومرافق العيش، بــل هـــي بين الظواهر الاجتماعية كلها دليل نشاطها ، ووعاء تجاربها، وبها تستقصي الملامح المميزة لكل مجتمع[١].

لا شـــيء فـــي الحياة يؤكد خصائص المجتمع، ويبرزها على وجهها الحقيقي كاللغـــة المـــرنة المطـــواع التي تعبر بألفاظها الدقيقة الموحية عن حاجات البشر مهما تتشعّب، حتى تصبح الرمز الذي به يعرفون، والنسب الذي إليه ينتسبون[٢] ! .

هذا المسلك الاجتماعي الذي لا تزال اللغة الإنسانية تسلكه في أرقى المجتمعات وأبسطها يسمح لنا بتوسيع المجال أمام العرف لتحديد مقاييس اللغة ومعايير استعمالها ، فـــلا قيمة للأصوات والكلمات والصيغ والتراكيب إلا بمقدار ما يتعارف المجتمع على أنها رموز للدلالة .

" أليســـت هذه الألفاظ العامة التي نستعملها : كالشجرة ، والإنسان ، والبشرية، والحـــرية، أشبه بالرموز الرياضية ؟ أليست أشبه بالنقود التي يرمز بها إلى القيم ؟ أو لم تكن الرموز الرياضية والاقتصادية وسيلة للرقي في الميدانين الفكري والاقتصادي؟ وكذلك اللغة ، فهي لم تقتصر على كونها معبرة عن التفكير، بل كانت كذلك أداة نمائية وارتقائه ... "[٣].

لقـــد ظل العالم غافلاً عن تلك الرموز اللغوية حتى أواخر القرن السابع عشر، فكان يحاول تأويل نشأة اللغات في بساطة حتى أوشك كثير من العلماء أن يجزموا بأن العـــبرية لغة الوحي ، هي لغة الإنسانية الأول التي تشعبت منها لغات العالم المعروفة كلها .

---

(١) Block and trager : outline of Linguistic Analysis, P.5 .

(٢) J. Vendryes : Le Langagee Paris, 1923 .

(3) محمد المبارك : فقه اللغة، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٧٧-١٣٧٩هـ/ ١٩٥٨م – ١٩٦٠م .

لقــد بــات لــزاماً علينا تجديد البحث في دراسة اللغة، فليس يعنينا أن نتقصى أصل اللغة الغامض المجهول، وليس علينا أن نعلل كل صوت لغوي أو رمز دلالي أنه علــى وجه الحكمة كيف وقع، وبأي لغة يُنطق، بل يعنينا أن نتابع التطور اللغوي كيف حــدث ؟ بعد إحصائه واستقرائه وملاحظته ومقارنة بعض مظاهره ببعض، وعلينا أن نــبدأ بجمع ما يمكننا من الخصائص عن اللغات الإنسانية المختلفة لنخرج أخيراً بالسنن العامــة والقوانيــن الثابــتة فــي علــم اللغة العام ؛ وفي ضوئها نحدّد خصائص لغتنا المدروسة بطريقة وصفية استقرائية كصنيعنا في دراسة اللغة العربية .

لقــد كــان للعالم اللغوي [فرديناند دو سوسير] فضل التمييز بين مصطلحين للدراســة اللغوية ، هما المنهج التطوري، والمنهج التزامني، ويقصد بالأول البحث في الظواهــر وفقاً للتطور الزمني المتعاقب، ولذا يقرن به مصطلح آخر هو : التاريخي ، ويقصد بالآخر دراسة مختلف الظواهر في مدة زمنية محددة، ويُطلق على هذا المنحى : الوصــفي ، إلاّ أن ثمــة محاذير تجعل استعمال ما حدّده دو سوسير هو الأكثر دقة، ومــن ثــمّ غدا متعارفاً عليه في الأبحاث اللغوية في المعاهد والمراكز العلمية . وكان العلمــاء قبل ذلك، أي ما قبل المحاضرات التي ألقاها هذا العالم ثم طبعت في كتاب مع مطلــع هــذا القــرن [١٩١٥م] يقبلون على الدرس التاريخي التطوري، ولا يكادون يغادرونــه إلــى ســواه، لذا فقد عرف علم اللغة هذا التيار وكثرت المباحث فيه، ويُعد القســم التطوري من الأقسام الناضجة والمستقرة، وتنعت أحياناً بالتقليدية إذا ما قورنت بالــنزعات ذات الاتجــاه البنــيوي الــذي لم يطوّع بالدرجة الكافية في الدلالة، بحيث تســتخرج القوانيــن والأحكام العلمية كما هو الشأن في علم الأصوات، وعلم وظائف الأصوات، وعلم التركيب اللغوي .

وإنــنا إذ نذكر جهد دو سوسير ههنا في توجيهه لعلم اللغة نحو مرحلة تنوعت فــيها الجوانب ولم تَعُدْ قاصرة على تحكيم النظر التاريخي والاشتقاقي، إنما نقصد إلى إبراز قِدَم النظرة التاريخية والتطورية .

إنــنا بحاجــة إلى التعمق النظري في [التطور] ، ثم إنشاء أبنية تفصل قضايا اللغــة العربــية القديمــة والمحدثة، ومسائل الأدب في النتاج الشعري، وفي الضروب النــثرية مــنه، وهــناك العديد من المشكلات الدائرة حول المعاجم ومناهجها، كلّ هذا يتطلب تركيزاً على موضوعات الدرس اللغوي الحديثة، واعتماد هذا المنهج منطلقاً لنا، ومحــوراً أساســياً؛ لأن أيّ تقــدم سيؤســس على نتائجه ، فاللغة العربية تتميز بأنها [فصحى] أي بمصطلح الأوروبيين [كلاسية مستمرة] مع تغيّر وتطور ضمن حدود لا تجاوزهــا، بيــنما الأمــر مختلف في معظم اللغات الحية، التي يمكن نظرياً أن تتغير صــفحة وجههــا بشكل يباين الثاني سابقه مباينة كبيرة تقربُ من أن تكون لغة أخرى [بَعْــدَ أمد] ، وإن أكثر العناصر اللغوية قابليّةً للتغير في اللغات الإنسانية هي دلالات المفــردات ، وذلك كما يقول " فندريس " في كتابه " اللغة " : " فالمفردات على العكس مــن الــنظام الصوتي عند الفرد، لا تستقر على حال ؛ لأنها تتبع الظروف، فكل متعلم يكــوّن مفــرداته من أول حياته إلى آخرها بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به، فالإنسان يزيد من مفرداته، ولكنه يُنقص منها أيضاً ويغير الكلمات في حركة دائمة من الدخول والخروج "[1].

ويُعــدُّ كــلام فــندريس هــذا مقدمة للمفردات ودلالاتها في اللغة عامة . وإن المعــارف الأجنبية الحديثة تسدي إلينا النفع عندما نسترشد بها لاستخراج أدوات العمل الجديــد ومناهجه من خلال التراث نفسه، والمزاوجة دائمة لا تقف عند أي من القطبين : الأصالة، وروح العصر ومعطياته التي تتقدم دوماً .

والمصطلح [شكلي **Formal**] يراد به : معايير أو خصائص لغة ما يمكن أن تســتعمل في التحليل اللغوي أساساً لتصنيف وحداتها وأنماطها أو نماذجها ، مثل: صيغ الكلمات أو نماذج الجمل أو ترتيب عناصرها .. إلخ .

---

(1) فندريس : اللغة ص ٢٤٦ – ٢٤٧ ، ترجمة الدواخلي وقصاص .

واللغويون قد يقابلون الخصائص الشكلية بالخصائص الدلالية، وفي هذه الحالة تكـون كلمـة [شـكل] مقابلة لكلمة [معنى] ، وقد يقابلون الخصائص المادية للغة المنطوقة أو المكتوبة، وفي هذه الحالة تكون الكلمة [شكل] مقابلة لكلمة [مادة] [1].

لعـل أهمّ مناهج البحث في اللغة، المنهج المعياري التقليدي، والمنهج الوصفي الاسـتقرائي. وإذا كـان المنهج الأول قد ساد الدراسات اللغوية القديمة، وبخاصة في اللغـة العربية منذ نشأته في اليونان على أيام أرسطو حتى أواخر القرن الماضي، فإن الثانـي يعـد المـنهج الأكثر أهمية وموضوعية ، والأكثر جذباً للانتباه والدراسة في العصـر الحديـث. أما تسميته بالمنهج الوصفي التقريري الاستقرائي ، فقد جاءت ردّة فعل على المنهج التاريخي التعليلي المعياري القديم، الذي كان مسيطراً على الدراسات اللغوية العربية والأوربية .

نشـأ المـنهج الوصفي عند الغربيين[2] في أوائل القرن الماضي ، وأخذ ينمو ويـتطور تطوراً سريعاً في السنوات الأخيرة، فكثرت البحوث فيه، وتشعبت الدراسات التطبيقية بشأنه .

---

(1) F.P. Dinneen, An Introduction to General Lingustics P.P 67,68, Holt, Rinehar and winston, New York, 1971.

(2) انظر مثلاً: د/ علي عبد الواحد وافي : علم اللغة .

د/ كمال بشر: دراسات في علم اللغة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م، وعلم اللغة العام، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١م .

د/ إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧١م. ودلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م.

د/ ريمون طحان: الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢م .

د/ عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٧٩م .

د/ عبد الصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٠م .

وعــندما اطّلــع الدارســون عندنا على هذا المنهج بدءوا يكتبون فيه محاولين تطبيقه على دراسة اللغة العربية . كل ذلك أدّى إلى إعادة النظر في المعطيات اللغوية، وبخاصـــة المفاهيم الأساسية العائدة للدراسة اللغوية [مفهوم الكلمة والجملة والصرف والتركيب .. إلخ] .

ومــا أســلفناه مــن ســيطرة منزعين منهجين على الحركة العلمية في القرن الماضـــي – وهمــا مــنزع الوعـــي بنواميس الصيرورة التاريخية ومنزع البحث عن القوانيــن المــتحكمة فـــي نظام الظواهر عبر حركة التاريخ – نراه ينطبق على العلوم اللغوية إذ ذاك، بل لعل هذه العلوم هي التي استوعبت على أكمل وجه ذينك المنزعين، ففـــي حيــن نراهما متفاوتين في تأثيرهما وفقاً لانتماء القطاع المعرفي إلى حقل العلوم الطبيعـــية نراهما منصهرين تماماً في ميدان البحوث اللغوية طيلة القرن التاسع عشر، وهـــذا ما جعل المؤرخين اليوم يسمون تلك البحوث غالباً بـــ " اللسانيات التاريخية " ، فإن راموا التدقيق أطلقوا عليها مصطلح اللسانيات المقارنة .

ولئن خرج عن مقصدنا الإفاضة في مضمون علوم اللغة كما سادت في القرن الماضـــي – وهـــو ما غدا اليوم من شائع المعرفة بين المختصين – فإن إلحاحنا على طابعها المنهجي المميّز هو الذي يبرز لنا أولاً مقوماتها الأساسية، ويعيننا ثانياً على أن نتبيّن بالمفارقة ما ارتكزت عليه اللسانيات المعاصرة في فلسفتها المنهجية .

والحقـــيقة أن ما أفاض فيه اللغويون من دراسات النحو المقارن كشفاً للقرابات اللغويـــة وتصـــنيفاً للألســـنة البشرية بين أسر وفصائل ، وإحكاماً لشجرة الأنساب عن طـــريق التدرج السلالي بحثاً عن الأصل الأوحد المضفي إنما كان امتثالاً أميناً لتصور مبدئي يخص علاقة الإنسان بالوجود والكون والطبيعة والتاريخ مما طفت فقاقيعه على ســـطح الوعـــي الفلسفي والعلمي والاجتماعي فأثمر ظواهرية هيجل ، ومادية ماركس، ووضعية كونت، واجتماعية دوركايم ،وتطورية داروين .

إن منزع البحث التاريخي في مسلكه المقارن قد استوى بيّنا على يد اللغوي فرانز بوب ، ثم استقام متكاملاً على يد شلايشر ، فكيف ترابطت أسس الفكر اللغوي في أبعاده المعرفية العامة ؟

لاشكّ أن القرن التاسع عشر قد كان وريث مخزون فكري يمتد على قرون تعود جوهرياً إلى التراث الأرسطي ، ومن خلال التطرق لقضية موضوع العلم تحول الضابط المعرفي بين المعيار والاستعمال أن القدماء كانوا يعدّون كلّ تغيير يطرأ على قواعد اللغة يعدّ انتهاكاً لأبدية قوانينها، وهذا ما يفسّر النظرة الصفوية التي طبعت هذا الفكر اللغوي في أبعاده الإنسانية عبر كل الحضارات، وكان الرأي المطرد حول وظيفة اللغة يتمثل في أنها تعمل على كشف ما في الفكر البشري من معان وتصورات، وذلك ما جعل وظيفتها التعبير عن عملية التفكير بما يفضي إلى تطابق مضمون اللغة مع الفكر ذاته، وعدّ الأقدمون الكشف عن مخزون العقل هو علّة وجود اللغة .

لقد حقّق المنهج التاريخي المقارن فوائد جمّة ، ومن طريف ما حصل أن جل الثمار المتأتية منه قد تحققت بالصدفة أكثر مما تحققت بالقصد، بل إن الفكر اللغوي خلال القرن التاسع عشر قد أثمر مكتسبات معرفية لم يقصد إليها من حيث لم يدرك ما كان ساعياً إليه، ويكفي أنه بعد كدّ طويل قد انتهى إلى رسم شجرة الأنساب بين أهم الألسنة البشرية في خريطة تعتمد التعاقب السلالي بمختلف انسلاخاته، ويكفيه أنّه على صعيد التنظير المنهجي قد أتاح الجزم بأن تغير اللغة لا يتعلّق بإرادة الإنسان بقدر ما هو وليد اقتضاء داخلي في ذات اللغة، ولئن اطرد الظن بأن الإنسان يغيّر اللغة فإنه أصبح من الاعتقاد الجازم أن اللغة هي بنفسها تتغير، ومعنى هذا أن تبدل الألسنة تحكمه علل طبيعية أكثر مما تستثيره الأسباب الحضارية .

والمهم بالنسبة إلينا هو التأكيد على ما زعمناه من أن البحث اللغوي قد مثل الصورة المتكاملة للمناخ الفكري الذي نشأ فيه، ذاك الذي قد أذعن في الوقت نفسه

لمــنزع الوعــي بصــنيع التاريخ في صيرورة الإنسان ولمنزع البحث عن النواميس المســيطرة على هذه الصيرورة، وليس للإنسان من هويّة إلا بفضل بعده اللغوي وليس للتاريخ من ظواهر إلا في خضم جدل العقل الذي مادته وموضوعه من اللغة .

فمــن خلال اللغة يستنتج علم اللغة قوانين موضوعه، فعلم اللغة يجب أن يهتم بوصــف وتــاريخ كل اللغات [سانكروني / دياكروني] فعليه أن يستنتج قوانين عامة انطلاقــاً مــن اخــتلاف اللغــات، فاللغات نظام من الدوال [الرموز] ترتبط بطريقة اعتباطــية، ونحاول التعرض لبعض المفاهيم التي ناقشها سوسور في [محاضرات في علم اللغة العام] ، فقد قدم هذا الكتاب للغويين مجموعة من المصطلحات الجاهزة التي درس بها سوسور اللغة .

لقــد حــدث تطــور خطــير في تاريخ الدرس اللغوي حين تم اكتشاف اللغة السنســكريتية لغــة الهــند المقدسة، على يد سير وليم جونز **Sir William Jones** ، ووجد الأوربيون في التراث الهندي الكثير من الدراسات العلمية الدقيقة المنظمة، وهي دراســات تعــتمد على " المنهج الوصفي " **Descriptive Method** الذي لم يبن على أســس من المنطق، وإنما اهتم بالنظر في الاستعمال اللغوي وتسجيله وتحليله على نحو مــا ورد فــي الــنص، دون الإغراق في الجدل، أو الخوض في التعقيدات والتعليلات الفلسفية والمنطقية .

وبــدأت الدراســات اللغويــة الحديثة بمقارنة اللغة السنسكريتية باللغة اليونانية واللغة اللاتينية ؛ لذلك من الطبيعي أن نقول إن " علم اللغة " بدأ عمله العلمي بالدراسة المقارنة باللغات الهندية الأوربية **Indo European** في القرن التاسع عشر .

وقــد أشــار اللغوي السويسري دي سوسير **Ferdinand de Saussure** إلى المــراحل التــي مــر بها الدرس اللغوي فيما ورد في محاضراته تحت عنوان " نظرة حــول تاريخ علم اللغة " ، ورأى أنه مر بثلاث مراحل قبل أن يحدد موضوعه الحقيقي الصحيح، وتلك المراحل هي :

١- دراسة ما يندرج تحت مصطلح " النحو " Grammar ، وقد نشأت تلك الدراسة مع اليونان، وسيطر عليها التفكير المنطقي، وكان هدفها إعطاء القواعد التي تفرق بين الصواب والخطأ حين استعمال الصيغ الإعرابية ؛ لذلك نستطيع أن نقول عنها إنها دراسة " معيارية " لم تهتم بالملاحظة الفعلية للواقع اللغوي .

٢- ظهور مصطلح Philology في مرحلة مبكرة، وهو يهتم بالدراسة اللغوية للنصوص في ضوء بعض الأصول والتقاليد العتيقة التي تعود إلى مدرسة الإسكندرية القديمة، وقد أخذت تلك الدراسة في الازدهار في أوربا في القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين . ونشير إلى أن مصطلح " فقه اللغة " Philology قد ارتبط في بدايته بالحركة العلمية التي قام بها وولف Friedrich August Wolf سنة ١٧٧٧م ، واستمرت حتى عصرنا هذا، ولكن " اللغة " لم تكن الموضوع الأساسي للدراسة؛ لأن فقهاء اللغة الأوائل اهتموا بتحقيق النصوص القديمة لإجراء بعض البحوث عليها، وخاضوا في بحث التاريخ الأدبي، والتاريخ الاجتماعي، وإن كان الفضل يعود إليهم في التعرف على الخصائص اللغوية للعصر وبعض الكتّاب والشعراء في ضوء النصوص القديمة باللغات الأوربية، خاصة نصوص التراثين اليوناني واللاتيني .

٣- اكتشف اللغويون إمكان مقارنة اللغات فيما بينها، وكان ذلك بداية جديدة في البحث اللغوي تعد الأصل أو الأساس لما يسمى بـ " فقه اللغة المقارن " Compartive Philology ، وهي تدين بالفضل للسير وليم جونز الذي اكتشف اللغة السنسكريتية على نحو ما أشرنا، فقد درس بوب Franz Bopp [١٧٩١- ١٨٦٧م] سنة ١٨١٦م في مؤلف عنوانه " نظام التصريف في

اللغة السنسكريتية " العلاقات التي تربط تلك اللغة باللغات الجرمانية واليونانية واللاتينية وغيرها .

وقد استمر الدرس اللغوي في تطوره، ولكن كانت هناك ظاهرة واضحة في القرن التاسع عشر شكلت حدود فقه اللغة، وأدت إلى التمييز بينه وبين علم اللغة فيما بعد ، هي أن دراسة السنسكريتية كانت أساس البحث اللغوي، وكان دارس اللغة يشرح أية ظاهرة لغوية أوربية في ضوء السنسكريتية دائماً، وعالم فقه اللغة المقارن الذي يجهل تلك اللغة شأنه في ذلك شأن عالم الفلك الذي لا يعرف الرياضيات .

وإذا كان دي سوسير قد أرخ للدرس اللغوي في المراحل الثلاث السابقة، فإن علم اللغة **Linguistics** بدأ يأخذ مكانته بعده علماً **Science** على يد دي سوسير نفسه؛ وذلك في محاضراته التي ألقاها في جامعة جنيف بسويسرا في السنوات [١٩٠٦ – ١٩١١م] والتي نشرها تلاميذه سنة ١٩١٦م بعد وفاته بثلاث سنوات تحت عنوان **course de Linguistique generale** ، وصدرت له عدة ترجمات إلى العربية بدءاً من سنة ١٩٨٥م .

عرف الأوربيون دراسة النصوص القديمة وبخاصة النصوص المقدسة منذ قرون عديدة، وفي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، أخذوا في استعمال كلمة **Philology** [فيلولوجيا] للدلالة على دراسة النصوص المقدسة . وهي صيغة يونانية الأصل مركّبة من لفظين : **Philo** = حُبّ ، **logos** = كلمة " حب الكلمة أو اللغة " تردّدت كثيراً في أقوال رجال الدين المسيحي بنوع خاص بمعنى تفسير الكتاب المقدس **Philologia Sacra**، وانتشرت في بعض البيئات الأوربية ثم نُقل اللفظ إلى الإنجليزية **Philology** والفرنسية **Philologie** ... إلخ ، واتسع مدلولها فأصبحت تدل على خدمة النصوص والكتابات القديمة : المخطوطة أو المنقوشة أو المطبوعة والعمل على شرحها وتحليلها وتحقيقها في حدود ما سمحت به تلك العصور الوسطى من معارف تاريخية ولغوية وأدبية وفكرية وتدور هذه المعارف حول النص المدروس فتتوارد في

شرحه وتحقيقه وفقاً لما تتطلبه أجزاء النص من تناولها بالتفسير والتعليق دون تصنيف هذه المعارف تصنيفاً نوعياً .

وهكـــذا بدأت الطريقة الفيلولوجية [أو المنهج الفيلولوجي] في مراحله الأولى في أوربا وتذكرنا هذه الطريقة بتلك التي سار عليها كما كان علماء العربية في دراسة الـــنص القرآنـــي وشـــواهد اللغة التي نزل بها القرآن الكريم . وطريقة العرب سبقت الطريقة الفيلولوجية في شرح النصوص المقدسة بزمان بعيد .

ومن المحتمل أن يكون التشابه بين الطريقتين ثمرة التقاء تاريخي قديم في هذا المجال بين شعوب الشرق والغرب. وقد لفت هذا التشابه بعض الباحثين المعاصرين ؛ إذ يقـــول أحدهم : " إن دراسة النصوص وفهمها وتحليلها وإعرابها هو علم يعرف في الإنجلـــيزية باسم **Philology** أي علم تحليل النصوص ومثاله ما نرى من كتب شواهد الـــنحو ومـــا نـــرى مـــن كتاب الكامل للمبرد من أعاريب وشروح وتوجيهات لبعض النصـــوص[1]، ويقـــول باحـــث آخـــر : " إن العلوم العربية نشأت منذ البداية متصلة مترابطة.

ثـــم تطـــورت بعـــد ذلك ... من خلال المناخ العقلي الذي نشأ وتطور في ظل القـــرآن[2]، ويواصـــل الباحث حديثه فيقف عند علماء القرن الرابع الهجري أحمد بن فارس [المتوفى ٣٩٥هـــ] في كتابه " الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" ومـــن بعده عبد الملك بن محمد الثعالبي [المتوفى ٤٢٩هـــ] في كتابه " فقه اللغة وسر العربـــية " ثـــم يقول " مما لا شك فيه أن هذه التسمية – يعني تسمية فقه اللغة – التي اختارها في مقابل اللفظة الأوروبية **Philology** = فقه اللغة .

---

(1) تأليف ج. فندريس : اللغة ص ١٨ ، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، القاهرة ١٩٥٠م .

(2) د/ عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية ص ٣٣، ط بيروت ١٩٧٤م .

مــع قــيام عصـــر النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر الميلادي حدثت عوامــل كثــيرة أدّت إلى تطور المنهج الفيلولوجي ، فاختلفت سمات عرفها المنهج في مــراحله الأولى، فقد تعرض على مدى تاريخه الطويل تحت تأثير هذه العوامل لارتياد آفــاق علمــية جديــدة لم يليه له بها عهد سابق فقامت حركة ناشطة بين علماء أوربا لإحــياء تراثهم، وبعث الحركة الوطنية، والتعرف على شعوب العالم ولغاتهم، والإفادة ممـــا قدّمـــته الكشـــوف الجغرافية للأوربيين من لغات كثيرة، وقيام البعوث التبشيرية المســيحية بالتعرف على لغات هذه البلاد وقيامهم بترجمة الكتب المسيحية المقدسة إلى غــير ذلــك ، هــل هــذه العوامل التي دفعت علماء أوربا إلى إعادة النظر في تراثهم ومعـــارفهم التي انتهت إليهم والاجتهاد في تفسير الكتابات والنصوص التي عرفوها أو توارثوها على أسس أكثر دقة وشمولاً ؟

واستغرقت هذه الحركات العلمية الناشطة من الزمان ما يزيد على ثلاثة قرون [أي إلـــى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي] وفي أثناء هذه المرحلة الطويلة أخذت الدراسات المقارنة في داخل المنهج الفيلولوجي تنمو متجهة نحو منهجية علمية واضحة حــتى صـــارت كلمـــة **Philology** تشـــمل في بعض معانيها – وتستعمل عند بعض الأوربيين بمعنى – المقارنة اللغوية ، وقد أدت المقارنات اللغوية دوراً مهماً في المنهج الفيلولوجـــي ؛ إذ اتخـــذت أساســـاً فـــي تحقـــيق نقوش اللغات السامية وكتاباتها وفهم نصوصـــها بمقارنـــتها مع اللغات السامية الأخرى، وكانت المقارنة ضرورية للتعرف علـــى اللغات التي كشفت في القرن التاسع عشر عن طريق مقارنة الصيغ الواردة في نقوشـــها بمـــا هـــو معـــروف في اللغات السامية الأخرى وخصوصاً العربية والعبرية والآرامـــية والحبشـــية، ومن ثمّ حظيت المقارنات اللغوية باهتمام العلماء من أصحاب المنهج الفيلولوجي[١].

---

(١) د/ محمود فهمي حجازي : علم اللغة العربية : مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ص ٣٢ ، ٣٣ ، ط الكويت ١٩٧٣م .

ووجد المنهج الفيلولوجي منافساً له من أصحاب تصنيف العلوم ، فبعد أن كانت العلوم مجموعة من المعارف المرتبطة بعضها مع بعض في المنهج الفيلولوجي، ثم قامت حركات تدعو إلى تصنيف العلوم بحيث يكون لكل علم منها فروعه ومناهجه ومجالاته الخاصة وأهدافه، وقام العالم السويسري دي سوسير المتوفى ١٩١٣م بالدعوة إلى استقلال علم اللغة وسماه باسم خاص وهو **Linguistics** ، وذلك بعد أن كانت المعارف اللغوية مندرجة مع غيرها في المفهوم الفيلولوجي ، أعلن " دي سوسير " أن اللغة علم يَدْرُسُ اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها ، معنى أن " علم اللغة " لا يستهدف خدمة النصوص كما كانت اللغة من قبل ، فعلم اللغة يبحث اللغة المكتوبة والمنطوقة ، ولا يقتصر على دراسة النص كما أنه يلتزم بمناهج محددة، ومستويات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية يسير عليها اللغويون في دراستهم اللغوية لكي يصلوا إلى حقائق اللغة ذاتها ، ولما كان المنهج الفيلولوجي لا غنى عنه للباحثين في النقوش والنصوص القديمة، وكانت قد رسخت أصوله لدى العلماء في أوربا، رأى أصحاب علم اللغة الحديث في أوربا [أن دراسة النصوص وتحقيق مخطوطاتها وفك رموز الكتابات القديمة، فكل ما يتعلق بتقديم النصوص والنقوش القديمة على نحو يمكّن من القيام بأبحاث متخصصة فيها هي أعمال علمية جليلة تقوم عليها دراسات تاريخية أو لغوية أو أدبية، ولكن هذا العمل الفيلولوجي يخرج عن ميدان علم اللغة[١].

وعلى هذا استقل العمل الفيلولوجي بعلم خاص هو علم " النصوص القديمة " وظلت المقارنات اللغوية منذ ذلك الحين تعمل في مجالين، وتتدرج تحت علمين : فاستخدمت في المنهج الفيلولوجي لخدمة النصوص كما كان من قبل، ثم أضيفت باسم المنهج اللغوي المقارن إلى مناهج علم اللغة الحديث، منهجاً لعلم اللغة المقارن مستعملة التحليل اللغوي للكشف عن أواصر القرابة ودرجاتها بين اللغات السامية، وتأصيل

---

(١) د/ محمود فهمي حجازي: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ص ٣٢.

السمات المشتركة بينها وتحديد خصائص كل لغة منها وما استحدثه من سمات تميزها عن غيرها من اللغات السامية الأخرى .

من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة ؛ لأنّ جُلّ مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب، قديماً وحديثاً . وقد سمح هذا التداخل أحياناً بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى ، حتى غدا العلماء يسردون البحوث اللغوية التي تُسلك عادة في علم اللغة ثم يقولون : وفقه اللغة يشمل معظم البحوث السابقة، ولاسيما إذا قورنت هذه البحوث بين لغتين أو لغات متعددة[١].

وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضربين من ضروب الدراسة اللغوية ، من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما ، وجدناها تافهة لا وزن لها، فاسم علم اللغة عند الغرب " **Linguistique ou Science du Langage** " أي العلم المختص بالكلام أو اللغة، واسم فقه اللغة عندهم " **Philologie** " وهي كلمة مركبة من لفظين إغريقيين أحدهما **Philos** بمعنى الصديق، والثاني **Logos** بمعنى الخطبة أو الكلام، فكأن واضع التسمية لاحظ أنّ فقه اللغة يقوم على حب الكلام للتعمق في دراسته من حيث قواعده وأصوله وتاريخه .

وعندما نطرح جانباً كل أثر للمباحث التي لا تتعلق باللغة تعلقاً وثيقاً ، نستطيع أن نعرّف فقه اللغة بأنه منهج للبحث استقرائي وصفي يُعرف به موطن اللغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة ، الشقيقة أو الأجنبية ، وخصائص أصواتها ، وأبنية مفرداتها وتراكيبها، وعناصر لهجاتها ، وتطور دلالتها، ومدى نمائها قراءة وكتابة.

والبحوث الأساسية المذكورة في التعريف تتعلق بعلوم ثلاثة :

---

(١) د/ علي عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ١٣ .



١- التاريخ ، لمعرفة موطن اللغة الأول، وروابط القربى بينها وبين اللغات الإنسانية الأخرى، وتنوّع لهجاتها ، وتطور خطها وكتابتها .

٢- علم الصوت، لبحث لهجات اللغة وأصواتها، ومعرفة أنواع التطور الصوتي فيها .

٣- علم الدلالة، لبحث تطور ألفاظها وما تفيده من المعاني .

ولقد انحصرت مناهج العلماء في القرن التاسع عشر في دراسة اللغة من وجهة النظر التاريخية، فأعلن كبارهم : " أن علم اللغة تاريخي "[١]، وأضاف كثير منهم إلى الناحية التاريخية معرفة التطور الذي أصاب اللغات في مختلف العصور .

أما القرن العشرون فقد طبع بطابع الوصفية ، وتناول العلماء فيه اللغات بدراسة خصائصها الصوتية والتعبيرية، فكانت مباحثهم مجموعة مستقلة من المواد المتداخلة كالأصوات والتشكيلات والمعجمات والدلالات وما يمكن أن يسمى " علم الاجتماع اللغوي "[٢].

في ضوء هذه الدراسة الوصفية انطلقوا يعالجون الأصوات الإنسانية بالبحث العميق، فقارنوا بين الحروف وصفاتها، ودرسوا أعضاء جهاز النطق وأخضعوا ذلك كله للملاحظة المباشرة،والعرب برزوا في ذلك منذ قرون في علمي التجويد والصرف. وبحثوا في اشتقاق الكلمات وأصولها وصيغها، وأبنيتها، وسماعها وقياسها ، ثم عنوا بدراسة معاني الألفاظ ودلالتها ملاحظين ما بينها وبين الاشتقاق من اتصال وثيق .

ومما سبق ندرك أن المنهج الفيلولوجي في أوربا قد مرّ بمرحلتين على الأقل ، فالمرحلة الأولى ظهرت في العصور الوسطى حين بدأ استعمال كلمة **Philology** بمعنى دراسة النصوص القديمة وبخاصة النصوص المقدسة، والمرحلة الثانية بدأت مع

---

(١) Firth, Personality and Language, in Society Sociological Review, vol. II, Sect. Two, 1950, P.37 .

(٢) المصدر نفسه .



عصــر النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر، واستمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر. وفي هذه المرحلة الطويلة نعرض المنهج الفيلولوجي في وضع مبادئ للدراسات المقارنــة وقبل نهاية هذه المرحلة قام العالم السويسري دي سوسير، فدعا إلى نظريته في اللغة، فأقام بها علماً قائماً بذاته يستقلّ بفروعه ومجالاته ومناهجه وأهدافه . وجعل من فروعه " علم اللغة المقارن " وله منهجه الخاص : المنهج اللغوي المقارن .

وقــد أدى اســتقلال علــم اللغــة عــن غيره من العلوم إلى اعتبار " المنهج الفيلولوجــي" تابعاً لعلم آخر مستقل هو " علم النصوص " وترتب على تصنيف العلوم أن أصــبح " المــنهج المقارن " يعمل في مجالين تابعين لعلمين مختلفين : مجال العمل الفيلولوجــي ومــيدانه " علــم النصوص " ، ومجال علم اللغة الحديث **Linguistics** وميدانه " علم اللغة المقارن " وكان من أثر هذا " التقسيم الثنائي " أن اتخذت المقارنات اللغويــة عــند أصــحاب النظرية الحديثة – اصطلاحين : أحدهما : **comparative philology** ومكانــه فــي علم النصوص . والثاني : **Comparative Linguistics** ومكانــه فــي علم اللغة الحديث لم يلقوا بالاً إلى هذه التفرقة الحاسمة لسبب أو لآخر . فمــنهم – مــن الأوربيين والغرب – من يتخطى حدود المصطلح باستعماله بديلاً عن الآخر .

وقــد نجــد في بحوث أوربية خلطاً بين **Linguistics & Philology** أو بين الفيلولوجــيا المقارنــة، وعلــم اللغــة المقارن . وكذلك صنع اللغويون العرب وبعض جامعاتــنا حيــن أطلقــوا فقــه اللغة على علم اللغة وفقه اللغة المقارن على علم اللغة المقارن . هذا على الرغم مما قام به أصحاب المناهج الحديثة من جهود في تحديد كل من هذين المصطلحين . وفي التنبيه إلى أهمية الفوارق الحاسمة التي تفصل بينهما بعد

أن أصبحت المصطلحات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعلوم تحددت بمناهجها ومجالاتها وأهدافها [1].

لكنّ ظهور فرديناند دو سوسير جعل اللسانيات واضحة الحدود، من حيث الاختصاص الذي صار يشمل جميع قطاعات اللغة على حدٍّ سواء، كالأصوات والصرف والنحو والمعجم والدلالة، ومن حيث المناهج التي نضجت وآتت أكلها كالمنهج التاريخي والمقارن والوصفي .

والحقُّ أنّ اللسانيات ينبغي أن تكون عامل " تحديث " لا عامل هدم، وأن يكون ما يفد منها إلى درسنا على سبيل الإضافة والإثراء وليس على سبيل المسخ والإلغاء .

فمن الإفادة المرجوة مثلاً تحديث مناهج الدرس اللغوي، وتخليص هذا الدرس مما لحق به من معطيات خارجة عن مجال اللغة، وابتناء علوم لغوية جديدة على هدى من الأنظار الحديثة كعلم الأصوات وعلم الدلالة والمعجمية مما لم يعرف في درسنا ضبطاً منهجياً أو إطاراً معرفياً [إيستيمولوجيا] مع كثرة الجهود وسعة المعطيات ، كما يمكن لفقه اللغة العربية أن يفيد من الكثير من نتائج الدراسات اللسانية المقارنة، والدراسات الفيلولوجية لمعرفة مكان العربية بين أخواتها عبر التاريخ، وأن يفيد من نتائج الدرس التأصيلي [Etymologie] لمعرفة مصادر المعرّب معرفة صحيحة، ونحو ذلك كثير .

لكنّ هذه الإفادة لا تعني بحال من الأحوال إلغاء لأي ضرب من ضروب المعرفة اللغوية عندنا كالنحو والصرف وفقه اللغة ومعطيات الدلالة والمعجم، بحجّة التجديد أو مجاراة العصر ، كذلك ينبغي التنبيه على أنّ أي استمداد من المناهج الحديثة لا يجوز أن يؤدي إلى تجاوز لخصوصية العربية الفصحى وما يحيط بها من ظروف تاريخية وحضارية وقومية .

---

(1) د/ عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية ص ٩-١١ ، ٢٥ – ٢٩ . د/ محمد أحمد أبو الفرج : مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ١٣ – ١٤ ، ط بيروت ١٩٦٦م .

أمـــا اللسانيات فضرب جديد من ضروب الدراسة اللغوية يعتمد مناهج ووسائل محدثة لا تقتصر على هذه اللغة دون غيرها . لذلك لا نجد بأساً من إضافة هذا الدرس إلـــى علومـــنا اللغويـــة؛ لأنّ فيه فوائد لا تنكر شريطة أن يكون للعربية مكان في هذا الدرس حتى لا تبقى اللسانيات علماً أجنبياً لا يتعدّى دورنا فيه حدود الترجمة .

وقـــد ظهـــر من هذا الدرس شيء يمكن أن يُتابع ويبنى على أساسه . فالدرس اللســـاني العربـــي المقـــترح لا يمكن أن يكون صحيحاً من وجهتنا ما لم يكن مسبوقاً بكشـــف دقـــيق لإنجازات علماء العربية في كلّ مجال من مجالات درسها، وفهم واع لمناهج الدرس اللساني المستجلب ومقاصده .

ومـــن مســـوّغات هذا البحث أنّ الناظر في اللغة من حيث هي ظاهرة إنسانية تتشخّص في عيّنة دالة من أمثلتها يشبه من بعض الوجوه ابن اللغة الذي يتعرّض لها ، أو لعيّـــنة مـــن أمثلـــتها ، خـــلال بضع سنوات من سنواته الأولى؛ ذلك أن ابن اللغة – لا شـــكّ – يســـتخلص لنفســـه نظام لغته، ويميّز حدود الوحدات اللغوية فيها – على مســـتوى البنية الصرفية – ولا يخلط خلط من تلتبس عليه تلك الحدود، ويميّز دلالات الألفـــاظ ووجوه استعمالها، ويميّز أصول تركيب الجمل ، فلا يركبِ جملة إلاّ أن تكون مقبولة لدى سائر أبناء اللغة .. إلخ . ويتفق أبناء اللغة في ذلك على حد سواء .

إن قـــدراً من ذلك ينبغي أن يكون من حظّ الباحث في اللغة، ولعلّه يستوي في هـــذا القدر أن يكون الباحث من أبناء اللغة، وأن يكون ممّن صرفوا همّهم وطاقتهم إلى الـــنظر فيها من أبناء غيرها . فإذا كان لابن اللغة فضل على غيره من هذه الجهة في أنّـــه يســـتطيع أن يتكئ على " حدسه " في كثير من صور التقدير، فإن لغير ابن اللغة حَدْساً آخر من لغته، وهي لغة إنسانية يجمعها بكلّ لغة أخرى قدر مشترك، وفضلاً في أنّه ينظر في لغة غيره من خارج دائرة الإلف، ومن بُعْدٍ كافٍ يهيئ له رؤية أوضح .

غير أن النظرة الموضوعية المنصفة تقودنا إلى تسجيل بعض نواحي القصور فـــي المـــنهج الذي اتبعه القدامى من علماء العربية، وفي طرائق التقعيد التي اختاروا.

وذلـــك – بالطبع – إنما يصح إطلاقه فيما لو أخذنا مناهج البحث اللغوي الحديث دليلاً للعمل وأساساً للمناقشة ، وإلاّ فإن جملة ما أتى به هؤلاء في حدّ ذاته عمل علمي رائع، وبخاصة إذا ما أخذنا في الحسبان ظروف حياتهم وأدوات معايشهم آنذاك ، حيث كانت وسائل المعرفة محدودة وعدد البحث وأجهزته معدومة .

لقــد غاب عن علماء العربية أن اللغة ظاهرة يصيبها التطور والتغير، فنظروا إلــى العربية كما لو كانت شيئاً جامداً لا يتحرك : نظروا إليها في وضعها الضيق في الــزمان والمكــان، فلــم يحفلوا بماضيها، ولم يُفسحوا المجال للتفكير في مستقبلها وما عســاه أن يكــون . وكــان مــن نتائج هذه النظرة أمران بارزان، ظهرت آثارهما في القواعد التي سجلوها، وفي مسار هذه اللغة منذ زمن التقعيد حتى وقتنا هذا . وما زالت هذه الآثار تمثل مشكلات أمام الباحثين .

ففــي المستوى الصرفي على سبيل المثال ، في ظاهرة الإعلال والإبدال التي عالجوهــا كلّهــا أو جلّها بمنهج الافتراض ، على حين أنها سهلة المأخذ طيّعة التحليل فــيما لــو نُظِرَتْ في إطار الأصل التاريخي لها في اللغة العربية ذاتها، أو في أخواتها الســاميات [أو العربــيات] . ويتمــثل الأمر الثاني الذي أصاب العربية في مسارها الطويل في فرض القيود الصارمة على حركتها وتفاعلها مع الظروف المتجددة في كل مجالات الحياة من حولها .

لــم نقصر – يوماً – في إظهار الحمية على لغتنا القومية ، وضرورة الحرص علــيها، ومداومة تطويرها ، إلا أننا في الوقت ذاته نعاني حالة مزمنة من غياب إرادة الإصــلاح اللغوي . لقد استرخينا واستكنا إلى ما آلت إليه لغتنا ، وكأن لغات الشعوب تنمو بشكل تلقائي، وتبرأ في عللها دون تدخل من أحد، إننا نشكو من أزمة لغوية حادة تلطــخ جبينــنا الحضــاري ، أزمة على جميع الصعد تنظيراً وتعليماً، نحواً ومعجماً، استعمالاً وتوثيقاً ، إبداعاً ونقداً .

وجـاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف إلى هذه الأزمة بعداً فنياً متعلقاً بمعالجة اللغـة العربـية آلياً بواسطة الكمبيوتر ، ولا يخفى على أحد أن وضعنا اللغوي الراهن يـنذر بفجـوة لغويـة تفصل بيننا وبين كثير من الأمم التي تولى لغاتها القومية أقصى درجـات الاهتمام ، بصفتها – أي اللغة – شرطاً أساسياً للحصول على عضوية "نادي المعلومات العالمي " .

هكـذا نستبين – وقد اتّضحت مادة العلم في مراتبها التصورية عبر تجلياتها – كـيف يفضـي بـنا البحث من خلال المفهوم العام الذي هو اللغة إلى كشف خصائص الظاهـرة ، مـن حيـث هـي لسان ، ومن حيث هي كلام ؛ لأن العلم تبيانه يستوجب المـرور بالـنّوعى وبالفردى على قدر ما يقتضيان هما الآخران إدراك العام قبل النفاذ إلـيهما . ذلـك أن اللسـان هو بمثابة خروج اللغة من حيز القوة إلى حيّز الفعل على مسـتوى البناء والتنظيم والتكامل مثلما أن الكلام هو خروج باللسان من مجال الصورة البنائية إلى الإنجاز الفيزيولوجي والنفسي . فإذا كانت اللغة تصوّراً فإن اللسان تصنيف والكلام نموذج .

ولمّـا كـان اللسان مجالاً لتحقيق الظاهرة فإنّه يمثل بالنسبة إلى اللساني علاقة اللغـة بالحـياة الجماعـية، ويساعده بذلك على تصوّر الصلة بين المستوى التجريدي والمستوى الواقعي، كما يعينه على إدراك خصائص اللغة من خلال الفروق القائمة بين الألسـنة . فاللسان جملة من القواعد تواضع عليها المجتمع بكل أفراده حتى إن الواحد مـنهم يولد فيجد اللسان قائماً أمامه كالقانون الجماعي الصارم الذي يتعيّن الرضوخ له عبر إنجازه بما ترضاه الجماعة .

علـى هـذا الأساس يُعدّ اللسان الجزء الاجتماعي من اللغة ؛ لأنه يخرج عن مناط الأفراد فلا يملكون إبداعه ولا يقدرون على تعديله ؛ إذ هو موجود بمقتضى عقد ضـمني صـامت بيـنهم، لذلك لم يرتبط اللسان بالفرد ؛ لأنه متجاوز له من حيث هو سابق إياه وباق بعده فلا يزول بزواله .

الفصل الخامس

كيفية صنع البحث اللغوي ومراحل إعداده

أولاً : الاستعداد :

البحث يدل على ملكة صاحبه العقلية واللغوية، وعلى ثقافة الباحث وتجاربه وذكائه وقوة بصيرته، ومن خلاله تتضح مقدرته في الصبر والمثابرة، وتظهر إرادته القوية وعزيمته الثابتة وجرأته وصراحته في إبداء آرائه، وتظهر شخصيته في سعة اطلاعه، وتتبع المعلومات والأخبار وفقاً للموضوع المختار، وتظهر قوة حافظته في ربطه بين أجزاء الموضوع الذي قرأه في أوقات مختلفة، وتصميمه على الوصول إلى هدفه المنشود بدون يأس لرفض المشرف – على البحث – لفكرة استساغها، وقد تغيّر جزئيات البحث وتعاد كتابته، فعليه ألا يضعف، ويصيبه الشك في قدرته على تكرار المحاولة، حتى يتثبت من كل ما قرأ وتوصل من أحكام .

ومن الأمور التي تظهر شخصية الباحث في بحثه وتدل عليه هي تجنبه للخطأ اللغوي والنحوي والصرفي ، حتى تكون لغة البحث سليمة وفصيحة، وأن يكون ملماً بالقواعد اللغوية .

وتتضح شخصية الباحث من خلال اختياره للموضوع ، وأيضاً في عدم انقياده لغيره من أفكار الباحثين السابقين له دون مناقشة أو دراسة دقيقة وافية .

يجري على جبهة اللغة ثورة في التنظير اللغوي تصاحبها تكنولوجيا متقدمة لا تقل ثورية في تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي، وعلوم المعرفة، وتكنولوجيا الأعصاب على معالجة اللغات الإنسانية بواسطة الكمبيوتر، وذلك بهدف إكساب الآلة المهارات اللغوية من اشتقاق وتصريف وإعراب واختصار واستخلاص وفهرسة ، بل تأليف للنصوص أيضاً .

[١] اختيار عنوان الموضوع :

ومن مهمة الباحث أن يحدد أهدافه، ومنهجه بوضوح لكي يصل إليها بأقصر الطرق وأفضلها، ولكي تتضح أهداف البحث ينبغي أن يكون الباحث ملماً بأسباب اختياره للموضوع . فقد يكون الهدف وقائياً وقد يكون علاجياً أو إنشائياً ، وقد يكون الهدف ابتكارياً أو استطلاعياً ، وتتعدد الأهداف بتعدد البحوث وتختلف البحوث باختلاف موضوعاتها وأهدافها . فقد يكون الهدف تصحيح أخطاء وملابسات علمية سابقة، وقد يكون إثراء لما هو قائم، أو أنه تجديد وابتكار .

إذن يتحدد البحث بتحديد معالمه، ومعالم البحث هي : الموضوع ، والأهداف، والفروض، والمنهج، وأن يكون للبحث العلمي ميدان بشري، وأن يكون له زمن البداية والنهاية ، وأن يقوم به باحث ماهر تتضح أمامه أهمية البحث ومعالمه الأساسية والفلسفة التي يحتوي عليها ؛ لأن البحث هو تفتيش عن غائب حاضر [غائب عن الإثبات ، وحاضر في الذهن] ؛ لأنه النشاط العلمي المنظم في التعرف على الحقيقة.

يتخير الباحث عنوان الموضوع الذي يسير فيه بحثاً عن جوانبه المضيئة وكنوزه الكثيرة، فيكون موضوع اهتمام يشد اهتمام القارئ إليه لمحاولة معرفة الكثير عنه، فيسعى وراء الفكرة والدراسة التي أراد تقصيها من خلال ذلك العنوان، وشموله للموضوع، وجاذبيته تعمل على دوام هذا العمل وشهرته، وتبعده عن النسيان الذي قد يكون لبعض العناوين الضعيفة أو غير المشوقة .

غير أننا في البحث اللغوي لا نهتم بالجاذبية أو التشوق وربما ملنا إلى ارتباط اسم الباحث بعمل جاد تحتاجه الدراسات اللغوية ويعالج أهم قضاياها، ويؤدي هذا كله إلى ذيوع صيت البحث والباحث وارتباط العمل باسم الباحث أو كلاهما بالآخر .

وتحديد موضوع البحث ليس بالأمر الهين مما جعل بعض الباحثين يسميه بمشكلة البحث التي تستوجب من الباحث بذل الجهد العلمي من أجل إيجاد حلول تخرجه من الحيرة التي هو فيها، وتدفعه إلى البحث عن معالجات لموضوع دراسته .

إذن الخروج من المشكلة تكون بدايته بتحديد موضوع البحث، وتبيان معالمه الأساسية من تحديد الأسباب إلى وضوح الأهداف .

إذن الحيرة هي نتيجة الشك ، وعدم وضوح التخمينات تجاه الموضوع المستهدف بالبحث، وهي مرحلة مهمة في التفكير الإنساني عند انتقاله من الشك إلى اليقين . ويقال للإنسان الذي يضل طريقه بأنه حيران نتيجة عدم تحديده الاتجاه الصائب الذي يود السير فيه . وعليه فإن أول مشكلة تواجه الباحث كيف يتخلص من الحيرة التي تعوق تفكيره في أن يحدد موضوع بحثه ؟

وكيف ينتقل من الشك إلى اليقين بأن مشكلته تكمن في القلق الذي يحيط به والغموض الذي يتطلب منه صبراً لاستطلاع ما كتب عن الموضوع قدر الإمكان في مجال تخصصه، والاطلاع على المعارف المتوافرة لتساعده على صياغة وتحديد مشكلة بحثه، والتي تنقله من الضلالة إلى الهداية ؟

وهكذا يتعلم الهداية والحكمة كما يقول الله تعالى : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [1] . ولهذا الحيرة مقبولة لأن بعدها هداية وتعلم حكمة . ولا تتضح مشكلة البحث إذا لم يلم الباحث بفلسفة الموضوع الذي يود دراسته ، أو أنه لم يعرفها على الإطلاق، وتتضح فلسفة البحث بإجابة الباحث على السؤال لماذا اختار هذا الموضوع بالذات ؟ ولماذا لم يختر غيره ؟

---

(١) سورة الجمعة : من الآية [٢] .

الاختيار الجزافي لموضوع البحث وصيغته :

واختيار موضوع البحث هو أول خطوة يخطوها طالب البحث، ولا تكون عادةً إلا بعد تفكير طويل وقراءة واعية . وقد جرت عادة طلاب البحوث في دراساتهم العليا أن يتلقوا من أساتذتهم توجيهات في هذا الشأن . وعلى الطالب أن يضع نصب عينيه وهو يختار لنفسه موضوعاً لبحثه أن يكون الموضوع مفيداً فائدة محققة، ينتفع به في مستقبل حياته ، وتنتفع به جماعات المتخصصين من الباحثين، وأن يكون بعض جوانب الموضوع – على الأقل – غير مطروقاً لدى الدارسين من قبل، أو غير مدروسة لديهم دراسة كافية ، فهو لا يزال بحاجة إلى مزيد من الإحاطة والمتابعة للوصول إلى نتائج أكثر دقة وشمولاً ، ومن هذا ندرك أن اختيار الموضوع يتطلب من الباحث أن يقرأ كثيراً قبل أن يستقر على اختيار موضوعه، وأن يقرأ أكثر قبل أن يصوغ عنوان الموضوع في عبارة محددة . وصياغة العنوان ليست من السهولة بمكان ، وهي – بعد – تبعة يلقيها الباحث على كاهله ، ويلتزم بها في النظر والتطبيق عند رسم الخطة ، وتحديد أهداف البحث وهو التزام شاق، ولذلك ينبغي أن يجيل الباحث فكره طويلاً في العنوان الذي يصوغه قبل أن يستقر على وضعه ، وأن يكون يقظاً حريصاً على صيغة ذات معنى محدد، خالية من الإبهام والغموض، لا تحتمل أكثر من معنى، ولا تقبل شيئاً من التأويل . وليس بغريب بين طلاب الدراسات العليا أن يتبين لأحدهم بعد أن سجّل عنوان بحثه في سجلات الكلية ، وقطع في بحثه شوطاً أن عبارة العنوان تقتضي شيئاً من التعديل والتحوير ، بل ليس بغريب أن يكون تغيير حرف واحد في عنوان البحث – كواو العطف أو حرف الجر – سبباً في إحداث تغيير جوهري في خطة البحث وأهدافها .

وصفوة القول إن اختيار موضوع البحث ، وتحديد صيغته كلاهما يتطلب من الباحث كثيراً من التأمل والدقة والاحتياط، ولا يجوز لطالب البحث حين يختار لنفسه موضوعاً أن يلقي الكلام على عواهنه ، وأن يصوغ عبارة العنوان بصورة جزافية.

ويكون التحليل موضوعياً عندما يلتزم الباحث بالموضوع، ولا يحيد عنه، من خلال المنهج العلمي الذي حدده، وفرضيات البحث وأهدافه، وينصب التحليل على رؤية الباحث الخاصة، أو عواطفه واتجاهاته الخاصة، أو لمصلحة جهة معينة، أو فرد بعينه، بل ينبغي أن ينصب التحليل على الموضوع الذي تتضمنه الفرضيات حتى وإن كانت النتائج المتوصل إليها لا تثبت صحة تلك الفرضيات التي حملته وهناً على وهن.

ولذلك ينبغي على الباحث أن يبين الأسباب التي دفعته إلى تحديد واختيار موضوع بحثه، والأهداف التي يسعى إليها من أجل تبيان القضية التي تربطه بالموضوع، فإذا كانت الظاهرة خاصة بالجهود اللغوية أو النحوية ، فإن الموضوع قد يتأثر بإعجاب الباحث بأحد النحاة واللغويين الذين يثيرون إعجاب الباحث، فيكون بحثه منحرفاً عن جادة الصواب والموضوعية، أما إذا تحرر الباحث من الإعجاب، فتكون القضية التي تربطه بالموضوع علمية فتتجه باستقامة نحو الأهداف العامة . فيتأثر الموضوع سلباً بالإعجاب، ولذلك ينبغي على الباحث أن يراعي تأثير ذلك على المعلومات أثناء التحليل الموضوعي .

التحليل الموضوعي هو تحليل غير مقفل ؛ لأنه قابل للجديد مما يجعل أحكامه غير مطلقة، ولا نهائية إلا بالمثبت، ولذلك لم يضع التحليل الموضوعي سقفاً للتفكير الإنساني المبدع؛ لأن الأحكام المطلقة في الزمن الحاضر قد تقع في شك الزمن المستقبل، وأن ما نصل إليه اليوم من نتائج اكتشافات لم تكن نهاية المطاف العلمي، بل إنها استمرارية لما سبق، ونقطة انطلاق لما قد يقع من إبداع واكتشاف، واختراع بالبحوث العلمية الجادة .

والتحليل الموضوعي هو الذي لا توضع أمامه إشارة [قف] ، بل يفسح المجال أمامه من أجل اكتشاف العلاقات بين المتغيرات التي تؤثر في الموضوع؛ لأن كلمة [ممنوع] لا ينبغي أن تكون في قاموس التحليل العلمي .

والباحث الموضوعي هو الذي يلتزم بالموضوع أثناء الدراسة والتحليل [التشخيص] والعلاج، برؤية علمية تبرز إبداعاته ومواهبه التي لا تسمح للأنانية والشخصانية بالظهور على حساب الذات العامة للمجتمع . فإذا انتشرت رقعة الموضوعية بين الباحثين العلميين كانت ظاهرة أو حالة، وإذا انتشرت الأنانية بين الباحثين أصبحت هي الأخرى ظاهرة، وإذا انتشرت الذاتية على حساب الموضوع كانت هي الأخرى ظاهرة .

إذن هذه ظواهر، ولم تكن أساليب كما يعتقد البعض، وتكون علمية عندما تلتزم بالموضوع، وتكون ذاتية عندما تنفصل عنه[1].

وأخيراً ليست العبرة في اختيار عنوان البحث أن يكون هذا العنوان مشوّقاً أو فيه مراعاة للذوق أو يجذب انتباه القارئ ، بحيث يدعوه إلى قراءة تفاصيله، فكل هذه أسباب تعد أشكال تجارية، ولكن العبرة في اختيار عنوان للبحث هو أن تراعى الدقة في اختيار كل حرف في عنوان البحث، بحيث يأتي العنوان مشتملاً على كل تفاصيل البحث دون أن تفلت من هذا العنوان أية ظاهرة يحتويها البحث أو أي مبحث أو فصل يخرج عن هذا العنوان .

والخلاصة أن العنوان يساوي ١/١٠٠٠ من البحث كله، والعنوان بطبيعة الحال إما أن يكون جملة أو جملتين على فرض أن مساحة البحث ألف جملة أو ألفا جملة، فإذا ضربنا العنوان في ألف نتج البحث كله، وإذا قسمنا البحث كله على ألف نتج العنوان، ولكن قد يحدث أن يجد الباحث بعد أن فرغ من رسالته أن فيها ما يزيد على العنوان، ولذلك فأمامه وسيلتان : الوسيلة الأولى أن يلجأ إلى المشرف بطلب يعدّل فيه عنوان الرسالة لتكون مطابقة لما جاء في كتاباته ، ولكن هذه الوسيلة تعد خسارة كبيرة على الباحث ؛ لأنه يكون قد فرغ من كتابة رسالته ، فإذا جاءت هذه

---

(1) انظر الموسوعة الفلسفية : وضع لجنة من العلماء السوفياتيين، إشراف م. روزنتال، ب. يودين، ترجمة سمير كرم، ط٥، بيروت، دار الطليعة، ص ٥١٠ .

الخطوة في بدء التسجيل أو في منتصف مرحلة التسجيل فيمكنه اللجوء إليها، وإذا لم يكن الأمر كذلك فعليه أن يلجأ إلى الوسيلة الثانية : وهي أن يكتب في مقدمة الرسالة مبررات ظهور هذه الزيادة أو أسباب اضطراره إليها، وأنه كان يقصد من العنوان شيئاً، وأن المنهج الذي اختاره أو النص الذي اختاره أو الآراء التي استمدها وناقشها وعالج قضاياها هي التي اضطرته إلى هذه الزيادة التي تخرج عن العنوان .

ولابد لكل بحث أن يوفق إلى الجديد من الآراء أو النتائج التي يجب أن يتوصل إليها الباحث، وإلاّ أصبح بحثه معاداً مكرراً .

[٢] الدراسات السابقة :

وباستطلاع الدراسات السابقة نلاحظ أن العلوم بمختلف ميادينها ومجالاتها وروافدها تصب في محيط المعرفة الذي يثري بكل بحث علمي جديد، وتثري البحوث هي الأخرى بما ترتوي به من ينابيع المعرفة، وهكذا تثري البحوث الجديدة بالدراسات والبحوث التي سبقتها، وتؤثر فيها ؛ لأن المعرفة واحدة، وإن اختلفت ميادينها ومجالاتها . فلكي يجد الباحث مكاناً لبحثه بين البحوث التي سبقته، عليه أن يطلع عليها قبل كتابة بحثه أو إجراء دراسته حتى لا يضيع جهده هباء، فإذا كان بحثه تكراراً لبحوث سابقة لا يلتفت الباحثون إليه، ولا يجد مكاناً له بين البحوث والدراسات التي سبقته في ميدان تخصصه، أو في ميادين أخرى ذات علاقة، أما إذا تم الاطلاع بوعي فإن الموضوع يتحدد بانتباه، ويجد الباحث مكاناً لبحثه بين البحوث السابقة، وتعد مرحلة استطلاع الدراسات السابقة مهمة مرتين :

الأولى : قبل أن يحدد موضوع بحثه ، أي أثناء الحيرة التي تصاحبه عند البحث عن موضوع بحثه، فعندما يكون الاستطلاع واعياً بالقراءة النقدية، وتفسير النتائج والمعلومات المتوصل إليها من قبل سابقيه . ومن خلال شكله العلمي الذي يحفزه على البحث عن الحقائق والحلول يستطيع الباحث أن يحدد موضوع بحثه بوضوح .

والثانية : بعد أن يحدد الباحث موضوع بحثه، عليه أن ينتبه إلى نقاط الضعف التـــي وقـــع فيها سابقوه، من أجل أن يعرف عن بينة كيفية تجنبها في بحثه لو واجهته أثـــناء جمـــع المعلومـــات، أو أثناء تحليلها وتفسيرها، واستخلاص النتائج منها ، ومن خـــلال مـــراجعة البحوث والدراسات السابقة بوعي وانتباه قد يكتشف الباحث أن الذي ســبقه لإحـــدى الموضوعات لم تكن نتائج بحثه صادقة لفقدانها العلاقة بين فرضياتها ونتائجها، أو أن الخطوات التي اتبعها الباحث لا تؤدي إلى النتائج المتوصل إليها نتيجة لتحـــيز الباحث، أو أن النتائج المتوصل إليها والموصى بها قد تم بطلانها بنتائج بحث آخـــر جديـــد ، أو أنـــه يكتشـــف أن تفسيراته مخطئة، لتناقضها مع القوانين الطبيعية والاجتماعـــية التي تحكم الطبيعة والمجتمع . ونظراً للتطور والتغير المستمر فإنه ليس بالضـــرورة أن بعـــض البحوث السابقة لا يكتشف فيها عيب، فالتقدم العلمي والتقنيات الحديـــثة ســـاعدت وتســـاعد علـــى إعادة بعض الدراسات السابقة من أجل تصويبها وتطويـــرها . ونظـــراً لأن العلـــوم تربطها علاقات بعضها مع بعضها الآخر بمختلف تخصصـــاتها ومجالاتهـــا ، لذلـــك يكون للاطلاع العام أهمية تفيد الباحث في استكمال جوانب بحثه وتهيئ لبحثه مكاناً مرموقاً بين البحوث .

والإلمـــام بالدراسات السابقة يتيح للباحث ولغيره معرفة مقدار الجديد الذي جاء به هذا البحث الجديد ومدى أهمية ما أضافه إلى العلم .

يعـــد الموضوع مادة للبحث، ويعد البحث وسيلة لدراسة الموضوع، والمجتمع هو الميدان الذي تجري فيه دراسة الموضوع المتعلق به، من أجل التعرف عليه، وعند دراســـة الموضـــوعات تتصل الأفكار وتترابط في نسج منهجي ينظم وحدة الموضوع ويظهـــره فـــي شـــكله اللائـــق ليحتل مكانته بين البحوث الناجحة التي سبقته، وتتصل الأفكـــار والموضوعات من أجل اكتمالها، وتحلل علمياً عندما يتمكن الباحث من معرفة نقـــاط الاتصـــال والـــترابط التي تنقله من الكل إلى الجزء أو من الجزء إلى الكل عند محاولته التعرف على العلل والأسباب الكامنة والظاهرة .

ولا يمكـن أن يكـتمل الموضوع بدون اتصال أفكاره ولا يمكن أن يحلل بدون معرفة نقاط اتصاله . والباحث كمتقصٍ للحقائق لا يسترسل في دراسته أو تشخيصه أو علاجـه للظواهر ما لم تكن أفكاره متصلة وإلمامه بالموضوع متكاملاً ، وهكذا تتكون الظواهـر والمشـاكل مـن علـل وأسـباب متصلة ، ومن الصعب أن تحلل أو تفسر الموضوعات قيد البحث ما لم يراع الباحثون ذلك الاتصال الذي يربطها فيما بنيها .

وتقـوم طـريقة الموازنة بين الظواهر اللغوية في طائفة من اللغات لاستنباط خواصـها المشـتركة، وللوقـوف على وجوه الاتفاق والخلاف في عواملها ونتائجها، وللوصـول مـن وراء هـذا كلـه إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها في مختلف مظاهـرها . ومع أهمية هذه الطريقة في دراسة علم اللغة، ومع أن العلماء قد وصلوا بفضـلها إلـى معظـم ما وصلوا إليه من حقائقه - فإنها كثيراً ما تكون عرضة للزلل والانحراف عن جادة الصواب .

وبكلمـةٍ أخـرى إن ما نعنيه بالتراث اللغوي العربي هو هذا الركام المعرفي المتـناثر في تاريخ الحضارة العربية، ونحن لا نستطيع معرفة النظرية اللغوية العربية بأبعادها الكاملة إلا إذا أعدنا تركيب الفكر اللغوي العربي بعد سير دقيق وعميق لكل ما قاله العرب حول المسألة اللغوية .

إن الشـرعية العلمـية التي تدفعنا إلى تنفيذ هذا العمل ليست نابعة من تجميع ركـام معرفي لا يربطه رابط معين وإنما من حقيقة أن هذا الركام المعرفي انطلق من مبدأ فلسفي متماسك وواضح من أجل تفسير الكون والحياة ككل .

فالـنظرة الفلسفية الإسلامية أرادت أن تفسر لنا مشكلة الإنسان على الأرض، ولأن اللغـة مكوّن جوهري من مكونات الإنسان فإنها أرادت معرفة هذه اللغة وسيرها وتفسيرها وربطها بالنظرة الفلسفية الكونية .

صحيح أن تاريخ العالم والحضارات مملوء بالنظرات اللغوية التي تناولت اللغة درساً وتمحيصاً، إلا أن معظمها لم ينطلق من منطلق فلسفي شامل وعام . من هنا فإن تجميع الركام المعرفي اللغوي هذا يفقد صفته العلمية .

إن شـــرعية إعادة بناء الركام اللغوي العربي القديم تأتي من حقيقة أن العرب القدمـــاء أرادوا تفسير الظاهرة اللغوية كما فسروا بقية الظواهر الإنسانية والطبيعيّة من أجل خدمة النص القرآني، وبمعنى أدق، من أجل خدمة المنطلق الفلسفي الإسلامي.

ومعـــنى هذا أننا نرى الإبقاء على نظام التقعيد القديم الموروث بحاله، وحسبانه أثراً علمياً شاهداً على العصر الذي وضع فيه، ومنبئاً عن رؤية واضعيه وطرائقهم في التفكير آنذاك، وأهدافهم من صنع ما صنعوا وشغلوا أنفسهم به .

إنه موروث تاريخي ألقى إلينا به الأجداد، منتظماً لأنماط ثقافتهم وألوان حضارتهم ، وليس من الحكمة أو الصواب هدمه، أو خلخلة بنائه بنزع بعض لبناته، أو استبدال بعضها ببعض . فذلك إن حدث ضياع لمَعلَم من معالم الحضارة العربية، وتشويه لهندسته وإساءة إلى تكامله .

فلنـــنطلق إذن إلـــى تشييد بناء جديد لقواعد العربية، يتواءم مع ثقافتنا ورؤيتنا لحقـــائق اللغة، ويناسب حاجتنا الحاضرة المتجددة . أما الأولى بنا، - بل والضروري لـــنا - أن يركـــنوا إلـــى البـــناء القديم، ويقفوا على جوانبه وأبعاده، ويتعرفوا حقائقه وأســـراره، تعمـــيقاً لمعارفهم، وتأصيلاً لمحصولهم اللغوي . وفي ذلك تأكيد لمواقعهم العلمـــية ووصل للحاضر بالماضي ، وهو طريق راشد من طرق الحفاظ على الهوية، وسبيل من سبل الكشف عن الذات من البدء إلى النهاية .

وإنمـــا التيســـير العلمي الدقيق يكون في نظرنا بتيسير التقعيد، أي باتباع منهج جديـــد، مـــن شـــأنه أن يـــتخلص من الصعوبات أو الاضطرابات التي جلبتها عوامل خارجـــية ليســـت مـــن صـــلب اللغة، وإنما وقعت بالصنع لا بالطبع عوامل تلفُّ اللغة بالمشـــكلات، وأهمهـــا - فـــي سياقنا هذا - رؤية القائمين بالتقعيد وطرائقهم في تشييد

البــناء وهندســته علــى وجه يجعل الانتفاع به سهلاً ميسراً للشادين أو الراغبين في الالتجاء إليه والاحتماء به .

التيسير إذن إنما يكون في التقعيد لا في القواعد ، وذلك يقتضي منا رسم خطة دقيقة تقود إلى هندسة بناء للقواعد جديد . وبالوصول إلى تلك الجزئيات يتحقق على يد الباحــث نــتائج بقــدر ما أعطاه الله من موهبة لغوية، وقدرة في المثابرة على البحث، والاســتقراء الطويــل وســعة الاطلاع ودقة التأمل في معنى اللغة، فيصل الباحث إلى بحث له أصالته ومكانته في العقول، وليؤدي رسالته على الوجه الأكمل .

ولــيس الابــتكار فــي الــبحوث مقصوراً على كشف أشياء جديدة فقط، وإنما الترتيــب للمــادة ترتيــباً جديداً مفيداً، أو الاهتداء إلى أسباب جديدة لحقائق قديمة، أو تكوين موضوع منظم من مادة متناثرة – يعد ابتكاراً .

[٣] الاستقصاء والتحليل :

للبحث اللغوي طرق مألوفة ، فالباحث إما أن يدرس شخصية نحوية ولغوية أو يتــناول الجهود النحوية أو اللغوية لأحد القدامى أو المحدثين، كما أنه يمكن أن يتناول إحدى ظواهر الفكر اللغوي أو النحوي دون ارتباط الظاهرة بشخصية معينة، فيتعرض فــي هــذه الحالة لجميع من كتبوا في هذه الظاهرة كأن يتناول دراسة الجملة عند نحاة الكوفــة أو المصــادر عــند نحاة العربية ، أو القراءات القرآنية وخصائصها الصوتية والتركيبــية بصفة عامة ، أو يتناول ظاهرة بعينها ، أو باب نحوي عند أحد النحاة ، أو عــدد مــنهم مــثل دراســة الحال في مطوّلات كتب النحو، أو طرق تقسيم الكلام في مختصرات كتب النحو، أو نظم قواعد النحو عند متأخري النحاة، أو أن يتناول الباحث ظاهرة صوتية أو صرفية أو تركيبية في أحد النصوص ، سواء أكانت شعراً أم نثراً أم كانــت فــي القــرآن الكريم وفي هذه الأحوال وعلى اختلاف موضوعات البحث يقوم الباحث بما يلي :

١- مطالعة ما كتب في الظاهرة قبل هذا البحث .

٢- حصر ما جاء في الدراسات السابقة وتلخيصه والإلمام بنتائجه .

٣- جمع ما كتب عن الشخصية النحوية من كتب التراجم أو الكتب التي ألفت حول المدارس النحوية، وكذلك جمع الآراء النحوية واللغوية للشخصية المدروسة إن كان البحث عن شخصية بعينها أو ظاهرة في الفكر النحوي أو اللغوي .

٤- إن كان البحث حول ظاهرة بعينها في نص فيجب أولاً البدء بتحليل النص وذلك باستخراج الظاهرة مع وضع ترقيم لكل نموذج والتعليق عليه أولاً بأول أو ترك فراغ لاستكمال التعليق عليه، وذكر ما قيل عن هذه الظاهرة عند السابقين والمعاصرين .

٥- جمع المتشابه في مواضع متقاربة ليتم بعد ذلك تصنيف الموضوع الواحد إلى عناوين فرعية ووضع كل مجموعة من المواد المحللة تحت هذا العنوان الفرعي .

٦- عرض المادة المحللة مع التعليق على آراء النحاة واللغويين في القديم والحديث ومقابلة هذه المادة ببعضها ، بحيث يتم إبداء الرأي أولاً بأول ومناقشة الآراء أولاً بأول واستخراج نتائج مبدئية أولاً بأول .

٧- بعد استكمال الإجراءات السابقة تركب المادة مع بعضها المحلَّل مع رأي الباحث مع آراء السابقين ، بحيث تصنع نسيجاً واحداً تكتنفه الوحدة ويسوده المنهج الواحد، بحيث لا يبدو أي تناقض في الظاهرة الواحدة أو في العنوان الفرعي الواحد أو في الفصل الواحد .

٨- النظر في جميع الفصول أو الفروع، بحيث يحدث اتساق ويبتعد التناقض أو التنافر على مستوى الفصول جميعاً أو البحث بأكمله .

٩- محاولـــة صـــوغ المقدمة والخاتمة وإعادة النظر في النتائج من خلال الاتساق الحادث في الفصول جميعاً .

١٠- ضـــرورة إزالـــة أي تـــنافر أو تـــناقض قد يبدو بعد وضع المقدمة والخاتمة والنـــتائج، بحيث يكون هناك وحدة في الفكر والهدف بين المقدمة والخاتمة والنتائج من ناحية، وفصول البحث كلها وما بها من آراء من ناحية أخرى.

حين يقرأ الباحث عليه أن يطيل الوقفة عند كل ما يقرأ ، وأن يستوعب الأفكار والآراء ويعللهما، ثم يدّون الخلاصة، وينصرف إلى رأي قد يعرض له فيحلله، ويتبين الحقيقة بعدما تبدي على جنباتها من تيارات عرضية قد توهمه بصحتها، فعليه ألا يمر على تلك الفِكر مرّ الكرام دون فهم أو تأمل واستقصاء، فالاستقصاء ضروري ، فقد تجر الفكرة إلى فكرة أخرى، والرأي إلى آراء، فيجب على الباحث ألا يترك نفسه في حيرة واضطراب في حكمه وتحليله واستنباطه .

ونعنـــي بهـــذا الملحظ المباحث الخاصة بالتراجم عن النحاة واللغويين ، فهناك بحـــوث تدور حول البحوث النحوية واللغوية لبعض الشخصيات ، فقد أنجزت كثير من البحوث والرسائل في هذا الميدان، وتنشأ ملكة الباحث في القدرة على التحليل من طول انكـــباب الباحـــث على آثار القدماء والمحدثين، ولابد أن تتكوّن عنده حاسة خفيّة تمكنه من تذوق النص تذوقاً سليماً، حيث يشعر بأنه أثّر فيه بروعته . ولشخصيته وما يمتزج فـــيها من المشاعر تأثير واضح، ومن أجل ذلك يدخل في تذوقه غير قليل من معتقداته وأخلاقه وأفكاره، ويعلل الباحث هذه الأحاسيس، وينتقل من التذوق إلى العلل والأسباب انـــتقالاً يحلل في تضاعيفه أفكار البحث وأثره تحليلاً يوضح عناصره ومدى تأثيره في النفوس .

ثانياً : الإعداد [الخطوات والمراحل] :

إن البحث العلمي يساهم كما نعرف في تقدم الأفراد والمجتمعات ، ولكنه يتطلب إمكانات مادية، وبشرية قادرة، ومقتنعة بأهميته ، ومتطلعة إلى نتائجه .

إن أهمية البحث العلمي تستوجب أيضاً توفير الظرف الزماني والمكاني المناسبين للموضوع وللباحث، لما يتطلبه البحث من تحكم، وانتباه وتركيز، وعزله علمية [خلوة علمية] .

إن اطلاع الباحث على ما يتوفر لديه من معارف وتجارب اجتماعية وطبيعية قد يثير لديه كثيراً من الاستفسارات التي تدفعه إلى البحث الجاد وتسهل أمامه مجالات الاختيار لموضوع بحثه ، سواء باختبار نتائج ودراسات سابقة، أو محاولة الإجابة على استفسارات أثارتها بحوث علمية في مجالات وميادين مختلفة، وأثارت لدى الباحث أفكاراً أخرى يمكن من خلالها الإجابة عليها أو على بعض منها . ونتيجة الاطلاع العام تزيد معارف المطلعين ويتمكن البعض منهم من معرفة اكتشافات جديدة بما يقوم به من جهود علمية تثري ميادين المعرفة الإنسانية ، وكذلك حضور الندوات والمؤتمرات العلمية والاستماع إليها أو مشاهدتها مرئياً، تزود الباحث بمعلومات جديدة قد تثير لديه مواضيع تتطلب البحث والدراسة .

فمن خطوط المنهج العلمي أن يختص أي علم من العلوم بمجموعة من الظواهر يمكن تحديدها بوضوح وتمييزها عن غيرها من الظواهر التي يختص بها علم آخر، هذه الظواهر هي ميدان هذا العلم أو موضوع بحثه ، وعلم اللغة ميدانه أو موضوع بحثه اللغة وهي نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستعمله جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم ، ويعني علماء اللغة المحدثون باللغة المنطوقة، وهي العنصر الأساسي عندهم، بيد أن أغلب بحوث العربية التي أنجزت ، والتي مازالت تنجز إنما تنجز على اللغة المكتوبة المأثورة ، وذلك إما بوصف النصوص أو إعادة وصف ما وصفه النحاة واللغويون، ونحن في هذا يختلف

عـــن مســـلك علمـــاء اللغة في الغرب ، بالرغم من قيام بعض الباحثين بالدراسة على نصوص منطوقة وهي في الحقيقة محدودة وقليلة حتى الآن .

التعامل مع المعلومات :

بعـــد جمـــع الباحث للمعلومات التي تتصل ببحثه اتصالاً وثيقاً يجب أن تكون قـــراءته واعـــية فـــيدرك الأخطاء المطبعية التي تشكل الفهم أحياناً ويوازن أو يقارن، وينتقي أجود الثمار من الكتب التي قرأها ويسجلها بإحدى الطريقتين الآتيتين :

[أ] إعداد البطاقات :

يبدأ الباحث في قراءة المصادر والمراجع التي لها صلة بموضوعه، فيأخذ كل مـــا يهم موضوعه، ويدون مادته في بطاقات بصورة منظمة، فكل بطاقة تختص بجزء مـــن بـــاب من أبواب البحث أو فصل من فصوله، وبعد الانتهاء من تلك المرحلة تبدأ مـــرحلة الفـــرز والـــتوزيع على الأبواب والفصول بدقة متناهية، ويكتب عليها عنوان الفصل أو الباب .

[ب] طريقة الملفات [الدوسيه] :

ويمكـــن للباحـــث أن يســـتعمل طـــريقة أخرى تساعده على جمع المعلومات ومـــراجعها، وهـــي تســـجيل المعلومات في أوراق توضع في دوسيه خاص بكل باب، وهذا يسهل على الباحث قيامه بكتابة موضوعه بعد أن توفرت المعلومات عنه .

ومـــن الســـهل على الباحث أن يعيد ترتيب أوراق الدوسيه، كما أنه من السهل أيضاً أن يستغني عن بعضها أو أن يضيف إليها أوراقاً جديدة في أماكنها المناسبة.

كتابة البحث :

إن مرحلة الكتابة على جانب كبير من الأهمية، وفيها مشقة بالغة؛ لأن الباحث يتحير ويتردد فيما جمع من معلومات أيها يكتب ، أيها يترك، حيث يصعب كتابتها كلها في بحثه، ومما يزيد من حيرة الباحث كون بحثه قد سبقه إليه غيره، وهنا عليه أن يختار الطريف والمفيد، فيتبلور الموضوع أمام عينيه ويتضح .

وأثناء كتابة البحث يراعي الباحث النصوص التي نقلها ، فله أن يدلي برأي فيها، على أن يكون مؤيداً بالحجج والبراهين التي لا وهن فيها ولا إبهام، وهو مسئول عن كل ما يدونه في بحثه، فلا ينقل عن شخص مستسلماً لآرائه، دون أن يبرز شخصيته، مهما كانت مكانة الشخص العلمية – وذلك على أساس علمي سليم – ولكن بأدبٍ وخلق؛ لأن الخلق الكريم والترفع عن الهجوم الدنيء، والالتزام بذلك سياج قوي للبحث ، يَصُدُّ فيصد عن الباحث الطامعين فيه فلا يغريهم به .

وعلى الباحث أن يعني بدقة الاقتباس من المصادر الأصلية المؤتمنة، وبدقة النقل والتآلف بين المقتبس وما قبله من الكلام، شريطة ألا تطغى كثرة الاقتباس على شخصية الباحث، ويمكن له أن يقدم لكل باب أو فصل بمقدمة موجزة تستوعب أفكار الباب أو الفصل، ويجب أن يكون واضحاً في عرض ما توصل إليه، ويتجنب الإيجاز المخل، ويحذر الحشو والتطويل، فهذا يفسد تماسك الموضوع ويذهب برونقه .

ومما هو جدير بالذكر الاهتمام بالقواعد اللغوية والإملائية، فلا يجمل به أن يقع في أخطاء من هذا القبيل، ويستحسن الخط الجميل في أسطر منظمة بينها فواصل لتسهل القراءة ويعتني بتدوين كل فكرة في فقرة جديدة ليكون ذلك تنبيهاً للقارئ، ويدل على أن كاتب البحث يتمتع بعقلية علمية ناضجة ومنظمة، وقد يستعين إذ ذاك بوضع سهم يشير إلى موضع الزيادة التي مثلت أمام عينيه أو يكتب على ورقة مستقلة وتوضع في أسفل الورقة الرئيسة مع إشارة تدل على ذلك، أو يعمد إلى كتابة الورقة كلها من جديد، فذلك خير من الهوامش الكثيرة .

ومما هو جدير بالذكر عليه أن يتخذ خطوات مهمة في كتابته لبحثه وترتيبه وهي:

[أ] الترقيم: وهـذا ركن أساسي في تنظيم البحث وترتيبه، وتوضع أرقام مستقلة لكـل صفحة على حدة تبدأ برقم [١] ، وتوضع في أسفل كل صفحة هوامشها، ويوضـع رقـم مسلسـل متصل للبحث كله ويبدأ برقم [١] ويستمر إلى نهاية البحـث، وأحياناً يبدأ الباحث برقم [١] إلى نهاية كل باب أو فصل على حدة ، وهـذا يتوقف على طبيعة أفكار أبواب بحثه، وهذا مهم، لما يتوقف عليه الفهم فـي بعض الأحايين، خاصة في عصرنا الحديث الذي تميز بالرغبة في سرعة الانتهاء من قراءة الكتاب أو البحث ، والرغبة أيضاً في استقلالية الأفكار التي يحتويها البحث، وإن كانت متصلة بالموضوع إلا أنها تبرز جانباً مضيئاً يعتمد علـيه القارئ في فهم ركن من أركان الموضوع، ويراعي في الهوامش أيضاً الإيضـاحات التي قد ترد في صلب الرسالة؛ لأنها غير أساسية فيها ، وتوجيه الباحـث للقارئ إلى مكان في المؤلَّف قد وضحت فيه نقطة ما، أو جاءت فيه تفاصيل عنها .

[ب] الفهارس: أمـا الفهـارس فهـي دليل محتويات الموضوع الذي تخيره الباحث ودرسـه إلى أن وصل إلى نتائجه ، وهي خاتمته ، وسجل مصادره ومراجعه، ثـم أتـى بإثـبات ذلك في فهرس يحتوي على رقم الصفحة والصفحات التي يحـتويها الموضـوع، والفهـارس مختلفة الأنواع، وترتب على النحو التالي: فهناك فهرس للآيات القرآنية الكريمة، ثم الأحاديث النبوية الشريفة، ثم الأمثال ، ثـم القوافي، ثم فهرس الأعلام، ثم فهرس المدن والأماكن والأنهار، وفهرس القـبائل، والأحداث والسنين، والمصادر والمراجع، وقد لا يحتاج كل بحث إلى كل هذه الأنواع من الفهارس .

المصادر والمراجع :

من الأمانة العلمية أن يشير الباحث إلى المصادر التي استعان بها في بحثه ويتم هذا بطريقة من الطرق الآتية :

١- الإشارة إلى المصادر في الهوامش السفلى أولاً بأول في صفحات البحث المختلفة، ويمكن وضع قائمة بمصادر كل فصل أو جزء في نهايته .

٢- وضع قائمة واحدة بالمصادر في نهاية البحث، وهذه هي الطريقة المألوفة والمتبعة، وهذه المصادر تساعد القارئ الذي يريد أن يتوسع أو أن يقرأ كتاباً أعجبه منها [١]، وعلى الباحث أن يسجلها على حسب الترتيب الهجائي .

جمع المادة وكتابة البحث :

وتلك مرحلة تالية لخطوات المرحلة السالفة وهي القراءة المستفيضة ، حيث يقوم الباحث بتدوين كل ما يخدم موضوع بحثه من مادة علمية نقلاً من بطون المصادر والمراجع ، وفي ضوء قراءاته السابقة وتصوره لأبعاد موضوع البحث وجوانبه .

وتعد طريقة البطاقات هي الطريقة المثلى في جمع المادة العلمية للبحث، حيث يسهل ترتيبها وتبويبها، فضلاً عن أن الباحث يمكن أن يستفيد ببعضها في بحوثه المستقبلية . وتصنع البطاقات غالباً من الورق المقوى، وحجم البطاقة هو ١٠ × ١٤ سم تقريباً ، ويلزم أن تكون متساوية الحجم، وتدون الكتابة على وجهٍ واحد منها، ويستحسن أن يوضع عنوان لكل اقتباس ليدل على ما ورد في البطاقة من معلومات ، ويكتب في أسفل البطاقة اسم المصدر الذي استمدت منه المادة، وكذلك اسم المؤلف ورقم الجزء والصفحة، مثبتاً مكان طبع الكتاب وتاريخه والناشر كلما استطاع إلى ذلك سبيلا .

---

(١) انظر: د/ حمزة الدمرداش زغلول : في المكتبة العربية ص ١٧ ، ١٨ ، ط١ ، ١٩٨٠م ، دار الطباعة المحمدية .

وعلى الباحث أن يكتب في كل بطاقة اقتباساً واحداً فقط، كما أن عليه أن يجمع مـــن المادة كل ما يتصل بموضوعه من قريب أو بعيد وعندما ينتهي الباحث من قراءة المراجع التي أعدها ، ومن جمع المادة اللازمة في البطاقات يبدأ فرزها وتوزيعها وفقاً للتبويـــب الـــذي قـــام به من قبل. ومن المستحسن أن توضع من أول الأمر البطاقات الخاصـــة بكـــل باب من أبواب البحث في ظرف خاص متين كبير الحجم، يكتب عليه عنوان الباب [1].

فـــإذا انتهى الباحث من قراءة المراجع، ومن جمع المادة، وتصنيف البطاقات ، فلـــيدرك أنـــه انتهى من مرحلة يستطيع كثيرون أن يقوموا بها دون تفاوت يذكر، وأنه ابـــتدأ مـــرحلة جديـــدة يـــبرز فيها التفاوت بروزاً كبيراً، وتظهر فيها شخصية الباحث ظهوراً واضحاً، وتلك هي مرحلة الاختيار من المادة المجموعة، وترتيب ما اختير، ثم كتابـــته، وتلـــك مرحلة شاقة لا ريب؛ إذ إن الباحث سيجد من غير الممكن ومن غير المرغوب فيه إثبات جميع ما جمع،وبخاصة إذا كان موضوعه مطروقاً كثرت الأبحاث فـــيه، فعلـــى الباحـــث حينئذ أن يظهر مقدرته في تقدير المادة التي جمعها ليتمكن من الاختـــيار منه، فعملية الاختيار أو قل التصفية تتوقف قبل كل شيء على مقدرة الباحث على تقويم بضاعته ومادته ليأخذ بعضها ويدع بعضها الآخر .

وبطبـــيعة الحال سيدخل في تقويم المادة طرافتها وعدم ذيوعها، ودقة المرجع الذي أخذت منه، وقبل كل شيء فائدتها لموضوع البحث .

وعملـــية الاختيار أو التصفية تستلزم أن يضع الباحث أمامه البطاقات التي بها مادة عن القسم الذي يريد كتابته، ويقوم بقراءتها ثانية، وبالتفكير فيما احتوته، ثم يختار مـــنها ، ويكـــوّن رأياً ينساب في تسطيره تبعاً لخطة ارتسمها ولترتيب اقترحه، ويجب كذلـــك أن تبرز شخصية الباحث في مقارنة النصوص بعضها ببعض، وأن يبدي رأيه

---

(1) د/ أحمد شلبي : كيف تكتب بحثاً أو رسالة ؟ ص ٧٥ ، ٧٦ [بتصرف].

بين الحين والحين ليدل على حسن تفهمه لما أمامه من معلومات، وعلى أنه مؤثر فيها، متأثراً بها. وحذار أن يكون متأثراً بها فحسب، فهو إذاً ناقل وليس بباحث ناقد خبير[1].

وتعتمد هذه المرحلة على ذاكرة الباحث وحافظته، غير أن هناك بحوثاً تطبيقية لا يكـون الاعـتماد فـيها غالباً على المادة المجموعة، وإنما تعتمد على قدرة الباحث التحليلية واستكماله لأدوات التحليل .

الخطة :

وتمر هذه المرحلة بخطوات[2]:

[أ] التعرف على نماذج من التخطيط لموضوعات قريبة الشبه بموضوع البحث .

[ب] القراءة حول موضوع البحث للتعرف عليه والتعمق فيه دون تقيد بشيء .

[ج] اقـتراح تخطـيط للبحـث في ضوء النقطتين السابقتين، بحيث يستطيع الباحث أن يضع الخطوط العريضة الأولية لدراسته، ويشمل ذلك :

١- وضع عنوان للمشكلة موضوع البحث .

٢- بيان المشكلات الرئيسة التي تتفرع عن هذه المشكلة، وكل مشكلة من هذه المشكلات الرئيسة المتفرعة تسمى باباً .

٣- تقسم كل مشكلة من هذه المشكلات الرئيسة إلى مشكلات فرعية، كل منها يسمى فصلاً .

" وينبغـي للباحث بعد قراءته، واطلاعه الواسع المتعدد أن يفهم ويستوعب ما قرأ ولابد له من الغوص وراء الأفكار والآراء التي وقف عليها في قراءته، والتي قيل بهـا إزاء موضوع البحث، وأن يركز على القضايا والنقاط التي يود إبرازها في بحثه،

---

(١) كيف تكتب بحثاً أو رسالة ؟ ص ٨٣ – ٨٥ .

(٢) كيف تكتب بحثاً أو رسالة . ص ٤٣ – ٤٥ ، [بتصرف] .

ثـم يقـوم بعد ذلك بتصور كامل للموضوع، حتى يتم له التعرف على أبعاده وجوانبه لـيرى من خلال ذلك كله موقفه من الآراء السابقة، مستعيناً في ذلك بالبحوث الجديدة، وآراء المحدثين "[1].

وفـي هذه المرحلة يقوم الباحث بتقسيم المعلومات التي حصل عليها، وتصنيفها في قوائم ثلاث تسمى بـ :

١- قائمة الحضور، وهي تضم كل الخصائص التي توجد بوجود الظاهرة.

٢- قائمة الغياب ، وهي تضم كل الخصائص التي تغيب بوجود الظاهرة.

٣- قائمة المقارنة، ويقارن فيها بين القائمتين السابقتين .

ولاشـك أن الغـرض فـي ذلك هو تحديد الخواص الذاتية للظاهرة، واستبعاد الخواص العرضية أو الزائلة، أو التي توهمنا أنها ثابتة .

تماسك البحث وترابط أجزائه :

وإذا عرفـنا أن البحـث بناء متماسك متكامل الأجزاء، أدركنا أي خلل يصيب البحـث إذا كـان بـناؤه مفكك الأواصر متفاوت الأجزاء، ويعزي هذا الخلل عادة إلى سببين رئيسيين: أولهما سوء تخطيط البحث، والآخر ضعف النظرة الشاملة التي تتمثل " بـناء البحـث " كمـا يتمثل كل منا صورة كائن حي سوى الخلق مترابط الأعضاء متماسك الأجزاء يعرف أهدافه جيداً أو يسعى إليها، ويؤدي وظائفه الحيوية أداء سليماً.

أمـا تخطيط البحث، أو خطته ، أو هيكله، أو تصميمه، فهو عمل يتوقف على حـدٍ بعـيد على مدى خبرة الباحث واطلاعه وقدرته على التنظيم والتنسيق، وتخطيط البحـث اللغـوي المطول، وإن اختلفت بعض تفاصيله ومصطلحاته، يجرى عادةً على تقسـيمات تضم الأجزاء الرئيسة للبحث ، فيبدأ بالمقدمة فالتمهيد، فالأبواب وفصولها –

---

(١) د/ يحيى محمود علي الجندي : أضواء على بعض أعلام اللغة وقضاياها : ص ٤، القاهرة ١٩٨١م .

أو الفصـــول وحدهـــا – فخاتمة البحث ، فالفهارس . وقد تضاف إلى هذه الأجزاء بعد اســـتيفائها بعض الملاحق والإيضاحات ، ولكل جزء من هذه الأجزاء وظيفة يؤديها في البحث :

[أ] **فالمقدمة** preface وظيفـــتها بـــيان انطباعات الباحث المتعلقة ببحثه، وما لقيه من صـــعوبة فـــي ســـبيل جمع مادته وبناء بحثه، والتنويه بمن عاونوه على تذليل صعابه والإشراف على بحثه .

[ب] **والتمهيد** Introduction وظيفته التعريف بالمبادئ العامة التي تتعلق بالبحث كأن يشرح الباحث – أهدافه ، ويصف المنهج الذي اختاره لبحثه . ويوضح الأفكار الرئيسة التي يتناولها بالتفصيل في أبوابه وفصوله .

وقـــد يجمـــع الباحث المقدمة والتمهيد معاً في عنوان واحد، وفي كلتا الحالتين يراعـــي الباحـــث ألاّ يتجاوز في كتابتهما نسبة العشرة في المائة من مجموع صفحات البحث .

[ج] **الأبـواب والفصول** ، أو الفصـــول وحدها، وهي لب البحث وصميمه والباب يشمل عدداً من الفصول، ولكل باب عنوان يخصه، وكذلك لكل فصل، وعنوان الباب أشـــمل وأعـــم من عناوين فصوله . وقد يستغني الباحث عن الأبواب ويقتصر علـــى الفصول وحدها، فيرتب البحث على فصول متناسبة الكم والكيف، تنطق عناويـــنها بالترابط الوثيق بين جوانب الموضوع والتكامل بين أجزائه، ويحمل ترتيبها أرقاماً مسلسلة تبدأ بالفصل الأول، فالثاني، فالثالث إلى آخر البحث .

[د] **خاتمة البحث** Conclusion & Abstract : ووظيفـــتها إبـــراز النتائج الكبرى للبحـــث واستخلاصها من النتائج الصغرى المتفرقة على فصول البحث ، فهي تلـــم شـــتات هذه النتائج وتصوغها في معانٍ كلية : ولابد أن تكون هذه النتائج الكـــبرى مرآة صادقة تعكس ما ورد في تمهيد البحث من الأهداف التي دسمها

الباحث لبحثه، فالنتائج الكبرى للبحث هي في حقيقة الأمر ثمرة أهدافه، أو هي ترجمة لها .

[هـ] **الفهارس** Indexes : وهي عامة وتفصيلية، وقد يكتفي الباحث بالفهرست العام الذي يضم كشافاً لمحتويات البحث ويرشد إلى صفحاتها .

[و] **ثبت المصادر والمراجع**: وهو قائمة بعناوين المصادر والمراجع التي استعان بها الباحث، توضع في آخر البحث، ويراعى ترتيبها على حروف المعجم ووصف كل منها وصفاً كاملاً، فيذكر عنوان المصدر أو المرجع، واسم مؤلفه وتاريخ الطبعة ومكانها إن كان مطبوعاً أو الرقم الذي يحدد مكان المخطوط، أو صدور المجلة العلمية ونحوها .

[ز] **إضافات وملاحق**: قد يضيفها الباحث بقصد توضيح بعض ما ورد في فصول بحثه، أو تعزيزه بالشواهد، وتقضي لوائح جامعاتنا بأن يقدم طالب الماجستير أو الدكتوراة، بالإضافة إلى عدد من نسخ البحث ، عدداً من الخلاصات يكتبها الباحث في حدود ما نصت عليها اللوائح، ويقدمها للجهة الرسمية ، ومنها خلاصة للبحث في لغة أوربية .

هذا نمط مألوف في تخطيط البحث اللغوي أو الأدبي وتقسيم قطاعاته وجوانبه، ولكن قد يتعرض الباحث المبتدئ للزلل في رسم خطته، حين يهمل – مثلاً – بعض القطاعات الرئيسة في الخطة، أو يضيف إليها موضوعاً قد يوقعه في مزالق الحشو والاستطراد، أو يسيء فهم الوظيفة التي يؤديها كل قطاع من قطاعات الخطة، فيقع في مزالق التكرار وينحرف عن الطريق المؤدي إلى تحقيق أهداف البحث .

أما سبب ضعف النظرة الشمولية في تمثل بناء البحث، فهو بطبيعة الحال وثيق الصلة بالسبب الأول، فهو يحتاج من الباحث إلى تدرب ومران على نظرة نقدية فاحصة تتمثل موضوع البحث في أثناء إعداده ، وفي كل خطوة يخطوها في رسم

الخطـــة وفي تناول قضاياه وتفاصيله ، كما يتمثل الناقد الذواق لوحة فنية بديعة الصنع مـــتكاملة الأجـــزاء، أو صورة حية سوية البناء ، نظرة أشبه بنظرة الناقد الفنان الذي يتمـــثل بـــناء القصيدة في الشعر الحديث، على أساس وحدة عضوية متكاملة، تعبر في جملـــتها وتفاصيلها عن تجربة واحدة ، ومن هذه الناحية يلتقي في بناء البحث بفن بناء القصيدة أو اللوحة الفنية .

ولقـــد أدرك علمـــاء المناهج هذه الناحية في بناء البحوث العلمية بصفة عامة، فقـــرروا أنه لا غنى للباحث في شتى العلوم عن حظ من الموهبة الفنية، فهي ذات أثر عظـــيم فـــي توجيه البحث العلمي ورسم مخططاته، وابتدعوا لهذه الموهبة اصطلاح " الذوق العلمي " في مقابل الذوق الفني، ووصفوه بأنه نوع من الإحساس بالجمال[1].

ويـــبدو أن الذوق العلمي يتدخل في كل خطوات البحث، فيفطن الباحث بحاسته المـــرهفة إلـــى ما فيه من عيوب ومحاسن، وفي ضوء هذه الموهبة يهتدي الباحث إلى الفكـــرة المثمرة، والصورة المتكاملة للخطة ، بل يدرك الفرق بين علاقة المجاورة بين كلام وكلام، وعلاقة الارتباط العضوي بين أجزاء الواحد وقطاعاته . فالذوق العلمي لا يســـيغ أن يســـمي مجموعـــة من المقالات المتجاورة في كتاب واحد بحثاً؛ لأن علاقة المجـــاورة بين مقال ومقال في هذه الحالة علاقة مصطنعة لا تقوم على خطة متماسكة مـــتكاملة، ولا تمـــنع أن يكـــون بين المقال والمقال من التباين والتنافر ، ما يكون بين مقـــالات مـــتفرقة تـــباعدت أهدافها، واختلفت ظروفها ومناسباتها التي أحاطت بكتابتها وإعدادها .

إن العلاقـــة بين مقدمات البحث وأبوابه وفصوله وفقراته، كالعلاقة بين أعضاء الجســـد الواحـــد، ولو فرضنا جدلاً أن العلاقة التي تربط بين أعضاء البدن الواحد هي مجـــرد المجاورة والمزاملة لاستحالة أعضاء البدن إلى مجرد أشلاء ممزقة عاجزة عن

---

(1) و.أ.ب. بفردج : فن البحث العلمي ، ترجمة زكريا فهمي ، ص ١٣٣ ، مراجعة د/ أحمد مصطفى أحمد ، ط القاهرة ١٩٦٣م .

إقامـــة حياة أو حركة لصاحبها ، بل إن الذوق العلمي يمتد أثره إلى أسلوب الباحث في كـــتابة بحثه وفي اختيار الكلمات وتكوين الجمل ، وإلى الملاحظات العلمية التي يبديها وإلـــى الاتجاهـــات الفكـــرية اللامعـــة التي يستوجبها، بالإضافة إلى الحس اليقظ الذي يحـــرص على إحكام العلاقات والكشف عن خفايا الثغرات التي تعيب البحث وتخطيطه فـــي الـــنظر والتطبيق، وهو في هذا يشبه عمل الفنان المدرب الذي يفطن إلى مواطن العـــيوب فينـــبه عليها، فهو ينفر من الصوت النشاز بين النغم المتناسق، ومن الموضع المشوه في صورة تمثال [1].

وعلـــى الرغم من أن الذوق العلمي موهبة توجد في الناس بدرجات متفاوتة ، شأنه في ذلك شأن أي ذوق آخر، فإن من الممكن – أيضاً – تنمية هذا الذوق بالتدريب على تقدير العلم ... ولا يتحلى بالذوق العلمي إلا من يتصف بحب أصيل للعلم .

والواقـــع أننا نستمد ذوقنا من مجموع ما تعلمناه من الآخرين، وما خبرناه وما فكـــرنا فيه " [2]. ويتحدث باحث آخر عن بناء البحث الأدبي وما ينبغي له من تسلسل منطقـــي محكم، فيعبر عن شيء يشبه هذا الذوق العلمي، ويبدي فيه رأياً آخر، فيقول : "ينبغـــي أن يســـتقر في أذهان الباحثين الناشئين أنهم يتعاملون في كلامهم مع علاقات منطقية محكمة . فالكلام لا يلقى عفواً ولا يسرد سرداً بدون إحكام علاقاته المنطقية بما قبله وبما بعده .. ولا يظن القارئ أن هذا شيء سهل، فكثير من البحوث الأدبية ينقصه التسلســـل المنطقـــي المحكم ، حتى ليظن الإنسان كأنما هو هبة لا يؤتاها إلا الأقلون، والواقـــع أنه ليس هبة ، وإنما هو كدح وعناء أن يحدد الإنسان نفسه إزاء ما يبحثه وأن يـــتحول به إلى ما يشبه تجارب علمية قويمة، تجارب بالمعنى الدقيق، فهو لا يكتب – بعـــد جمعـــه لمادتـــه – كل ما يطوف به، إنما يكتب ما يستحيل إلى تجارب متعاقبة ،

---

(1) انظر د/ عبد المجيد عابدين : مزالق في طريق البحث اللغوي والأدبي وتوثيق النصوص ، ص ٨، دار جامعة الخرطوم، الخرطوم، ١٩٨٣م .

(2) بفردج: فن البحث العلمي ص ١٣٤ .

تجارب تسودها العلاقات المنطقية، بحيث تصبح مقدمات ونتائج مرئية، وبحيث يصبح البحث وكأنه خيط ممتد لا عقد فيه ولا نشاز " [1].

والخطـة هـي ترتيـب الباحث لأفكار موضوعه في أبواب وفصول تشمله، وتظهـر شخصية الباحث فيها، وهي تبرز شخصية الباحث، وتوضح الموضوع، ويلزم ترتيـب موادها وفقاً لأهميتها للموضوع، وتخضع أبوابها وفصولها في تنظيمها لأساس سـليم ، وفكـرة منظمة، وينبغي أن يجمع كل باب عدداً من الفصول، وكل فصل يقسم إلـى أجزاء، ويستقل كل جزء بمادته العلمية حتى تتضح حدوده وتظهر معالمه، ويهتم بالـرابط الـذي يربط بين الأجزاء ومحتوياتها بأن يكون بيّناً واضحاً ، بحيث لا يشعر القارئ بانفصال جزء عن آخر وعدم ترابط بين الأفكار .

ولـيس هناك ما يمنع الباحث من التغير والتبديل في الخطة، والخطة المبتكرة تتطلـب الجهد والمثابرة؛ لأنها يجب أن تأتي مناسبة ومقبولة وصحيحة، فهي الأساس الـذي يقـوم علـيه البحـث وفيها يظهر علم الباحث وتركيزه وقوة بصيرته في فهم موضوع البحث .

وإطالـة لبحث بإسراف قد يعرضه للفشل، وذلك لعدم التركيز والتنسيق، لكثرة التفاصـيل التي لا تدعو إليها الحاجة، وهذا يتطلب من الباحث أن يتقيد بمقدمة وتمهيد، ثـم عـرض للأبـواب الخاصـة بالموضـوع المدروس، فالخاتمة، وأخيراً المصادر والمراجع وبعد ذلك الفهارس .

وفـي حديث الباحث عن التمهيد، فإنه يختلف باختلاف الموضوعات ، أما في حديث الباحث عن أبواب الموضوع، فهي ترتب وفقاً لما يقتضيه تنسيق البحث، فالباب الأول ويلـيه الـباب الثانـي فالثالث وهكذا ، وكل باب يضم فصولاً وفقاً لما تقتضيه جزئـيات البحث، وكل فصل يعالج ناحية بذاتها إلى أن تتكامل جزئيات الموضوع حتى يصل إلى الخاتمة ، ففيها تلخيص وبيان لما وصل إليه الباحث من جديد في موضوعه.

---

(1) د/ شوقي ضيف: البحث الأدبي طبيعته، مناهجه، دار المعارف ١٩٧٢م ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

تنسيق مواد البحث وترابطها :

بعد جمع الباحث لمادة بحثه يجب أن يرتبها وينسقها ، ويضعها في فصول منظمة، بحيث لا يُدخل حشواً، ولا يحشر كل ما جمعه من مادة لشعوره بالتعب والجهد الكبير الذي بذله في جمعها؛ لأن ذلك يجعل البحث مكتظاً وفيه الكثير من الحشو المخل، وعليه أن يوازن ويختار ما يقوّم البحث، ويجعله سليماً بدون حشو أو تطويل، وأن يضع مادته التي اختارها في أبواب وفصول مترابطة، وكأن البحث حلقات في سلسلة منتظمة بحيث تصبح كل فكرة جزءاً من البناء المتكامل في موضوع البحث، ويجب أن يراعي الكلام الذي ينسج به بحثه ، بحيث لا يلقى عفواً، بل يراعي فصاحة الكلمة وخلوها مما يشوبها من عيوب الفصاحة، ويبتعد عن الغموض والخطأ اللغوي والغرابة والتعقيد المعنوي أو اللفظي، فحديثه عن البلاغة يجعله أولى الباحثين في مراعاة ذلك، ولابد للباحث أن تتوفر له المقدرة على دقة عرض بحثه، فتكون للبحث مقدمته ثم التمهيد، ثم الموضوع، فالنتائج أو الخاتمة، وكل هذا يتسم بالوضوح، وعلى الباحث أن يتحرى الدقة في اختيار العناوين التي تتلاءم معها الأفكار .

ومجمل القول أن البحث المتكامل هو الذي يستوعب فيه الباحث مادته، ويحيط بها وينسقها تنسيقاً جيداً وجديداً، مع مراعاة الأداء الجيد الذي يتم بمعرفة دلالات الألفاظ التي يجب أن يستعملها بدقة مع سهولة في الأسلوب ، وعذوبة في العبارات التي تؤدي إلى الأفكار ، متوخياً الإفصاح والبيان، معرضاً عن التكلف والتعقيد، ولابد للباحث من المقدرة على النقد، مما يوجب عليه الاستيعاب الجيد لقواعد اللغة والنحو، هذا إلى جانب الملكات الخصبة لذلك، ومما هو ضروري في صياغة البحث وحسن أدائه عدم التكلف في الأسلوب، فلا يستعمل السجع إلا ما جاء عفواً، ولا يتعمد إيجاد الصور البيانية إلا بما ناسب الموضوع ويتحاشى ما يجره منها إلى أخيلة معقدة، وحتى لا تؤدي به إلى استخدام صور محفوظة تكون في غير موضعها فتصبح ممجوجة .

ومن أهم ما يميز الباحث عن غيره مقدرته على جذب انتباه القارئ وتشويقه، بحيث يقبل على القراءة إقبالاً ، ويساعده في ذلك براعة استهلال موضوعه، مع حسن تخلصه من فكرة إلى أخرى حتى ينتهي به المقام إلى حسن الانتهاء .

جمع الحقائق :

المقصود بها الملاحظات، وهي المادة الأولى للبحث العلمي،وأساس الاستقراء، ومن المعروف أن لكل ظاهرة تاريخاً يمكن متابعته في أحواله المختلفة والوسيلة لذلك إنما هي الملاحظة والتجربة، فيقوم الباحث بتسجيل كل ما وقعت عليه حواسه .

لا قيمة للمعلومات والبيانات إذا لم تحلل وتفسر وفق منهج علمي واضح؛ لأن تكديس المعلومات بدون تحليلها لا يحقق نتائج تجيب على الاستفسارات أو الفروض، بل إذا اقتصر على ذلك يعد تضييعاً للوقت والجهد .

ولكي لا يضيع جهد الباحث هباءً منثوراً عليه أن يحلل المعلومات والبيانات التي جمعها وتحصل عليها من مصادرها ومراجعها ، وحسب ظرفها الزماني والمكاني الذي تأثرت به دون عاطفة شخصية، أي ينبغي أن تحلل المعلومات وفق معطياتها وعلل وجودها ، لا أن تحلل بمعطيات خارجة عنها ، وذلك من أجل أن ينصب التحليل على الموضوع لا على ما هو خارج عنه، وعند تحليل المعلومات ينبغي ربط المتغيرات ذات العلاقة بالظاهرة مباشرة، والتركيز عليها ، وتبيان المستقل منها والتابع وعلاقتهما بالمتغير المتداخل أو الدخيل عليهما، وتبيان آثار كل منها سواء كانت إيجابية أو سلبية، وسواء كانت أساسية أو ثانوية .

إن التحليل العلمي لا يخضع للمزاج الشخصي، بل يخضع للأحكام والقوانين العامة ، والنظريات ، ويتعلق بالموضوع .

يعد التحليل عملية عقلية يستند على معطيات [معلومات] ويؤدي إلى نتائج قد تكون معالجات أو مقترحات علمية وقائية . ويهتم التحليل بمعرفة طبيعة المشكلة، والعوامل المؤثرة فيها، سلباً أو إيجاباً، مما يجعله المقدمة العلمية التي تؤسس عليها

التفسيرات الموضوعية للعوامل المستقلة والمتداخلة أو التابعة، ويعد التحليل حلقة وصل بين مرحلة تجميع المعلومات والبيانات، وبين مرحلة الوصول إلى النتائج ، مما يجعل النتائج مرتبطة بالمعلومات وكامنة فيها .

التصنيف :

تصنيف أية مجموعة من الأشياء معناه وضعها في أصناف مرتبة على أساس خاص، بحيث يسهل معرفتها وتمييز أفرادها وأصنافها ويسهّل الانتفاع بها، ونحن نلجأ إلى التصنيف في حياتنا العملية كلما دعت الضرورة إليه . وهذا التصنيف يصلح في القرآن بتصنيفه إلى مفرد وجمع أو صيغ أفعال أو جمل اسمية أو فعلية .

يعد تصنيف المعلومات والبيانات القاعدة الأساسية التي تمكّن الباحث من التحليل العلمي المنظم، ويعد المرآة التي تظهر القيم التي انتظمت المعلومات فيها أمام الباحث المحلل، أو المشخص لها . ويراعى في التصنيف الظرف الزماني ، والظرف المكاني، والكيف، والكم، وفقاً للموضوع والبيانات المتحصل عليها منه .

يتضمن التصنيف العلمي نوع الأسئلة المفتوحة، والمقفلة ، والأسئلة المفتوحة المقفلة ، والأسئلة محدودة الإجابة، وذلك بعرض كل القيم التي يحتوي عليها كل سؤال وحسب المتغير الذي يتضمنه . ويتم تصنيف المعلومات والبيانات دون تداخل أو التباس بين قيمها المتعددة .

وهكذا يصنف الكل مع الكل، والجزء مع الجزء، والمتجزئ مع المتجزئ؛ لأن المقصود من عملية التصنيف هو ترتيب المعلومات والبيانات، وتقسيمها إلى فئات بحيث توضع القيم المتشابهة في فئة واحدة، ولذلك يعد التصنيف مرحلة فرز المعلومات والبيانات وعرضها للتحليل العلمي .

إن المعلومات ، والبيانات التي تم تجميعها قد تكون كثيرة ومتداخلة، مما يجعل صعوبة في تبيان العلاقات بين المتغيرات التي كانت وراء ظهورها أو وجودها، وهذا

يتطلب من الباحث أن يصنفها ويبوبها، من أجل تبيانها بكل دقة ووضوح، ومن أجل تسهيل عملية تحليلها من بعد .

ويتم تصنيف المعلومات والبيانات حسب المتغيرات الرئيسة ، والقيم المشتركة في الخصائص، والصفات، للتمييز بينها ، من أجل إبراز أثر كل متغير على الظاهرة أو الموضوع، وعرضها دون التباس أو تداخل . ولذلك فالتصنيف يساعد على تبيان المعلومات المتماثلة، والمعلومات غير المتماثلة عن طريق توحيد المتماثل، وتفريق غير المتماثل، وتصنيفه حسب الخصائص ، والصفات التي يتميز بها كل متغير أو عنصر .

وبما أن تصنيف المعلومات وفق المتغيرات التي تشتمل الدراسة عليها، إذن من الضرورة مراعاة قيم المتغيرات في التصنيف، وبما أن التصنيف وفقاً للخصائص والصفات ، إذن التحليل يكون بينها وبين آثارها .

وهذا الإجراء غاية في الأهمية ؛ لأنه يعين الباحث على تعديل الخطة وفقاً للمتغيرات؛ لأن الخطة غالباً ما تكون مفترضة؛ لأن الطالب العربي يهتم دائماً بالتسجيل واهتمامه بالتسجيل يفوق كل اهتمام .

والتصنيف العلمي مهمته وضع الأشياء في نظام واحد يميز بعضها عن بعض، ويوضح الصلة بين أنواعها ووجوه الاختلاف بينها ، فعالم الأصوات يختص بالأصوات، وعالم النحو يختص بفروع النحو، وعالم اللغة يهتم بمستويات التحليل جميعاً دون الإغراق في مسائل النحو .

عرض المعلومات والبيانات :

بعـد أن تصـنف المعلومات والبيانات تسهل عملية عرضها بشكل يسهل على الباحـث تحلـيلها، وإجـراء المقارنات بينها، واستخلاص النتائج منها، وتيسر للقارئ إمكانـية الاطـلاع علـيها بـدون ملل، نتيجة عرضها في صور مركزة، ومختصرة وواضحة، وتعرض المعلومات بطرق مختلفة من باحث لآخر وفق الآتي :

[١] **عـرض المعلومـات إنشائياً** : تصنف المعلومات وتعرض بصيغة تبين أو تظهر العلاقـات بين المتغيرات، والصفات ، والخصائص، ويتم التعبير اللفظي عنها سواء كانت المعلومات والبيانات كمية ، أو كيفية .

[٢] **عـرض المعلومـات والبـيانات في جداول** : خاصة إذا كانت الدراسة أو البحث يحـتوي على أرقام تعبر عن قيم متعددة، ويكون كل عمود خاصاً بقيم المتغير أو العـامل، ولكـل من هذه العوامل قيم تتعدد وفقاً لتصنيف الباحث لها، ووفقاً لتصـنيفه لها يتم عرضها في جداول، تختصر للقارئ الزمن الذي قد يستغرقه أكثر لو أنها لم تعرض في شكل علمي يبين قيمها الدّالة عليها .

[٣] **عـرض البيانات والمعلومات بيانياً** : تعد الرسومات البيانية وسائل إيضاح مهمة فـي تبـيان وتوضـيح المعلومـات والبيانات بشكلٍ علمي تسهل على القارئ والباحـث المقـارن الإلمـام بالمعلومات والبيانات، وتأخذ أشكالاً متعددة منها المنحنيات ، والأعمدة ، والدوائر .

[٤] **عـرض المعلومـات والبـيانات بأكـثر مـن طريقة** : كلما زاد اهتمام الباحث بالموضـوع، وكلما كانت قدراته العلمية، والفنية مستهدفة التوضيح الدقيق من خـلال العـرض العلمي، بعدة طرق مختلفة، كيفاً وكماً ، كأن تعرض إنشائياً، وبيانياً، وفي جداول إحصائية .

أساس التصنيف :

ويعـتمد التصـنيف كما يعتمد التقسيم على أساس يختاره المصنف لغرض من الأغراض، ولا حدّ لعدد الأسس التي يمكن أن يصنف الإنسان أية مجموعة من الأشياء بحسـبها ، وإن كـان بعـض هـذه الأسـس يَفضُل البعض الآخر وفقاً لما يحققه من الأغراض العلمية فيمكن تصنيف المصادر وفقاً لأبنيتها إلى مصادر ثلاثية وغير ثلاثية ورباعـية وخماسـية وسداسية، وكذلك المشتقات تنقسم وفقاً للوزن والصيغة إلى اسم فـاعل ومفعول ومشتقات من الثلاثي وغير الثلاثي، أما مصادر الهيئة والمرة فيعتمدان علـى أساس آخر هو المعنى، كما تقسم المصادر الثلاثية وفقاً لمعناها إلى أقسام أخرى ثلاثـية أيضاً، وفي المشتقات يتميز اسما الزمان والمكان عن المصدر الميمي بالمعنى، كما نعتمد على المعنى في تمييز الصفة المشبهة عن اسم الفاعل واسم المفعول .

التصنيف والتقسيم :

والفرق بين التصنيف والتقسيم هو الفرق بين الحركة الصاعدة والحركة النازلة فالتقسـيم يبدأ بجنس من الأجناس، ثم يحلل هذا الجنس إلى أنواعه، والأنواع إلى أنواع وهكذا حتى يصل المقسّم إلى الأنواع الدنيا التي ليس تحتها إلا أفرادها .

أما التصنيف فيبدأ بالأفراد التي تجمّع وفقاً للصفات المشتركة بينها وتفرّق وفقاً لصفاتها أو خواصها المختلفة، فتوضع المتفقة منها في أصناف، والأصناف في أنواع ، والأنواع في أجناس، فالحركة في التقسيم نازلة، وفي التصنيف صاعدة .

ولكـن هذا الفرق بين التصنيف والتقسيم نظري بحت . أما من الناحية العملية فـيلجأ العالم إلى العمليتين معاً ؛ إذ كل تصنيف علمي معتمد على التقسيم، كما أن كل تقسـيم معـتمد على التصنيف ، فالعالم الذي يصنف أبنية الأسماء فيمكن تصنيفها إلى مصـادر ومشتقات ، والمصادر تنقسم إلى ثلاثية وغير ثلاثية ، وقياسية وغير قياسية. فالقياسية ثلاثية ورباعية وخماسية وسداسية وغيرها من مصادر الهيئة والمرة والميمي

واســم المصدر والمصدر الصناعي . ومثلها المشتقات : اسم الفاعل واسم المفعول .. إلخ والصفة المشبهة وصيغ المبالغة .

تحليل الخطاب ولغة النص :

فــيما مضـــى يكــون الاعتماد على المادة التي جمعها الباحث سواء من كتب التراث أو الكتب المعاصرة ، لكنّ تحليل النصوص يأخذ مساراً آخر؛ إذ الاعتماد الكلي فيه على النص ويأخذ البحث في هذه الظاهرة منحيين :

١- تحديــد ظاهــرة والاتجــاه إلى التحليل المباشرة للعثور على هذه الظاهرة في النص،ثم وضعها في أنماط والرجوع بعد ذلك إلى كتب النحو قديمها وحديثها.

٢- تحديــد مستوى معين من مستويات التحليل كالمستوى الصوتي أو الصرفي أو الــنحوي أو الدلالي أو المعجمي أو الأساليب ، ويمكن أن تكون الظاهرة التي تــم تحديدهــا فـــي المستوى الصوتي، الإعلال أو الإبدال أو القلب المكاني، ويمكــن أن تكون في المستوى الصرفي، أبنية الأفعال أو الأسماء أو المصادر أو المشــتقات ، ويمكــن أن تكون في المستوى النحوي نظام الجملة أو عمل بدائل الأفعال، ويمكن أن تكون في المستوى الدلالي التعابير المجازية وصيغها أو غمــوض دلالـــة التراكيب بسبب عدم وضوح العلاقة بين الفصائل النحوية المخــتلفة، والتراكيــب التي توجد فيها أو يمكن أن تكون تراكيب الاستفهام أو التعابــير الجاهــزة أو صيغ الأمر واستعمالاته .. إلخ . وفي هذه الحالة يجهد الباحــث نفســه فـــي العثور على الظاهرة الأكثر بروزاً في المستوى الذي تم تحديده ، ومن ثم ينطلق بتطبيق المنحنى الأول .

ومــا تقســيم جوانــب الدرس اللغوي إلى صوتي وصرفي ونحوي ومعجمي ودلالــي إلا محاولــة لتعرف هذه الجوانب مفصلة ، بحيث يعاد جمعها من جديد لتقدم صــورة واضــحة كاشــفة للنص المدروس . والنص اللغوي الحي وحدة متلاحمة من

صـــورته المـــنطوقة ونظامـــه النحوي الذي يحكمه، وصورته المنطوقة هي مفرداته المصـــوغة في الجملة بخصائص هذه المفردات وقوانينها الصوتية والصرفية ودلالتها المعجمـــية الأولـــية الموضـــوعة لها ، أي التي يكثر استعمالها فيها، بحيث يشيع هذا الاســـتعمال بيـــن أبناء البيئة اللغوية المعينة، ونظامه النحوي وهو الهيئة التركيبية التي توجد عليها هذه المفردات منظومة في الجملة من الفاعلية والمفعولية والظرفية والحالية وغير هذه وتلك من الوظائف النحوية مراعى في ذلك كله القوانين الخاصة بكل وظيفة نحويـــة على حدة، من حيث شروط ورودها الخاصة، ومن حيث قوانين ارتباط الكلمة التي تشغلها بما تنضم معه في تركيب واحد مفيد .

والـــتلاحم بين المفردات ووظائفها النحوية في الجملة تفاعل عقلي صوتي في وقـــت واحـــد، وبعبارةٍ أخرى هو تفاعل دلالي نحوي معاً لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ لأن المفردات من غير نظام نحوي يحكمها ويربط ما بينها لا يتأتى لها اجتماع إلا في التنظيم المعجمي فحسب[1].

ولقـــد بـــدا تركـــيزنا علـــى هذا الجانب في تحليل سورة الشورى، فكثير من مفـــرداتها لا تتضـــح وظيفـــته أو بالأحرى دلالته إلا من خلال السياق الذي ورد فيه، ومجموعة المفردات التي تحيط به في التركيب والتي بدونها يستغلق فهمه أو بالأحرى فهـــم دلالـــته المقصـــودة، بحيث إذا ورد المكون في نصٍ آخر فإنه لا يؤدي الوظيفة النحوية أو الدلالية التي يشغلها في هذا النص بخاصة مثل ﴿ يوم الجمع ﴾ و ﴿ حفيظ ﴾ و ﴿ يُدخـــل فـــي رحمته ﴾ ، وكثير مما سنعرض له عرضاً مفصلاً عند تحليل سورة الشـــورى، والدلالـــة الـــنحوية التي ينهض بها النظام النحوي الكامن وراء المفردات المـــنطوقة مع الدلالة المعجمية الأولية للكلمة تشكلان معاً " معنى " الكلمة في الجملة، وكلا الجانبين متعاونان .

([1]) د/ محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي ، ص ١٦٦ ، ١٤٠٣هـــ - ١٩٨٣ ، القاهرة .



ففـــي أحـــيان كثيرة يقوم النظام النحوي للجملة في سياق معين بتوضيح معنى كلمـــة لا يعـــرفها المستمع من قبل ويسمعها لأول مرة، ولكن وضعها في سياق نحوي معين يكشفها ويوضحها ويدفع المستمع إلى أن يحدس بمعناها حدساً صحيحاً .

وفـــي أحـــيان أخـــرى يكون وجود كلمات بأعيانها في الجملة هادياً إلى تحديد وظيفـــتها الـــنحوية، والاختيار بين جداول المفردات أي مجموعاتها المصنفة في العقل الإنساني تصنيفاً دلالياً معيناً[١] .

ومـــن حيث مناهج دراسة النصوص وطرق معالجتها فرّق القدماء بين مستوى الشـــعر والنـــثر وأفردوا لخصائص الشعر أبواباً في كتبهم كما عند سيبويه، بل وألّف بعضهم كتباً بأكملها لخصائص هذا المستوى مثل : ضرائر الشعر ، وهي كثيرة.

ولبحـــث لغـــة الـــنص طرق في التناول ، كما أن للبحث اللغوي مناهج مثل: المـــنهج التاريخـــي ، والمـــنهج الوصفي، والمنهج التقابلي، والمنهج المقارن، والمنهج التحويلـــي، والتولـــيدي، إذا عددنـــا الأخيريـــن منهجين، وأن هناك تقسيمات للغة إلى مســـتويات منها : مستويات لغة الشعر والنثر والنص القرآني الذي لا يخضع لأي من المســـتويين الســـابقين ومســـتوى لغة القصة والمسرحية، إلى آخر الألوان الفنية التي تســـتحدث وتبـــتكر، وأن هناك أيضاً مستويات للتحليل اللغوي، مثل: المستوى الصوتي الوظيفـــي ، والمســـتوى الصـــرفي، والمستوى النحوي، والمستوى الدلالي، والمستوى المعجمـــي، يـــتم خلالها تصنيف مكونات النص، فإن هناك طرقاً لتناول النص العربي ومنها :

[أ] التحلـــيل باختـــيار العيـــنات : وهـــذه الطريقة تتم عند دراسة ظاهرة لغوية على مستويات اللغة العربية أو اللغات السامية والهندوأوروبية التي تشترك معها في

---

(١) د/ محمد حماسة عبد اللطيف : النحو والدلالة ص ١٦٧ .



الظاهرة نفسها تحقيقاً للفرض الملتزم في عنوان البحث أو مجموعة الفرضيات داخلة.

[ب] التحلـــيل الـــتام للمكونـــات : حسب مستوى التحليل اللغوي موضوع الدراسة، أو مجموعـــة المستويات التي يضمها البحث، وتصنيفها إلى مجموعات متوافقة ، مـــن حيث البناء الصرفي، أو التركيب النحوي، أو أي ظاهرة لغوية أخرى مع دراسة مدى المطابقة والمخالفة بين المكونات وبعضها، ودراسة مدى تحقيق ما قالـــه الـــنحاة القدماء ومدى مطابقته مع ما توصل إليه الباحث، ومناقشة آراء اللغوييـــن فـــي هذه الظاهرة والخروج بنتائج إما موافقة أو مخالفة مع اتسامها بالطابع العلمي .

[ج] تحلـــيل المكونـــات تحلـــيلاً تاماً وتصنيفها ، ثم إدراجها في جداول ومخططات ، ومناقشـــة متوســـط تـــردد المكـــون وزيادته، أو نقصانه ومحاولة إيجاد العلل والأسباب العلمية ، من حيث ارتباطها بالبيئة اللغوية أو اللهجة القبلية أو الحالة النفســـية أو ضـــرورة الموضوع أو أي مقتضيات أخرى ، وهذا يتم غالباً في الدراسات الأسلوبية .

[د] التحليل التام للمكونات واستنتاج الظواهر الجديرة بالدراسة من خلال هذا التحليل دون الاســـتفادة مـــن تحلـــيل الأرقام والإحصاءات، لكنها على أي حال تعطي مؤشراً بما يجب دراسته، وما يجب إهماله، كما أنها ستحدد الإطار العام للعينة المدروســـة وتفاصيلها، خصوصاً إذا وضعت في جداول لتكون أوضح للرؤية البصرية، ويجب أن ترفق بنهاية البحث، أما عند تحليل نصٍ بعينه لكشف مدى تطابق خصائصه مع نصٍ آخر فليس ضرورياً أن تتطابق نسب التردد، بل إن الإحصاء ونسبة التردد قد لا تكون لها ضرورة في مثل هذا التناول.

وإذا امـــتدت نظرتـــنا إلـــى أوائل من نظروا في ضبط أواخر الكلمات العربية فســـنجد أن محـــاولاتهم فـــي وضع نقط الإعراب إنما كان المقصود منه تحديد وظيفة

المكـــون التركيبـــي داخـــل التركيـــب وإيضاح علاقته بما يسبقه أو يليه من المكونات الأخـــرى، وســـنجد الـــنظرة نفســـها في وضعهم لأبواب النحو، خصوصاً باب الفاعل والمفعـــول ... إلـــخ ، لكنهم في وضعهم لأبواب من أنواع أخرى مثل باب الاستفهام، وبـــاب التعجب يظهرون اهتماماً من نوع آخر وهو الاهتمام بالتركيب الذي يؤدي في النهاية إلى ضبط معنى النص إلى جانب مفرداته .

ومـــن هـــنا نلحظ نسبية مدى تحقق النظرتين الجزئية والكلية في آن واحد إذا ثبت وضع هذه الأبواب في وقت واحد وعند عالم واحد، ولكن الذي أراه هو أن النص القرآني هو مبعث الاهتمام بالنظرة الكلية لمعاني النصوص، وذلك من أجل فهم دقائقه، واستنباط الأحكام الفقهية عن طريق التراكيب[1].

ويـــتدرج مســـتوى الكلام من الإبلاغ غير الفني إلى الإبلاغ الفني عن طريق الاختـــيار بيـــن نوعين من الجداول " جداول المفردات " و " جداول النظام النحوي " ، وذلـــك أن الكلمة المعينة قد تقبل أن تدخل في علاقة المفعولية مثلاً مع فعل معين على ســـبيل الحقـــيقة، والحقيقة هنا حقيقة عرف، فإذا أدخلها المتكلم مع هذا الفعل نفسه في علاقـــة الفاعلية ولم تكن في العرف مما يقبل هذا النوع من العلاقة فإن مستوى الكلام يتحول من الحقيقة إلى المجاز إن شئت من الإبلاغ غير الفني إلى الإبلاغ الفني[2].

مســـألة الاهتمام باللحن في اللغة ومسائل التعليل والقياس في الصيغ الصرفية تعـــدّ من قبيل الاهتمام بالمكونات، هذا من حيث الظاهرة، وفي بعض الحالات نجد أن الاهتمام بهذه المسائل مؤداه استقامة معنى التركيب، ومن ثمّ فهم النص، أو على الأقل الســـياق . ومـــن هـــنا نجد أنه ليست هناك حدود زمانية فاصلة أو مكانية بين كل من النظرتين الجزئية والكلية ، فالنظرتان تسيران جنباً إلى جنب .

(١) د/ شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف ، ط٣، ١٩٧٦م ، ص ١٧ .

(٢) د/ محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة ص ١٦٨ .

ونلاحـــظ فـــي دراســـتنا لأقوال البلاغيين وتحليلاتهم إنهم يركزون في أغلب الأحـــيان على ظواهر جزئية في التركيب، وفي أحايين يركزون على التراكيب أنفسها كمـــا فـــي علمي البيان والمعاني . ولكنا بعد استعراض هذه المسائل الجزئية نجد في الـــنهاية أن مبحـــث هذه الدراسات والتحليلات هو الاهتمام بالنص ، كما نجد أن النحاة الأوائـــل الذيـــن أسســـوا علم النحو كان غرضهم محدداً وهم يضعون أولى العلاقات الإعرابية، فقد كان يشغلهم أمر تحديد رتب المكونات ووظائفها داخل التركيب الواحد، ولـــذا حصـــروا العلامـــات في [فتحة وكسرة وضمة] ، لكنهم في المرحلة التالية أي مـــرحلة دراسة الجمل لم يحددوا أي علامات إعرابية، وإنما ركزوا على علاقة الجمل ببعضـــها، وساهم معهم في هذا الميدان البيانيون الذين لجأوا إلى طريقة أخرى تختلف عـــن طريقة النحاة فبدلاً من أن يستعملوا الفتحة والكسرة والضمة استعملوا مسميات أو مصـــطلحات لـــتحديد وظيفة الجملة فقالوا جملة تفسيرية أو اعتراضية ، فمسألة المحل الإعرابـــي ابتدعها النحويون فقالوا استئنافية لا محل لها من الإعراب، واعتراضية لا محـــل لهـــا أيضاً ، كما قالوا جملة مقول القول . وقال البيانيون جملة طلبية [أمرية + ندائية – تمن + ترج] ولم يشغلهم أمر المحل الإعرابي، كما لم يشغل هذا الأمر أيضاً النحاة المتأخرين .

ولقـــد أصبح التطور الهائل في مجالات علم اللغة الحديث عبئاً ثقيلاً على كاهل الباحثين الشبان بالرغم من أنه فتح له ميادين جديدة ومباحث مستحدثة تتفق مع التطور الحـــادث في شتى العلوم والمعارف الإنسانية ، فلقد تقرر في المؤتمر الثاني للكمبيوتر ثنائـــي اللغـــة [مايو ١٩٨٩م] أن الكمبيوتر يستطيع الآن إحصاء أي نمط من أنماط المفـــردات أو الجمـــل العربـــية في أي ديوان أو قصيدة عربية، كما أنه يمكن تصنيف أنمـــاط هـــذه الجمل وإبراز سماتها . وعلى مدى عشرة أعوام قادمة سيكون في مقدور هذه الآلة فعل ما يمكن أن يقوم به الإنسان من دور في الأبحاث اللغوية والمعجمية، بل وتعليم اللغات لأبناء اللغة وغير أبنائها .

ومن هنا فإن الدور الذي كان يمكن أن يقوم به الإنسان الباحث في اللغة أصبح موكـلاً بـه إلى غيره، وعليه [أي الباحث] إما أن يبحث عن ميادين أخرى لا ينافسه فـيها هـذا الجهـاز ، وإما أن يتفوق على هذا الجهاز لصنع ما يعجز عنه هذا الجهاز اعـتماداً على حسه اللغوي، والاستعمالات المجازية للغة التي بات من المؤكد أيضاً أن الكمبيوتر سيقوم بها من حيث ترجمته للمعاني الإجمالية وليس للمفردات فحسب .

وفـي ظنـي أن علـم لغة النص ودراسة علاقاته المتشابكة بعضها ببعض أو بعضـها بنصوص تراثية أخرى وكذا البنيات الصغرى وطرق تأليفها لبنية كبرى هي مـن الأشـياء الني يمكن أن يكون فيها للباحث الإنسان دور يعزز من مكانته ويجعله يحتفظ بإسهامه المتميز في هذا الميدان .

إن حـيوية الـنحو في القديم نبعت من أنه علم نص، وغير خافٍ أنه نشأ في حضـن القرآن الكريم، ومن أن النحاة القدماء لم يوقفوا دراستهم على الجانب النظري فحسـب، بـل تخطوا ذلك إلى الجانب التطبيقي، وقد اتخذوا من القرآن الكريم والشعر القديم وشعر معاصريهم أحياناً مادة خصبة للتطبيق النحوي.

ومـن هـنا وُجـدت في خزانة التراث عشرات الكتب لشرح القرآن وتفسيره وإعـرابه، وشرح مختارات الشعر ودواوين بعض الشعراء شرحاً يقوم في جانب كبير مـنه علـى فهم العلاقات النحوية، ولذلك استطاعت الدراسات النحوية القديمة أن تحيا وتتخطى إلينا القرون والأجيال .

إن كثـيراً مـن القضـايا النحوية لا تُفهم من كتب النحو وحدها، بل من كتب التفسـير وشـرح المختارات الشعرية والأمالي والمجالس التي تعتمد على مقطوعات الشـعر المخـتلفة والروايات الأدبية . وقد كان كتاب سيبويه – وهو أول مؤلف نحوي يصـل إليـنا – كتاباً جامعاً لعلوم العربية وفقه أسرارها، وإن قارئه ليستشعر أنه يهتم بحسن الكلام وقبحه لا بمجرد صحته وحسب .

وثمـــة فـــرق بيـــن السياق اللغوي والسياق الاجتماعي، فالسياق اللغوي يتكون ويعـــتمد علـــى مجموعـــة المكونات التركيبية من أدوات ومكونات مفردة ومركبات ، ويكـــتمل هذا السياق حين يرد العامل مع جميع معمولاته كما يرد الناسخ الحرفي ومعه معمـــولاه ، ويـــنقطع هـــذا الســـياق إذا ورد العامل مع بعض معمولاته ولم ترد باقي المعمـــولات . وهـــذه تدعونا إلى التأمل في أثر العامل القوي والعامل الضعيف، فهل العامل القوي هو الذي يؤثر في عدد كبير من المعمولات، والضعيف هو الذي لا يؤثر فـــي عدد كبير من المعمولات ؟ وإذا كان الأمر هكذا ، فما موقف المركبات والتراكيب الاعتراضية التي ترد بين معمولاته ؟

ويتكامل السياق اللغوي تركيبياً ودلالياً من استيفاء جميع مكوناته التركيبية، أما الســـياق الاجتماعـــي فهـــو الذي يمكن التوصل إليه بمجموعة المكونات التركيبية من ناحية، وما يمكن استنتاجه من أحداث لغوية تفهم من خلال المكونات الموجودة يضاف إليها الظروف المحيطة بالنص، كما يمكن استنتاج المحذوفات وإكمال السياق بها .

وبهـــذا يســـهم كل من السياقين في كل من تحليل النص وإعادة تركيبه وتحديد الـــدلالات الظاهـــرة من مجموع مكوناته وتراكيبه ، وكذا الدلالات الباطنة الناشئة عن تقدير المحذوفات وتأويل ما ليس بظاهر .

لاشـــك أن معطـــيات الإحصاء تحتاج إلى قارئ متمرس يستطيع أن يستخلص نـــتائج دقيقة؛ فربما تنتج قراءة معدلات تكرار عالية تفسيراً معاكساً لما أراد المؤلف أن يعمـــي من خلالها على قارئه ما يقصده، وبذلك تكون مباشراً سلبياً. كما أن تقديم هذه الطـــريقة الكـــم على الكيف أمر منطقي، إذ إن وضع الفرض والتحقيق منه من خلال العمليات الإحصائية يسبق عمليات الاستنتاج وعرض تفسيرات متعددة محتملة.

كمـــا أن عامل السياق عامل جوهري؛ إذ هو العنصر الفاعل المؤثر في تحديد بـــروز ســـمة أسلوبية بعينها، فالأسلوب يعتمد على العلاقة القائمة بين معدلات التكرار

للعناصر الصوتية والنحوية والمعجمية في نصٍ ما ومعدلات تكرار هذه العناصر نفسها في قاعدة متصلة به من ناحية السياق .

ويؤمـن اللغـوي إيمانـاً راسـخاً بأن الكلمة في نصٍ ما إنما تكتسب دلالتها الأسـلوبية من تجاورها مع الكلمات الأخرى التي تقع معها في خط أفقي، حيث تتشابك الـدلالات الحقـيقة بظـلال المعاني لتلك الكلمات، فتكسب إيماءات وتأثيرات خاصة . ولهذا فإن رصد قوائم غير سياقية لها ليس له أية قيمة أسلوبية.

ولا حاجـة إلـى أن نؤكـد أن البحث اللغوي لا يكتفي بالتقاط بعض العناصر الـبارزة فـي النصوص وتحليلها، فليس من المنطقي أن تنتهي هذه الطريقة إلى أحكام موضوعية محايدة، كما يهدف البحث اللغوي .

ولا يذكر اللغويون إمكان الوصول إلى نتائج احتمالية من خلال طريقة العينات ، ولكنها أقرب إلى البحث النقدي منها إلى البحث اللغوي، ولذا يصدق بعض النقد الذي وجـه إلـيها، وإن كانت النماذج الرياضية المختلفة التي يستعملها التشخيص الأسلوبي مرفوضة كلية من أصحاب الاتجاه الأدبي.

يقول د/ صلاح فضل : وبينما يمكن أن يعتمد التشخيص الأسلوبي على اختيار عنصـر لغوي أو أكثر في النص دليلاً كافياً على تفرده ، فإن الشرح الشامل والواضح للأسـلوب يحـتاج إلى عرض أكثر تشابكاً وتعقيداً لجملة العناصر المترابطة، ولو كان المطلـوب فحسـب إنما هو مجرد دليل واضح على نسبة النص إلى مؤلف معين، فإنه مـن الممكـن عـندئذٍ اسـتعمال حاسب إليكتروني للتحديد الكمي لدرجة كثافة النص ومعـدلات تكـرار هذه العناصر اللغوية المتميزة فيه، لكننا سنصل في هذه الحالة إلى تشخيص لبعض الأعراض، لا لوصف كامل له، بل ربما كانت العناصر المختارة لهذا الغرض ليست بذات قيمة في دلالتها على الخواص الأدبية والفنية للنص[١] .

---

(١) د/ صلاح فضل: علم الأسلوب ص ٢٩١، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، ١٩٨٨م .

إن اللغـــوي يحـــاول أن يرصـــد المـــادة اللغويـــة التي تحدد مستوى معيناً أو مســـتويات مختلفة، ثم يصفها ويحللها بطرق قياسية موضوعية، ودون ذلك لا يستطيع أن يصـــل إلى أحكام لغوية في المقام الأول يمكن أن تسخر بعد ذلك لأغراض تفسيرية مخـــتلفة . هذا ما يتيحه البحث اللغوي للفروع الأخرى، وذلك يتواءم مع شمول البحث اللغوي وجزئية البحث الأسلوبي .

وتتضـــح تلك الجزئية في ذهاب بعض الباحثين إلى أنه إذا كان ملمح لغوي ما يمكـــن أن يكون ذا دلالة أسلوبية مما يستحيل معه أن نقدم قائمة مفصلة بجميع الملامح اللغويـــة الشـــكلية للـــنص، فإن بوسعنا على سبيل المثال أن نعرض لبعض المستويات المتشابكة ذات الدلالة الأسلوبية في النصوص المختلفة[1].

وفـــي البحـــث اللغوي الحديث نجعل من النص مادة للتحليل وباستثناء القرآن الكـــريم والحديث الشريف تكون النصوص التي يجري عليها الباحثين تحليلهم اللغوي، ومـــن الأدب شـــعره ونثره وأمثاله وحكمه وفنونه ، لذلك فمن الضروري العمل على إرســـال منهج لغوي في نقد الأدب العربي يكون فيه النص **the text** والخطاب الأدبي **The discourse** أولاً وقبل كل شيء هو موضوع الدراسة، ويكون منهج الدراسة فيه لغوياً **Linguistic** بالمفهوم العلمي لهذا المصطلح .

وقد يحتاج العلم المنضبط إلى أن تكون له فلسفة وموضوع ومنهج يشتمل على معايير موضوعية للقياس والوصف والاستنباط، ومن ثمّ لابد لدراسة الأدب من استيفاء هذه الشروط لكي تكون جديرة بأن تحتل مكانها بين العلوم .

والـــذي نلاحظـــه دائماً أن دائرة الخلاف كثيراً ما تتسع كلما بعدنا عن النص وخضـــنا بالحديـــث فـــي بيئة النص وعصره، أو حين يكون هدفنا الكشف عن نفسية المنشـــئ من خلال نصوصه، أو حين نضع نقد المضمون في المحل الأول . أما حين

---

(1) انظر د/ صلاح فضل: علم الأسلوب ص ٢٩٢ .

يكـــون الـــنص هو محور الاهتمام، وموضوع الدراسة فإن حديثنا يصبح أكثر التزاماً بموضوعية العلم واتباعاً لمواصفاته ومواضعاته المقررة .

والخلـــط بين التحليل والتقسيم وهما وسيلتان من وسائل النظر والبحث، وبينهما فـــارق أساســـي عـــند علمـــاء المناهج الحديثة، وكثيراً ما يقع الخلط بينهما في بحوث المبتدئيـــن؛ إذ يســـتعملون اللفـــظ مكـــان الآخر، والتحليل هو رد الشيء المركب إلى عناصره الجوهرية التي لا يقوم وجوده إلا به .

وهـــذا يعني أن المحلل لكي يرد الشيء إلى عناصره ، لابد أن يتجه بفكره من المركب إلى البسيط، أي إلى المقومات البسيطة الأساسية التي يتألف منها، ولهذا عرفه الـــبعض بأنه انتقال الفكر من الوحدة إلى الكثرة، وعكسه " التركيب " وهو انتقال الفكر من البسيط إلى المركب . وكثيراً ما يحتاج الباحث إلى التحليل والتركيب معاً في بحث موضوع بعينه ، فهو يحلل الموضوع بعزل عناصره أو صفاته أو خواصه الجوهرية، بعضـــها عن بعض ، ثم يتناول هذه العناصر أو الخواص بالبحث للكشف عن حقيقتها وعلاقـــة بعضها ببعض، ثم يجمع النتائج التي توصل إليها من تحليل عناصره ومقارنة بعضـــها ببعض لكي يعود مرةً أخرى إلى تأليف مركب جديد في شكل قانون عام ،أو نظـــرية ، أو حكـــم كلـــي جديـــد ، وبذلـــك يكون الباحث قد استعمل طريقتي التحليل والتركيب معاً للكشف عن هذا القانون أو هذه النظرية .

والتحلـــيل أنـــواع، فمـــنه التحليل الطبيعي كالذي يقوم به الكيماوي في معمله، فـــيحلل الماء إلى عنصريه الجوهريين، أعني الأوكسجين والإدروجين، ويعرف النسبة بينهما، أو يحلل السوائل الكيماوية الأخرى كالحوامض ونحوها .

ومـــن أنواعـــه التحليل النفسي، كالذي يقوم به الباحث أو الطبيب النفساني، إذ يـــرد الحالـــة النفسية إلى خصائصها ويكشف عن بواعثها . ويحتاج الناقد الأدبي إلى تحليل نفسية شاعر أو كاتب فيحاول من خلال لغته وأسلوبه أن يستشف بعض الحالات والظواهـــر النفســـية ، مـــن غرائز ورغبات وعواطف وطرائق تفكير، وهذه تعد من

العناصر المقومة لنفسية الإنسان، يتناولها الناقد بالدراسة ومعرفة علاقة بعضها ببعض ومن أنواع التحليل ، التحليل التاريخي، فيتحدث المؤرخ عن عصر معين من العصور التاريخية ، محللاً هذا العصر إلى عناصره وخواصه، كالنزعات العامة التي أثرت في أحداثه ووقائعه، والتيارات الكبرى الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية التي كان لها أثر فعال في توجيه أفكار الناس ونزعاتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم .

ومـن أنواع التحليل " تحليل البنية اللغوية " وهو الذي يهم الباحث اللغوي في المقـام الأول، ومجـال هذا التحليل هو البحث في الكلمات والتراكيب لردها إلى أبسط عناصـرها وهـو الصـوت الصامت والصوت الصائت، والمقاطع اللغوية التي يتألف مـنها، وبيان كيف تدرجت من البساطة حتى بلغت نصوصاً من الشعر والنثر، موضحاً نظـم العلاقـات التـي ربطـت بين أجزاء الكلام، والقواعد المتبعة التي تحكم ترتيب الكلمـات فـي داخل الجمل والعبارات، والتي تنظم العلاقات بين المتبوعات وتوابعها، وتميز بين وظائف الصيغ في داخل التركيب .

والتحلـيل فـي البحوث الأدبية واللغوية يقوم بدور بالغ الأهمية، فهو يستعمل لوصـف الطريقة التي تعمل بها لغة الكاتب أو الشاعر ، ومن ثم يسهم بنصيب موفور فـي مجـال الـنقد العملي للنصوص الأدبية وبخاصة حين يتطلب النقد الأدبي معرفة إيجابـية دقـيقة بالجوانب الفنية للقالب الأدبي . ومن ذلك تحليل أوزان الشعر وتحليل التعبـيرات الأدبية والظواهر الفنية ، ويستعمل التحليل الإحصائي في معرفة نسبة تردد صـيغة بعينها، أو نمط معين من أنماط " الجملة " في نص أدبي محدد . وتفيدنا نتائج هذا النوع من التحليل في تفسير اتجاهات الشاعر أو الكاتب اللغوية والفنية والنفسية.

كذلـك يستعمل التحليل في مجال تعلم اللغات، وفي ترجمة النصوص من لغة إلـى أخـرى، فالطالب الإنجليزي أو الفرنسي مثلاً إذا أراد أن يتعلم العربية، فإن أمثل الطـرق لتعلـيمه العربية – وهي لغة أجنبية بالنسبة إليه – أن يقوم المختصون بتحليل اللغتيـن المتقابلتين، الأصلية [وهي الإنجليزية أو الفرنسية بالنسبة إلى هذا الطالب أو

ذاك] والأجنبية [وهي العربية بالنسبة إليهما] ، والغرض من هذا التحليل عزل الفروق بين اللغتين بحيث يمكن التركيز على تلك الفروق في الأصوات والصيغ والتراكيب لكل من اللغتين، والمعلم المختص إنما يركز في هذه الحالة على تلك الفروق لإعداد المادة التعليمية المناسبة التي يقدمها في تدريسه، وفي الكتب الدراسية المخصصة لتعليم اللغة الأجنبية .

أما ترجمة النصوص فإنها تتطلب الإلمام بكل المقومات التي تتألف منها اللغتان، من أصوات وتراكيب ومعان وعبارات اصطلاحية ، وبهذا يقوم المترجم بتحديد المتعادلات في كل هذه المقومات، إذ لا يتسنى له أن يهتدي إلى هذه"المتعادلات" إلا إذا ألم إلماماً تاماً بالمقومات لكل من اللغتين .

ومن الممكن أيضاً استعمال طريقة التحليل في عزل الأخطاء الناجمة عن الكتابة أو عن الوهم أو عن عيوب اللسان، ولذا كان التحليل من الطرق المثمرة في الدراسات التربوية والبلاغية[١] .

أما التقسيم فهو تجزئة الموضوع أو تفريقه على أقسام صغيرة غير معينة، إما بحسب الزمان كأن نقسم عصراً تاريخياً إلى فترات زمنية لأغراض تعليمية أو عملية، وإما بحسب المكان كأن نقسم هذا العصر إلى بيئات وأقاليم للغرض نفسه، وإما بحسب الشمول فترتب الأشياء إلى أجناس فأنواع فأصناف ... إلخ ، كما صنع النحاة الأوائل في تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وهذه ثلاثة أجناس يندرج تحت كل جنس منها أنواع كاسم الذات، واسم المعنى، والعلم، أنواع تندرج تحت " الاسم " ، والماضي والمضارع والأمر أنواع تندرج تحت " الفعل " .. إلخ .

---

(١) انظر أمثلة تطبيقية متنوعة لطرق التحليل المشار إليها عند د/ فاطمة محجوب: دراسات في علم اللغة ، ط القاهرة ، ١٩٧٦م .

هــذه التقاسيم التي تهدف إلى غرض عملي تعليمي، فالتقسيم بهذا المفهوم الذي اصــطلح علــيه القدماء والمحدثون[١]، يختلف تماماً في طريقته ووظيفته عن التحليل. فتحلــيل مقــدار مــن الماء إلى عناصره من الأوكسجين والأدروجين غير تقسيمه إلى "قطــرات من الماء " . وقطرة الماء هي أقل وحدة يصل إليها الباحث في تقسيم مقدار الماء، ومع هذا نفتقد التعريف بعناصره المقومة فالقطرة من هذه الناحية مازالت بحاجة إلى " تحليل" مثلها في ذلك كمثل مقدار الماء مهما عظم .

والنحوي في تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، لا يقدم لنا شيئاً من "عناصر" الكــلام، وهــي الأصــوات اللغويــة التــي يتألف منها . فالحرف – في نظر الباحث التحليلــي– مثل الكلام كله سواء بسواء. والشاهد في هذا أن كل قسم من الأقسام، مهما يكــن دقــيقاً " فهــو مركــب مثل الكل ، ومن هنا يتضح أن التقسيم يتجه إلى التجزئة والــتفريق لأداء وظيفة عملية تعليمية، وأن التحليل يتجه إلى البحث عن العناصر التي لا يقــوم الشيء إلا بها، لأداء وظيفة علمية خالصة ، ومن أجل هذا فإن التحليل وحده يوضح مفاهيم الأشياء ويعين على ارتقاء العلم "[٢].

والــتفرقة بين التحليل والتقسيم تفيدنا في النظر إلى اصطلاح آخر يرتبط بهما ارتباطاً وثيقاً، أعني " التصنيف " فقد اتخذ هذا الاصطلاح مفهوماً يختلف بعض الشيء عــن مفهــوم القدماء، فصار يدل على نوعين : تصنيف يقوم على التقسيم، وتصنيف علمــي تعليمــي، يرتــب الموضوعات أو العلوم بحسب الزمان أو المكان أو الشمول، وتصنيف يقوم على التحليل ، وهو تصنيف علمي يرتب الموضوعات أو العلوم بحسب الــزمان أو المكان أو الشمول، وتصنيف يقوم على التحليل، وهو تصنيف علمي يرتب الموضوعات أو العلوم على أساس العناصر المقومة لها[٣].

---

(١) قارن عند القدماء التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ١٦/١ ، تحقيق د/ لطفي عبد البديع، ط ١٩٦٣م ، وعند المحدثين د/ جميل حبيب: المنطق ص ٨٦ ، ط بيروت ١٩٦٧ م.

(٢) د/ جميل حبيب: المنطق ص ٨٦ – ٨٧ .

(٣)د/ عبد المجيد عابدين: مزالق في طريق البحث اللغوي والأدبي وتوثيق لنصوص ص ٣٧ –٤١ .

ثالثاً : طرق إنشاء البحث اللغوي ونظرية تنمية الموضوعات وتوليدها :

يقـع أغلـب الباحثيـن تحت وهم قلة الموضوعات وندرتها، وأن ما كتب في موضوعات اللغة والنحو من موضوعات يجعل من العسير على الباحثين الشبان العثور على موضوع يستحق الدراسة، ومهمة البحث العلمي، ومن أهم وظائف الدراسات التي نصـنعها نحن هي إزالة الوهم بتقرير الحقائق العلمية وإزالة الظنون غير الصالحة في البحث العلمي .

ولقد سجلتُ في حديثٍ إذاعي بالإسكندرية عام ١٩٩٣م ، وفي برنامج [باحلم بـيوم] وقـد كان حلمي في هذا الوقت موجهاً لطلاب البحث العلمي الذين يخشى كل مـنهم أن يأخذ الآخر موضوعه فيسجله لنفسه ليحصل به على درجة علمية والأغرب أن أحـد الأسـاتذة صـارحني بأنـنا كعلمـاء الذرة يجب أن يخفي كل منا أفكاره أو موضـوعات بحوثه عن الآخر ، ولكنني تعجبت من سماع هذه الأفكار من هذا الأستاذ الـذي كنت أعجب به إلى حدٍ بعيد، وقد كان سلوكي أنا في البحث العلمي مختلفاً ، فقد كنت منفتحاً على كل الاتجاهات ومع كل من أصادفه سواء أعمل في تخصصي أم في غـير تخصصـي دون مبالاة أو خوف وبحوثي التي أنجزتها جميعها أسمح لجميع من أقـابلهم بـالاطلاع علـى عناوينها وخططها بل ومادتها ، وأنا على ثقة من أن البحث العلمـي سيسـتمر، ولن تنضب موضوعاته ، ولن ينتهي البحث مادامت الحياة قائمة ، ولكن البحث يحتاج إلى إخلاص وجدية وقوة إرادة وتفاؤل وقوة إيمان .

والأعجـب مـن هذا كله ظاهرة غريبة أحزن لها الآن وهي أن بعض أعضاء هيـئة الـتدريس فـي بعـض الجامعات وفي بعض الكليات وفي بعض التخصصات يخـتارون الطلاب النابهين أو إن شئت قل المتفوقين أو الأوائل ويكلفونهم بعمل أبحاث متمـيزة، ويطلـبون منهم فيها الرجوع إلى المراجع الأجنبية ويقسون عليهم في الطلب فيرفضون كل ما هو عربي .

والأعجـب أنني استمعت من هؤلاء الطلاب أنهم يدركون مغزى هذه المطالب أو الهـدف منها وهـو استثمار عضو هيئة التدريس هذه المطالب في جمع مادته هو لصـنع بحوث بهدف الترقية وكم شكا إليّ الطلاب من أنهم لا طاقة لهم بهذه المطالب وأنهـم يسـافرون علـى نفقـتهم الخاصة إلى القاهرة لجلب المادة أو النصوص التي يحـتاجها أعضاء هيئة التدريس، أضف إلى ذلك أنهم يكلفونهم بتحمل قيمة ترجمة هذه النصوص من الإنجليزية أو غيرها إلى العربية في مكاتب الترجمة دون مراعاة لتقوى الله من ناحية أو إمكانات الطالب من ناحية أخرى .

وكم شعرت أنه من الفضيحة والخزي والعار أن أعرض هذا الأمر أو أتعرض لـه في مجالس الأقسام أو كان الدراسات العليا أو مجالس الكلية؛ لأنه سيمس قطعاً من الحاضـرين وسيطلب في هذا الأمر تحديد أسماء الطلاب وأعضاء هيئة التدريس الذين يصـنعون هذا وسيقع العقاب في النهاية على الطالب الذي صرح بما أسره إليه عضو هيئة التدريس .

والحقـيقة أن اللجـان العلمـية التـي تطلب من عضو هيئة التدريس له طاقة محـدودة أن يصـنع على سبيل المثال بحثاً مرجعياً يعرض فيه لأحدث النظريات في التخصص ، ثم ينقد هذه النظرية وهو في كثير من الأحيان لا طاقة له بذلك، فهل يعيد أعضـاء هيئة التدريس الذين أشرنا إلى بعضهم النظر في إمكاناتهم العلمية ؟ أم تنظر اللجان العلمية أو تعيد النظر فيما تطالب به أهل التخصص ؟

والحقـيقة أن البحث العلمي ليس ثابتاً شأنه شأن ظروف الحياة والأرض جميعاً ، وفي البحث اللغوي يمكن الاعتماد على مجموعة من المتغيرات :

١- الظاهرة اللغوية أو النحوية .

٢- المستوى اللغوي المدروس أو النص أو كتب اللغة والنحو .

٣- مستوى التحليل اللغوي صوتي أو صرفي أو نحوي أو دلالي أو معجمي.

٤- منهج التحليل اللغوي وصفي أو تاريخي مقارن أو تقابلي .

فهـذه متغيرات محددة ، ولكن يمكن من خلالها أن يتولد من الموضوع الواحد العديد من الموضوعات الجديدة الجديرة والمستحقة للدراسة ، فإذا كان لدينا ظاهرة هي دراسـة الجملة وأردنا بتطبيقها في نص محدد مثل القرآن ، واخترنا لها مستوى محدد من التحليل هو المستوى النحوي، واخترنا لها منهجاً هو المنهج الوصفي فإن موضوع البحث في النهاية يصبح الجملة في القرآن الكريم دراسة نحوية وصفية .

ويمكن التعديل في أحد المتغيرات كأن نغير النص فتصبح :

الجملـة فـي شـعر الأعشى دراسة وصفية ، ويمكن تغيير المستوى اللغوي ليصـبح فـي النثر فيكون الموضوع الجديد الجملة في نثر عبد الحميد الكاتب دراسة وصـفية ، ويمكـن تعديل أحد المتغيرات بإدخال مستوى لغوي جديد فيكون الموضوع الرابع :

الجملـة بين نثر عبد الحميد وقصة الأيام للدكتور/ طه حسين دراسة وصفية، كمـا يمكـن اختيار مستوى معاصر من الروايات بحيث تصبح الدراسة تقابلية فيكون العنوان : الجملة بين نثر عبد الحميد الكاتب والثلاثية لنجيب محفوظ دراسة مقارنة .

وهكذا يمكنك تعديل مصطلح الجملة بظواهر أخرى تكون في المفردات أو في الأبنية الصرفية أو في بابٍ نحوي معين أو ظاهرة صوتية كالتنغيم وأثرها على الجملة في نصٍ بعينه .

وهكـذا يمكننا من الموضوع الواحد أو العنوان الواحد أن نصنع عدداً محدوداً بحـدود الظواهـر النحوية واللغوية ومستويات اللغة ونصوصها وفنونها بصفة عامة ، وما يمكن أن يستحدث من هذه الفنون وكذلك مناهج التحليل اللغوي ومستويات التحليل اللغوي ، ويتوقف نجاح الباحث في اختيار موضوعه على مدى مهارته ومدى اطلاعه علـى الـبحوث الحديـثة والقديمة، ومدى إلمامه بقواعد التخصص، ومدى تعاونه مع الباحثيـن الآخريـن ، ومـدى احـتكاكه بالباحثيـن والأسـاتذة وحضوره المناقشات والمؤتمرات ومشاركته فيها .

وإلـيك موضـوعات للتدريـب على البحث اللغوي وتوثيق النصوص ويمكن تصنيفها إلى ستة أنواع :

١- موضوعات لتوثيق النصوص والتعريف بمؤلفيها وآثارهم اللغوية .

٢- موضوعات لدراسة مناهج اللغويين القدماء في تأليف كتبهم .

٣- موضوعات تقوم على المنهج الوصفي .

٤- موضوعات تقوم على المنهج التاريخي .

٥- دراسات تعتمد على المنهج المقارن .

٦- دراسات تقوم على المنهج التقابلي .

[أ] موضوعات لتوثيق النصوص والتعريف بمؤلفيها وآثارهم اللغوية :

١- عشـرة أبيات من معلقة لبيد / ونص من كتاب مغني اللبيب لابن هشام [حاشية الدسـوقي] من " حرف الألف " ص ٨ - ١٤ من الجزء الأول/ ونص من " طـبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي [ط ١٩٥٤] من ص ٤٣ - ٤٧ [ترجمة الخليل بن أحمد] .

٢- مـادة " بـرق " و " بـرك " من كتاب " المفردات في غريب القرآن للراغب الأصـفهاني [المطـبعة الميمنية] ص ٤٢ - ٤٣ / ونص من كتاب " مغني اللبيب لابن هشام " [حاشية الدسوقي] من ص ١٤ - ٢٠ [الجزء الأول] في الكـلام علـى " الهمزة ، آ " ما بعدهما/ ونص من طبقات النحويين واللغويين للزبـيدي [ط ١٩٥٤] مـن ص ٦٦ - ٦٧ إلـى قوله [فإنما يعنيني] [في ترجمة سيبويه] .

٣- عشـرة أبيات من معلقة عنترة / ونصف من مغني اللبيب لابن هشام من ص ٢٠ - ٢٦ [في الجزء الأول] في الكلام على إن المكسورة الخفيفة إلى قوله

" بسبب قتلك أو تبين أنهم قتلوك – ونص من طبقات النحويين واللغويين للزبيدي [ط ١٩٥٤] من ص ٧٦ – ٧٧ [أبو عمر الحزمي] .

٤- نص من بغية الوعاة للسيوطي [ط السعادة بمصر ١٣٢٦هـ] في ص ٤٢ عن محمد بن زياد بن الأعرابي / ونص من التهانوي في " كشاف اصطلاحات الفنون " تحقيق د. لطفي عبد البديع وآخرين . الجزء الأول من ص ١٨ – ١٩ إلى قوله " من اليونانيين وغيرهم / ونص من " شرح ابن يعيش " الجزء الأول [إدارة الطباعة المنيرية بمصر] ص ١٠١ – ١٠٢ من قوله " خبر إن وأخواتها .. إلى قوله " لأنه قد حصلت المخالفة بتقديم المنصوب على المرفوع فاعرفه ".

٥- نص من " بغية الوعاة للسيوطي [ط السعادة بمصر ١٣٢٦هـ] ص ٢٢٠ [عن الحسن بن صافي ملك النحاة] ، ونص من التهانوي " كشاف اصطلاحات الفنون " تحقيق د. لطفي عبد البديع .. إلخ . الجزء الأول من ص ٨٣ – ٨٤ من قوله " التاريخ في اللغة تعريف الوقت إلى قوله " وهو معرب ماه روز " ومن قوله : " اعلم أن التواريخ بحسب اصطلاح كل قوم ... إلخ " ونص من شرح ابن يعيش [إدارة الطباعة المنيرية بمصر] في الجزء الثاني ص ١٣ – ١٥ [في الكلام عن المندوب إلى آخر الفصل] .

٦- نص من " لحن العوام لأبي بكر الزبيدي " [ط ١٩٦٤] ص ٥–٧ من قوله [وضع أبو حاتم كتاباً .. إلى قوله " وتابعهم على ذلك الكثرة من الخاصة " ونص من المقتضب للمبرد، تحقيق محمد عضيمة [ط ١٣٨٦هـ] في الجزء الثاني ص ٨٧ – ٩١] ألفات الوصل والقطع والأفعال التي تدخلها . / ونص من " النهاية في غريب الحديث والأثر " لمجد الدين بن الأثير، تحقيق الزاوي والطناحي، ط ١٩٦٣ في الجزء الأول ص ٢١-٢٢ [باب الهمزة مع التاء].

٧- نص من " بغية الوعاة للسيوطي " [ط السعادة بمصر ١٣٢٦هـ] ص ٧٤-٧٥ [عن محمد بن علي بن إسماعيل العسكري " مبرمان " / ونص من كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، تحقيق د. لطفي عبد البديع .. إلخ من الجزء الأول ص ٢٠ من قوله " علم الصرف ويسمى بعلم التصويف أيضاً .. إلى قوله " مفيتيح وتميثيل ونحو ذلك " / ونص من شرح ابن يعيش [إدارة الطباعة المنيرية] بالجزء الأول من ص ٢٧ من قوله : " ومن أصناف الاسم العلم .. إلى قوله : " ولذلك يجوز تغييرها وتبديلها فاعرفه " .

٨- نص من " لحن العوام للزبيدي " [ط١٩٦٤] ص ١٢-١٤ من قوله قال محمد : ولا يجوز أن يلحق الألف واللام ذو ولا ذات .. إلى قوله لأن [ذو] لا تكون إلا مضافة وكذلك جمعها/ ونص من المقتضب للمبرد ، تحقيق محمد عضيمة [ط ١٣٨٦هـ] بالجزء الثاني ص ٩٢-٩٤ [ألف الوصل في الأسماء غير المصادر] ونص من " النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، تحقيق الزاوي والطناحي ط١٩٦٣ " بالجزء الأول ص ٥٣-٥٤ [باب الهمزة مع الطاء] .

٩- نص من " التنبيه على حدوث التصحيف " لحمزة بن حسن الأصفهاني ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين [ط بغداد ١٩٦٧] ص ١٦٦ - ١٧١ من قوله [أربعة ألفاظ في كلام العرب .. إلى قوله : بين حاذف فعاذف / ونص من المقتضب للمبرد ، تحقيق محمد عضيمة [ط ١٣٨٦هـ] بالجزء الثاني ص ١٠٤ - ١٠٦ [باب أفعال المطاوعة] . ونص من " النهاية في غريب الحديث والأثر " لابن الأثير ، تحقيق الزاوي والطناحي [ط ١٩٦٣م] بالجزء الأول ص ١٩ - ٢٠ من قوله " أبا قد تكرر في الحديث " لا أبالك " إلى قوله في الأبواء جبل بين مكة والمدينة وعنده بلدة ينسب إليه .

١٠- نـــص من المنصف شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني ، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين [ط ١٩٥٤] بالجزء الأول ص ٧-١٠ من باب الأسماء والأفعـــال إلى قوله " وكلتاهما ساقطة في الأصل " / ونص من كتاب " الصاحبي في فقه اللغة .. لأحمد بن فارس [ط ١٩١٠] ص ١٩-٢١ في القول في اختلاف لغات العرب .. إلى قوله : " من حيث ما سلكوا أدتوفانظور " / ونص من كتاب " الـــبرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم [ط ١٩٥٧] بالجزء الأول ص ١٠٨ – ١١٠ نقلاً عن أحمد بن فارس ابتداء من قولـــــه " وكـــل شـــيء في القرآن من ذكر السعير فهو النار والوقود .. إلى قوله [انتهى ما ذكره ابن فارس .

١١- نص من المنصف شرح ابن جني ، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ط ١٩٥٤ بالجزء الأول ص ١٣ – ١٧ [الزيادة للإلحاق ولغيره ... إلى قوله : "من أجل مجيئهم به فهذا شرح هذا " / ونص من " الصاحبي لابن فارس " [ط ١٩١٠] ص ٢٤ – ٢٧ بـــاب اللغات المذمومة .. إلى قوله " وكل ذا من أغاليط من يغلط والعـــرب لا تعـــرفه " / ونص من المزهر في علوم اللغة للسيوطي ، تحقيق جاد المولـــى وزميله [ط ١٩٥٢] بالجزء الثاني ص ٥٢١ – ٥٢٣ [أعرابي بالكناسة .. إلى قوله : " والفل القوم المنهزمون " .

١٢- نص من المنصف شرح ابن جني، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين [ط ١٩٥٤] بالجزء الأول ص ١٧ – ٢٤ [في أبنية الأسماء والأفعال الثلاثية التي لا زيـــادة فيها ..] / ونص من الصاحبي لابن فارس [ط١٩١٠] ص ٤٠-٤٢ [باب مراتب الكلام في وضوحه وأشكاله .. إلى قوله : " وأشعار العرب وسائر الكلام". ونـــص من المزهر للسيوطي، تحقيق جادالمولى وزميله ، ط١٩٥٨ بالجزء الثاني ص ٥١٩ – ٥٢١ [حديث قيس بن رفاعة مع الحارث بن أبي شمر].

١٣- نصـــوص القـــراءات التـــي أوردها ابن جني في" المحتسب " لعبد الله بن أبي إسحاق .

١٤- نصـــوص القـــراءات التي أوردها ابن جني في " المحتسب " لعيسى بن عمر الثقفي .

١٥- أشعار النحويين واللغويين في القرنين الرابع والخامس للهجرة .

١٦- نصوص من كتابي " تثقيف اللسان لابن مكي الصقلي " و " لحن العوام " لأبي بكر الزبيدي ، تتعلق بمظاهر اللحن في الجانب الصوتي من الاستخدام اللغوي.

[ب] موضوعات للدراسة مناهج اللغويين القدماء في تأليف كتبهم :

١٧- منهج القدماء في توثيق الرواية اللغوية .

١٨- منهج القدماء في توثيق النص اللغوي .

١٩- منهج القدماء في تأليف علوم العربية، وهل كان وصفياً ؟

٢٠- كيف نفسر عدم اتجاه القدماء إلى استخدام المنهج التاريخي والمنهج المقارن؟

٢١- منهج أبي الطيب اللغوي في كتابه " مراتب النحويين " .

٢٢- منهج أبي بكر الزبيدي في تصنيف " طبقات النحويين واللغويين " .

٢٣- منهج القفطي في كتابه " إنباه الرواة على أنباه النحاة " .

[ج] موضوعات تقوم دراستها على المنهج الوصفي الحديث :

٢٤- الدلالة اللغوية في رسالة الجاحظ " في الحنين إلى الأوطان " [رسائل الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الثاني ١٩٦٥] .

٢٥- الصفة واستخدامها في قصيدة دريد بن الصمة " أرث جديد الحبل من أم معبد" [جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ، ط١٩٦٣ بيروت ص ٢١١-٢١٣.

٢٦- مُعجم لألفاظ " الكدية " في القرنين الثالث والرابع للهجرة .

٢٧- لغة التجارة في بيئة البصرة في عصر الجاحظ .

٢٨- بنية اسم الفاعل في إحدى اللهجات العامية في مصر .

٢٩- استخدام [أم] و [بلْ] و [أو] في القرآن الكريم .

٣٠- صيغ القَسَم في خُطب الحجاج بن يوسف الثقفي .

٣١- دراســة إحدى المجموعات الدلالية الآتية ، من خلال استخدام العرب إياها في العصر الجاهلي: مجموعة من الألفاظ الدالة على الألوان / أو الدالة على الأطعمة/ أو الدالــة علــى الأيــام والليالي/ أو الدالة على معنى الغضب وضده/ أو الحكمة وضدها .

[د] موضوعات تقوم دراستها على المنهج التاريخي :

٣٢- تطور استخدام الضاد والقاف والطاء في الفصحى عبر العصور.

٣٣- التغيــيرات التي طرأت على معاني الكلمات الآتية في تاريخ العربية الفصحى: الريشة ، السيارة، القطار، الحاجب ، الشرف، المجد .

٣٤- ظاهرة انحدار المعنى في تاريخ الكلمات العربية وتفسيرها .

[هـ] موضوعات تعتمد دراستها على المنهج المقارن :

٣٥- ظاهرة " الإمالة " بين الفصيحة والعامية .

٣٦- دراسة إحدى مجموعات الألفاظ الآتية من خلال اللغات السامية : الألفاظ الدالة علــى القبــيلة وفروعها/ أو الدالة على عبادة الكواكب في الجاهلية/ أو الدالة على الألوان .

٣٧- جمع التكسير في اللغات السامية .

[و] موضوعات تعتمد دراستها على المنهج التقابلي :

٣٨- دراسة أزمان " الفعل " في العربية واللغات الأوربية الحديثة .

٣٩- الصعوبات التي يواجهها أبناء العراق في تعلّم الفرق بين الضاد والظاء وطريقة التغلب عليها .

٤٠- الموازنة بين نظام ترتيب الجملة في العربية والألمانية .

٤١- استخدام أفعل التفضيل في العربية وما يقابله في الإنجليزية .

نماذج أخرى من موضوعات لغوية :

[١] حول توثيق نص لغوي :

من كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، تأليف جلال الدين السيوطي، الجزء الأول [ط الموسوعات بالقاهرة] .

توفيق الفصل الذي عنوانه " ذكر من كان بمصر من أئمة النحو واللغة١-٢٥٤ - ٢٥٨] ، حيث ترجم السيوطي لما يقرب من ستة وعشرين إماماً من أئمة النحو واللغة .

[٢] حول شخصية لغوية :

دراسة أحد أئمة النحو واللغة ممن ذكرهم السيوطي في حسن المحاضرة ج١.

[٣] حول ظاهرة أو قضية أو ملاحظة مشتركة أو عامة :

١- العلاقة بين اللهجات العربية الحديثة واللغة الفصحى .

٢- مسائل الخلاف بين النحاة البصريين والكوفيين في ضوء الدراسة المقارنة.

٣- الأسس الجمالية في بناء اللغة العربية .

٤- مجالس اللغويين في بغداد في القرن الرابع الهجري .

٥- رحلة اللغة العربية إلى أوربة في العصور الوسطى وأثرها في الثقافة الأوربية.

٦- مراكز الدرس اللغوي في صعيد مصر في القرن السابع الهجري .

٧- التصحيف في مدونات القدماء ورواياتهم حتى منتصف القرن الرابع الهجري من خلال ما كتبه حمزة الأصفهاني في كتابه " التنبيه على حدوث التصحيف".

٨- الفرق بين منهج القراء ومنهج النحاة في دراسة الظاهرة اللغوية .

٩- العربية وصلتها بتراثها الشعبي .

١٠- يقال إن ميزان العلاقة بين الخبر اللغوي وتجوينه قد تغير مع الزمن تغيراً كبيراً . ناقش .

[٤] حول الصوتيات ووظائفها في الكلام :

١١- المجانسة الصوتية من عوامل التغير الصوتي في بناء اللغة .

١٢- النبر الصوتي وأنواعه عند اللغويين المحدثين .

١٣- استيحاء الدلالة الصوتية وأثره في بناء الكلمة العربية .

١٤- التخالف الصوتي وآثاره في العربية .

١٥- ظواهر صوتية لا تظهر في الخط ولكنها ذات تأثير محسوس على مقاطع الصيغ والتراكيب .

١٦- تطور نطق الضاد في العربية .

١٧- يقال إن الخليل بن أحمد مؤسس علم الصوتيات في لغة العربية .ناقش .

١٨- يقال إن العربية قد عرفت واستخدمت الصوت المزدوج . فما رأيك ؟

١٩- تبادل الفاء والثاء في كثير من الألفاظ العربية يعبر عن لهجتين مختلفتين.

[٥] حول الصيغ أو الأبنية [الصرف] :

٢٠- صيغ التصغير في شعر المتنبي .

٢١- أصل المشتقات عند البصريين هو المصدر وعند الكوفيين هو الفعل، ناقش هذين القولين .

٢٢- يقال إن عملية التوازن الصرفي للصيغ تمت بالتدريج على مراحل في تطور اللغة . ناقش هذا القول .

٢٣- تحليل للأسماء الميمية في العربية التي تلصق بها ميم زائدة سابقة أو لاحقة.

٢٤- تحليل للأسماء التي تلحق بها الألف والنون في العربية .

٢٥- تحليل للصيغ التي تلحق بها تاء في العربية .

٢٦- تحليل للصيغ الخماسية من الأسماء والأفعال في العربية .

٢٧- صيغة [فعّال] وما طرأ على مدلولها من تطور في خلال العصور .

٢٨- وسائل اللغة في تنمية الصيغ على مر الزمن .

٢٩- العلاقة بين معاني فعل فعال فعيل .

٣٠- اسم الجمع واسم الجنس الجمعي واسم المعنى: صيغها وخصائصها المشتركة.

٣١- صلة هذه الأسماء بجموع التكسير في العربية .

٣٢- الألفاظ الدخيلة التي استعملتها العرب في كلامها هل تعطي حكم كلامها : فتشتق ويشتق منها ؟

[٦] حول التركيب النحوي :

٣٣- مواضع الحصر والاستثناء في سورة سبأ ، مع تحليلها من الناحية النحوية.

٣٤- التغير في تركيب الجملة .

٣٥- الحال النحوية في أدب عبد الحميد الكاتب .



٣٦- التركيب النحوي في الأمثال الجاهلية .

٣٧- تراكيب الإغراء والتحذير والاختصاص في شعر الخوارج في العصر الإسلامي.

٣٨- المقياس الصوابي عند النحاة : قيمته العلمية والتعليمية .

٣٩- وظيفة الضمة في بناء اللفظ والتركيب العربي .

٤٠- أي واستعمالها في القرآن الكريم .

٤١- [أن – أم – ما] واستعمالها في سورة النجم .

٤٢- الجمل الشرطية التي استخدمها ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنة .

[٧] حول المعجميات والدلالة اللغوية :

٤٣- الفرق بين المادة اللغوية والأسرة اللغوية من وجهة نظر الباحث في الدلالة المعجمية .

٤٤- دراسة نقدية لأحد المعاجم الأبجدية القديمة .

٤٥- معجم لأدوات الغناء والموسيقى عند عرب الجاهلية .

٤٦- تطور التأليف المعجمي إلى نهاية القرن الثالث الهجري .

٤٧- دراسة لمقدمة معجم العين للخليل بن أحمد .

٤٨- دلالة الألفاظ [الإنس – الإنسان – البشر] في القرآن الكريم .

٤٩- كيف نفسر كثرة الألفاظ العربية الدالة على الأشياء والأحداث الرهيبة والمشئومة والمستقبحة .

٥٠- يقال إن الكلمات الملتبسة الدلالة كثيراً ما أدت إلى مشكلات اجتماعية .

٥١- أثر الخرافة في تطور دلالة اللفظين وتاريخهما الاشتقاقي : القمر – الغول.

٥٢- دراسة نص ابن فارس الذي نقله الزركشي في البرهان في علوم القرآن ص ١٠٥ – ١١٠ ، وهو خاص بالدلالة اللغوية في القرآن الكريم .

٥٣- دراسة لمقدمة أبي حاتم لمحمد بن حمدان الرازي لكتاب الزينة في الكلمات الإسلامية .

٥٤- يكون المضمون النفسي والاجتماعي وراء تسمية المسمى بعلم اسماً كان أو كنية أو لقباً .

٥٥- تطور دلالة " الأمة " في العربية .

٥٦- تطور دلالة العلم في اللغة والاصطلاح .

٥٧- العلاقة بين أسرتي [ب ر ع] ، [ر ب ع] في العربية في ضوء الدراسة المقارنة .

٥٨- تطور معاني كل من الألفاظ : المجد – الشرف – الحقيقة .

٥٩- دلالة العدد سبعة ومشتقاته في القرآن والحديث .

٦٠- الدلالة المشتركة بين الألفاظ الدالة على الرئاسة. عند قدماء العرب والساميين.

٦١- العلاقة بين معاني الألفاظ الدالة على القوم والقبيلة والشعب عند قدماء العرب.

٦٢- تطور معاني الألفاظ الدالة على الحب في العربية .

٦٣- أثر الإسلام في تطور دلالة كل من الألفاظ : الصوم – الحج – الزكاة .

٦٤- أثر التكنولوجيا الحديثة في تطور دلالة الألفاظ : القطار – السيارة – البريد.

وإليك مجموعة أخرى من البحوث الحديثة التي تشمل النحو والصرف والعروض والدراسات الميدانية ؛ وبعض الأبواب التعليمية التي يمكن أن تنسج من كل واحد منها ليس أقل من ستة أو عشرة موضوعات :

[١] المؤثرات الإيقاعية فى لغة الشعر .

[٢] العربية والوظائف النحوية ، دراسة فى اتساع النظام والأساليب .

[٣] منهج السيوطى النحوى ، دراسة فى المقاطع .

[٤] العربية والتطبيقات العروضية .

[٥] القيمة الوظيفية للصوائت ، دراسة لغوية مقارنة .

[٦] النحو والفكر والإبداع ، دراسة فى تفكيك النص وتوثيقه .

[٧] العربية والفكر النحوى ، دراسة فى تكامل العناصر وشمول النظرية .

[٨] لسان عربى ونظام نحوى .

[٩] من أصول التحويل فى نحو العربية .

[١٠] المنظومة النحوية دراسة تحليلية .

[١١] وظيفة التاء فى النظم والرسم والبناء .

[١٢] النظم والمجتمع ، دراسة فى اللغة والقواعد والأوزان .

[١٣] فى التحليل العروضى لأبنية اللغة وتراكيبها .

[١٤] التوليد العروضى ، بحث فى قدرة العربية وكفاءة الأوزان .

[١٥] القيمة الحضارية للعقلية العربية فى قوانين التوليد العروضى .

[١٦] اللحن والإيقاع ، دراسة فى تطور لغة الشعر وموسيقاه .

[١٧] متانة النسج وجمال التركيب ، بحث فى قيمة الأسلوب الشعرى .

[١٨] عناصر الإيقاع اللغوية ، المظاهر والوظائف والمستويات .

[١٩] دراسة متقدمة فى علم العروض .

[٢٠] دور أنظمة التحليل اللغوى فى درس عروض العربية المعاصر وإيقاعها .

[٢١] المدخل إلى علم الصرف على ضوء دراسة اللغة والنحو – الجزء الأول (متطلبات التحليل فى النظام الصرفى) .

[٢٢] خصائص الأفعال وما شابهها من الأسماء .

[٢٣] الفصائل الصرفية ، النسب والتصغير وتوكيد الفعل والعدد .

[٢٤] الاشتقاق والمشتقات .

[٢٥] الإعلال والأسماء المعتلة .

[٢٦] الإبدال والقلب المكانى وفصيلة الجنس .

[٢٧] علاقة خصائص الأفعال بتصنيف المصادر وتقاسيمها .

[٢٨] الانحرافات الصوتية والتركيبية والدلالية فى اللهجة السكندرية ، دراسة مبدئية فى استعمالات أهل كرموز لتركيب النداء .

[٢٩] التغير اللغوى وعلاقته بما تقدمه وسائل الإعلام من برامج ثقافية واجتماعية .

[٣٠] علاقة درجة الشيوع ونشاط الوحدات اللغوية بالتلوث السمعى .

[٣١] معجم ممدوح الألسنى للحقول السياقية والمقامية دراسة تداولية .

[٣٢] دور الحركة فى عين الفعل الثلاثى المجرد وتصرفه .

[٣٣] كتب "فعلت وأفعلت" بين نظامى المعجم ونحو الجملة (الزجاج نموذجاً) .

[٣٤] علاقة الفعل الثلاثى بزوائده فى ضوء علم الصيغ الوظائفى بحث فى النموذج التركيبى والدلالى .

[٣٥] اسم الفعل فى نحو العربية دراسة فى الخصائص والمصطلح .

[٣٦] دور حرف الجر فى تحويل التركيب وأثره فى نقل الوظيفة النحوية.

[٣٧] فى التحليل النحوى وخصائص العربية .

[٣٨] الإعلال ومظاهره فى استعمالات العربية .

[٣٩] التعريب والتنكير فى العربية .

[٤٠] الدرس النحوى بين رصد الظواهر وتعدد المصطلح " الإضافة نموذجاً " .

[٤١] العلاقة بين ظاهرتى النصب والجر فى الدرس النحوى والاستعمال .

[٤٢] التحليل الصرفى للعربية فى إطار منهجى البحث التقابلى والتقارنى .

[٤٣] الاتجاهات الحديثة فى علم اللغة " اتجاه التحليل الصرفى ووحداته " .

[٤٤] رتبة النظام الصرفى ومعايير تحليله .

[٤٥] الجمل والتراكيب والأساليب " دراسة فى نحو العربية الجمالى " .

[٤٦] الإضافة بين البنيتين النحوية والمنطقية وحذف عناصر المركب نموذجاً .

[٤٧] نظرية البدائل فى إطار أساليب العربية وقواعدها .

[٤٨] الجمل الاسمية غير المقيدة .

[٤٩] الألسنية والتحليل الوظيفى .

[٥٠] من خصائص الكلمة إلى نحو الجملة .

[٥١] الفونولوجيا والمعنى والوظيفة ، عرض ونقد وتحليل .

[٥٢] الظواهر التركيبية بين نحو الجملة ونحو النص .

[٥٣] مستويات التحليل اللغوى والمعنى والوظيفة .

[٥٤] الجملة الاسمية المقيدة بالنواسخ الفعلية .

[٥٥] الجملة الاسمية المقيدة بالنواسخ الحرفية .



[٥٦] الجملة الاسمية المقيدة بأفعال القلوب .

[٥٧] التحليل الوظيفى للتراكيب .

[٥٨] نحو العربية ومدارس تحليل الألسني الحديث .

[٥٩] النحو العربي مدارسه وبيئاته العلمية .

[٦٠] قضايا النحو التقابلية ، المصطلحات والتعريفات والنصوص .

[٦١] النصوص النحوية ، ترجمة وتعليق .

[٦٢] الجملة الفعلية ، مكوناتها وقضاياها .

[٦٣] فضلات الجملة الفعلية [المفاعيل] .

[٦٤] مكملات الجملة الفعلية مسائل تركيبية .

[٦٥] شعر عمر بن أبي ربيعة دراسة أسلوبية .

[٦٦] الفضائل الصرفية الأفعال والجنس والعدد .

[٦٧] التراكيب النحوية نظامها وخصائصها في شعر سقط الزند دراسة في تحليل الخطاب وعلم النص .

[٦٨] الإعراب والمدخل النحوي لتحليل النصوص .

[٦٩] التحليل اللغوي مستوياته ومناهجه ووحداته .

المصادر والمراجع

١- أبـو حـامد الغزالي: معيار العلم في فن المنطق، المطبعة العربية بمصر، ط٢ ، ١٩٢٧م .

٢- أبو عثمان المازني : المنصف .

٣- د. أحمد شلبي: كيف تكتب بحثاً أو رسالة ؟ ، القاهرة .

٤- د. أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب ١٩٧٦م .

٥- آلان شالمرز : نظريات العلم، ترجمة الحسين سحبان، وفؤاد الصفا، دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٩١م .

٦- ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ١٩٥٢م.

٧- ابـن جنـي في التصريف ، تحقيق إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، دار إحياء التراث القديم، ط١، ١٩٥٤م .

٨- ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام، بعناية أحمد شاكر، مكتبة الخانجي .

٩- ابن سينا: الإشارات والتنبيهات، القاهرة ١٩٤٧م .

١٠- ابـن فـارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق السيد صقر، المكتبة السلفية بالقاهرة ١٣٢٨هـ .

١١- ابـن مضاء القرطبي: الرد على النحاة ، تحقيق د/ شوقي ضيف ، ط١ ، دار الفكر العربي ١٩٤٧ م .

١٢- ابن هشام: شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٦٠م .

١٣- تـراث الإسـلام : ترجمة د/ حسين مؤنس، د/ إحسان العمد، عالم المعرفة ، نوفمبر ١٩٧٨م .

١٤- د. تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية، الأنجلو المصرية ١٩٥٥م .

١٥- ______ : الأصول ، دار الثقافة ، الدار البيضاء .

١٦- ______ : اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

١٧- ______ : مناهج البحث في اللغة ، ط الرباط .

١٨- التهانوي: كشف اصطلاحات الفنون، تحقيق د/ لطفي عبد البديع، ط ١٩٦٣م .

١٩- د.توفيق الطويل : موقف العرب من العلم، سلسلة الثقافة الإسلامية .

٢٠- ج. فندريس: اللغة، تعريف عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة ١٩٥٠م .

٢١- الجرجاني : التعريفات، تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ، دار الكتاب العربي .

٢٢- جون سيرل: تشومسكي والثورة اللغوية، الفكر العربي .

٢٣- د. حمزة الدمرداش زغلول : في المكتبة العربية، ١٩٨٠م ، دار الطباعة المحمدية .

٢٤- د/ جميل حبيب : المنطق، ط بيروت ١٩٦٧م .

٢٥- د/ عبد المجيد عابدين : مزالق في طريق البحث اللغوي والأدبي وتوثيق النصوص، دار جامعة الخرطوم، الخرطوم، ١٩٨٣م .

٢٦- دين كيث سايمنتن: العبقرية والإبداع والقيادة، ترجمة د/ شكري عبد الحميد، مراجعة محمد عصفور، عالم المعرفة، أغسطس ١٩٩٣م .

٢٧- د. رشيد الشرنوبي: مبادئ العربية، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ، ط١٠ .

٢٨- د. زكريا إبراهيم : مشكلة البنية ، مكتبة مصر بالفجالة ١٩٧٦م .

٢٩- د. زكـــي نجيب محمود : المنطق الوضعي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٤ ، ١٩٦٦م .

٣٠- ســيبويه : الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٦م / ١٩٧٧م ..

٣١- السيوطي : الاقتراح ، ط٢ ، حيدر آباد ، ١٣٥٩ هـ .

٣٢- ـــــــــ : المزهر ، ط٣ ، دار إحياء الكتب العربية .

٣٣- د. شوقي ضيف : البحث الأدبي : طبيعته، مناهجه، دار المعارف ١٩٧٢م .

٣٤- ـــــــــ : المدارس النحوية، دار المعارف ، ط٣، ١٩٧٦م .

٣٥- د. صلاح فضل : علم الأسلوب، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٨٨م.

٣٦- د. عــبد الرحمــن أيــوب : دراسات نقدية في النحو العربي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧م .

٣٧- عبد الرحمن الحاج صالح : اللسانيات ١٩٧١م .

٣٨- د. عبد الرحمن بدوي : المنطق الصوري والرياضي، دار النهضة المصرية، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٧م .

٣٩- ـــــــــ : مناهج البحث العلمي، دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٣م ، ط ١٩٦٨م .

٤٠- د. عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية، ط بيروت ١٩٧٤م .

٤١- د. علـــي حواد الطاهر : منهج البحث الأدبي ، ط٧ ، مطبعة الديواني ببغداد ١٩٨٦م .

٤٢- علـــي عـــبد المعطي ، د/ السرياقوسي : كتاب أساليب البحث العلمي ، مكتبة الفلاح ، دولة الكويت .

٤٣- د. علي عبد الواحد وافي: علم اللغة، القاهرة .

٤٤- ف.هايزنبرج : المشاكل الفلسفية للعلوم النووية ، ترجمة د/ أحمد مستجير ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م .

٤٥- د. فؤاد زكريا : التفكير العلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦م .

٤٦- ـــــــ : التفكير العلمي، عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٨م .

٤٧- الفارابي : إحصاء العلوم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧م .

٤٨- فاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ١٩٨٥م .

٤٩- د. فاطمة محجوب : دراسات في علم اللغة، ط القاهرة ١٩٧٦م .

٥٠- كوستاز لويس : قاموس سرياني / عربي، ط الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٣م .

٥١- د. محمد أحمد أبو الفرج : مقدمة لدراسة فقه اللغة، ط بيروت، ١٩٦٦م .

٥٢- د. محمد أحمد الغمراوي : الإسلام في عصر العلم والمدنية، ط دار الإنسان، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م .

٥٣- ـــــــ : بين الدين والعلم ، القاهرة .

٥٤- محمد السرياقوسي : التعريف بمناهج العلم ، ط القاهرة .

٥٥- محمد المبارك: فقه اللغة، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٧٧هـ - ١٣٧٩هـ / ١٩٥٨ م - ١٩٦٠م .

٥٦- د. محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة " مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي " ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، القاهرة .

٥٧- د. محمد سعد : الموجز في البحث اللغوي ، ١٤١٤هـ .

٥٨- د. محمد عيد : في أصول النحو العربي، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٣م .

٥٩- محمد فرج عيد : مستوى الصواب والخطأ، رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم ، القاهرة .

٦٠- د. محمــود الســعران : علم اللغة [مقدمة للقارئ العربي] ، ط الإسكندرية ١٩٦٤م .

٦١- د. محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ، ط الكويت ١٩٧٣م .

٦٢- د. محمــود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث، الأنجلو المصرية، القاهرة ط٢ ، ١٩٥٣م .

٦٣- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٩م .

٦٤- د. ممــدوح عبد الرحمن الرمالي: المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، ط دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٤م .

٦٥- الموسوعة الفلسفية : وضع لجنة من العلماء السوفيائيين، إشراف م. روزنتال، ب.يودين، ترجمة سمير كرم، ط٥ ، بيروت، دار الطليعة .

٦٦- هنري فليش : العربية الفصحى ، ترجمة د/ عبد الصبور شاهين، الكاثوليكية، بيروت .

٦٧- و.أ.ب. بفــردج: فــن البحث العلمي، ترجمة زكريا فهمي، مراجعة د/ أحمد مصطفى أحمد، ط القاهرة ١٩٦٣م .

٦٨- د. يحــيى محمــود علي الجندي: أضواء على بعض أعلام اللغة وقضاياها، القاهرة ١٩٨١م .

٦٩- د. يوســف كــرم : الفلسفة اليونانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٥ ، القاهرة ١٩٧٠ م .

المراجع الأجنبية :

70-Hielmslev [Louis] : prole gomenes a une the orie du language, traduit du danois par un a conger avec La collaboration d'Annick, wewer, les editions de Minuit. 1971 .

71-R.H.Robins : Breve histoire de La Linguistique de platon a chomsy, traduit de l'arglais par Maurice Borel, Editions du seuil-paris 1975.

72-Ruwet Nicol'as : introduction La grammaire gererative plon paris .

73-Halliday, Mc Intoch and strevents, the Linguistic, sciences and Language teaching, ELBS edition, London 1975 .

74-Crystal Linguistics, penguin Books, 1968 .

75-Linguistc sciences and Language teaching .

76-J.Conant, Science and comman sende, yale University press, New Hacen, 1961 .

77-R.R.K. Hartmann and F.C.stork: Dictionary of Language and Linguistics, London, 1973 .

78-Dinnaen : An introduction to genbral linguistics .

79-D'crystal : Linguistics, penguin Books, London, 1974 .

80-Jiri, Kramsky, the word asa linguistic unit Mouton, the Hague, Paris , 1969 .

81-M.walker, the Nature of scientif through, preface, Hall Jersey .

82-H.Becker, through values to social inter pretation, Duke university press, Durham, 1950 .

83-N.chomsky : topics in the theory of Generative Grammar, Mouton, the Hague-Paris 1969 in current in Ling Uistics, vol.

84-V.N.Misra : the Descriptive technique in panini, Mouton, the Hague-Paris 1966 .

85-N.chomsky : Aspects of the theory of syntax p.v. the M.I.T press, 1965 .

86-Chomsky, Essays or from and interpretation North Holl and 1977 .

87-George Mounin La semantique, Paris, col clef, 2 meed, 1975 .

88-Block and trager : outline of linguistic Analysis .

89-J.vendryes : Le language paris, 1923 .

90-F.P.Dinneen, An introduction to general lingustics, Holt, Rinehar and winston, New York, 1971 .

91-Firth, personality and language, in society social ogical Review, vol, 11, sect, two, 1950 .

الفهرست

كتب للمؤلف

[١] المؤثرات الإيقاعية فى لغة الشعر .

[٢] العربية والوظائف النحوية ، دراسة فى اتساع النظام والأساليب .

[٣] منهج السيوطى النحوى ، دراسة فى المقاطع .

[٤] العربية والتطبيقات العروضية .

[٥] القيمة الوظيفية للصوائت ، دراسة لغوية مقارنة .

[٦] النحو والفكر والإبداع ، دراسة فى تفكيك النص وتوثيقه .

[٧] العربية والفكر النحوى ، دراسة فى تكامل العناصر وشمول النظرية .

[٨] لسان عربى ونظام نحوى .

[٩] من أصول التحويل فى نحو العربية .

[١٠] المنظومة النحوية دراسة تحليلية .

[١١] وظيفة التاء فى النظم والرسم والبناء .

[١٢] النظم والمجتمع ، دراسة فى اللغة والقواعد والأوزان .

[١٣] فى التحليل العروضى لأبنية اللغة وتراكيبها .

[١٤] التوليد العروضى ، بحث فى قدرة العربية وكفاءة الأوزان .

[١٥] القيمة الحضارية للعقلية العربية فى قوانين التوليد العروضى .

[١٦] اللحن والإيقاع ، دراسة فى تطور لغة الشعر وموسيقاه .

[١٧] متانة النسج وجمال التركيب ، بحث فى قيمة الأسلوب الشعرى .

[١٨] عناصر الإيقاع اللغوية ، المظاهر والوظائف والمستويات .

[١٩] دراسة متقدمة فى علم العروض .

[٢٠] دور أنظمة التحليل اللغوى فى درس عروض العربية المعاصر وإيقاعها .

[٢١] المدخل إلى علم الصرف على ضوء دراسة اللغة والنحو – الجزء الأول (متطلبات التحليل فى النظام الصرفى) .

[٢٢] خصائص الأفعال وما شابهها من الأسماء .

[٢٣] الفصائل الصرفية ، النسب والتصغير وتوكيد الفعل والعدد .

[٢٤] الاشتقاق والمشتقات .

[٢٥] الإعلال والأسماء المعتلة .

[٢٦] الإبدال والقلب المكانى وفصيلة الجنس .

[٢٧] علاقة خصائص الأفعال بتصنيف المصادر وتقاسيمها .

[٢٨] الانحرافات الصوتية والتركيبية والدلالية فى اللهجة السكندرية ، دراسة مبدئية فى استعمالات أهل كرموز لتركيب النداء .

[٢٩] التغير اللغوى وعلاقته بما تقدمه وسائل الإعلام من برامج ثقافية واجتماعية .

[٣٠] علاقة درجة الشيوع ونشاط الوحدات اللغوية بالتلوث السمعى .

[٣١] معجم ممدوح الألسنى للحقول السياقية والمقامية دراسة تداولية .

[٣٢] دور الحركة فى عين الفعل الثلاثى المجرد وتصرفه .

[٣٣] كتب "فعلت وأفعلت" بين نظامى المعجم ونحو الجملة (الزجاج نموذجاً) .

[٣٤] علاقة الفعل الثلاثى بزوائده فى ضوء علم الصيغ الوظائفى بحث فى النموذج التركيبى والدلالى .

[٣٥] اسم الفعل فى نحو العربية دراسة فى الخصائص والمصطلح .

[٣٦] دور حرف الجر فى تحويل التركيب وأثره فى نقل الوظيفة النحوية.

[٣٧] فى التحليل النحوى وخصائص العربية .

[٣٨] الإعلال ومظاهره فى استعمالات العربية .

[٣٩] التعريب والتنكير فى العربية .

[٤٠] الدرس النحوى بين رصد الظواهر وتعدد المصطلح " الإضافة نموذجاً " .

[٤١] العلاقة بين ظاهرتى النصب والجر فى الدرس النحوى والاستعمال .

[٤٢] التحليل الصرفى للعربية فى إطار منهجى البحث التقابلى والتقارنى .

[٤٣] الاتجاهات الحديثة فى علم اللغة " اتجاه التحليل الصرفى ووحداته " .

[٤٤] رتبة النظام الصرفى ومعايير تحليله .

[٤٥] الجمل والتراكيب والأساليب " دراسة فى نحو العربية الجمالى " .

[٤٦] الإضافة بين البنيتين النحوية والمنطقية وحذف عناصر المركب نموذجاً .

[٤٧] نظرية البدائل فى إطار أساليب العربية وقواعدها .

[٤٨] الجمل الاسمية غير المقيدة .

[٤٩] الألسنية والتحليل الوظيفى .

[٥٠] من خصائص الكلمة إلى نحو الجملة .

[٥١] الفونولوجيا والمعنى والوظيفة ، عرض ونقد وتحليل .

[٥٢] الظواهر التركيبية بين نحو الجملة ونحو النص .

[٥٣] مستويات التحليل اللغوى والمعنى والوظيفة .

[٥٤]   الجملة الاسمية المقيدة بالنواسخ الفعلية .

[٥٥]   الجملة الاسمية المقيدة بالنواسخ الحرفية .

[٥٦]   الجملة الاسمية المقيدة بأفعال القلوب .

[٥٧]   التحليل الوظيفى للتراكيب .

[٥٨]   نحو العربية ومدارس تحليل الألسني الحديث .

[٥٩]   النحو العربي مدارسه وبيئاته العلمية .

[٦٠]   قضايا النحو التقابلية ، المصطلحات والتعريفات والنصوص .

[٦١]   النصوص النحوية ، ترجمة وتعليق .

[٦٢]   الجملة الفعلية ، مكوناتها وقضاياها .

[٦٣]   فضلات الجملة الفعلية [المفاعيل] .

[٦٤]   مكملات الجملة الفعلية مسائل تركيبية .

[٦٥]   شعر عمر بن أبي ربيعة دراسة أسلوبية .

[٦٦]   الفضائل الصرفية الأفعال والجنس والعدد .

[٦٧]   التراكيب النحوية نظامها وخصائصها في شعر سقط الزند دراسة في تحليل الخطاب وعلم النص .

[٦٨]   الإعراب والمدخل النحوي لتحليل النصوص .

[٦٩]   التحليل اللغوي مستوياته ومناهجه ووحداته .